ميسره الدندراوي

العشاء الأخير

رواية



العشاء الأخير

روايـــة

ميسره الدندراوي

الرواق للنشر والتوزيع

«إليك.. يا أميرة كل الأزمنة والعصور»

إلى أمي وأبي وإخوتي وأولادي

إلى أحمد خالد توفيق
بلا ألقاب.. بلا صفات
لعل روحك تبتسم لي فرحة

شكرًا عائلة كشيشيان وعائلة بابويان

على السماح لي باستخدام أسمائكم

أنا ممتن لكم جدًا

ميسره

Շնորհակալութիւն Քէշիշեան եւ Պապոյեան
ընտանիքներուն իրենց անուններու
գործածութեան իրաւունքին համար

Ես շատ շնորհակալ եմ

Մայսարա

ليس باستطاعتي أن أنفي أو أن أؤكد صحة الأحداث أو الوقائع المتضمنة في هذه الرواية والتي حدثت في مدينة القاهرة بين العام ١٩١٥ والعام ٢٠١٥.

المؤلف

«Float like a butterfly, sting like a bee.
His hands can't hit what his eyes can't see.»

«حُم مثل الفراشة والدغ مثل النحلة، فيداه لن تضرب
ما لا تستطيع عيناه رؤيته»

محمد علي كلاي

١٩٤٢ ـ ٢٠١٦

القاهرة

الرابع والعشرون من مايو ٢٠١٥.. الخامسة والنصف مساءً

غرفة طعام عتيقة كما يبدو من الوهلة الأولى

طاولة خشبية تقارب المترين طولا، تتكدس حولها عشرة مقاعد من طراز يعود إلى بدايات القرن العشرين.

وهناك في ضوء شمس الغروب الخافت المتسلل من بين شرائح الشيش الخشبي القديم، وضوء مصباح كيروسين يجلس متكئًا على طاولة خشبية ضخمة في ركن الغرفة، تميز هذين الرجلين الجالسين متقابلين على طرفي المائدة.

جسد رياضي متناسق يعلوه وجه وسيم القسمات، عينان تشعان بريقًا يطغى على ضوء المصباح، وشيب كسا الرأس حتى منتصفها فزاد صاحب الرأس وسامة وتألقًا، صاحب الوجه الوسيم الذي يرتدي حلة رمادية تبدو باهظة الثمن متقنة الخياطة فوق جسده، وقميصه الحريري الأبيض متحررًا من رابطة العنق التي انسابت غير معقودة فوق كتفه.

على الجانب الآخر، يجلس رجل ممتلئ الجسد، يرتدي قميصًا مخططًا بسيطًا، وفوق الجسد الممتلئ رأس حليق الذقن انحسر الشعر عن

مقدمته، ولغد ممتلئ يملأ فراغ الرقبة بين الجسد والرأس، بينما عيناه باردتان منطفئتان تحدقان في وجه الوسيم الأشيب، وملامح وجه مملة - كيف تكون ملامح الوجه تعطي تعبيرًا بالملل - بينما دخان سيجارته الأمريكية يتصاعد بطيئًا مملًا كقسمات وجهه نحو السقف.

يرفع الوسيم يده اليسرى ناحية علبة السجائر وعلى وجهه تعبير (هل لي في واحدة من هذه) فيخرج البدين سيجارة من العلبة الكرتونية ويلقيها له عبر الطاولة ليتلقفها الوسيم في مهارة ويشعلها بقداحة ذهبية أنيقة، ساحبًا دفقات من الدخان في نهم، ملقيًا إياها من فتحتي أنفه كزفير هواء الخماسين فتملأ فضاء الغرفة.

ينظر الوسيم إلى لهب السيجارة وعلى وجهه نظرات تشبه من يحن إلى عشق قديم

- عارف يا توفيق باشا إن دي أول سيجارة لي من.. تصدق مش فاكر من إمتى.

- غالبًا يا مستر رافي عشان إنت بتحب السيجار الكوبي الفاخر، شُفت العلبة على الترابيزة هناك جنب لمبة الجاز.

- مش عشان أنا بحبه أو مبحبوش، بس إنت عارف.....

ثم صمت وعيناه تحلقان في الجو وكأنه يبحث عن تعبير مناسب

- في حاجات كدة مهمة عشان تحافظ عالواجهة.

ابتسامة ساخرة تنبت من لا شيء على وجه توفيق وتختفي مع كلماته القليلة.

- الوجاهة قصدك؟

ـ لا لا، أنا قصدي الواجهة الاجتماعية المعتادة، الاستيريو تايب، لازم تحافظ على منظر المليونير الفخم أبو سيجار زنوبيا.

ثم يسحب أنفاسًا أخرى من السيجارة ويدفنها في قلب منفضة السجائر، بينما تابع توفيق.

ـ بمناسبة السيجار صحيح، أنا سمعت كدة إن كلام الفيلم بتاع عادل إمام صح، وإنه فعلا بيتلف على أوراك البنات العذارى.

ـ توفيق باشا، ده ستيريو تايب، وكل الناس بتحب الاستيريو تايب.

يبتسم توفيق وينظر إلى سيجارته التي أوشكت على الوفاة من اقتراب اللهب من فلترها البني.

ـ وانت إيه رأيك، بتحب الاستيريو تايب برضه؟

ابتسامة باهتة، ارتسمت على وجه رافي، ثم مد يده أسفل الطاولة وجاء بترمس معدني صغير ورفعه ناحية توفيق.

ـ قهوة؟

ـ شربت كفاية النهاردة.

ـ كام فنجان قهوة بتشرب في اليوم.

ـ بطلت أعد من ٥ سنين.

ـ تقصد من ساعة ما ركبت دعامة القلب.

نظرة هي خليط من اندهاش وإعجاب وسخط ارتسمت على وجه توفيق بينما رفع رافي الترمس وصب منه القليل في كوب ورقي أمامه.

ـ متستغربش يا توفيق باشا، أنا ليا مصادري برضه.

ـ خدت بالي.

يضع رافي الترمس على الطاولة، ثم يعتدل في جلسته مصوبًا نظرات عينيه اللامعتين نحو عيني توفيق.

ـ إنت جاي ليه يا توفيق باشا؟

ـ عايز أفهم.

ـ وافرض معجبكش اللي انت فهمته؟

ـ أحب أقرر بنفسي إذا كان هيعجبني ولا لا.

ـ يبقى نشرب قهوة.

ابتسم توفيق لإلحاح رافي وهز رأسه موافقًا، فتناول رافي كوبًا ورقيًا من أسفل الطاولة وصب فيه قهوة من الترمس الأنيق ثم نهض ووضعها أمام توفيق، وأشار إلى علبة السجائر من جديد، فهز توفيق رأسه وابتسامة ساخرة تعلو وجهه.

ـ إنت حبيت الموضوع ولا إيه؟

ـ تقدر تقول إنها وحشتني (يشعل السيجارة من قداحة توفيق) أو تقدر تقول إن الحكي مينفعش من غير قهوة وسجاير.

نظر توفيق إلى العلبة التي بدت خاوية كبطن الصائم.

ـ بس كدة لازم تحكي بسرعة، العلبة فضيت خلاص.

ـ متقلقش يا باشا، السجاير جاية في الطريق، أنا بعت أشتري من أول ما حضرتك شرفتني.

يهز توفيق رأسه في إعجاب متحفظ، ثم ينفث دخان سيجارته رافعًا كف يده ومحركًا أصابعه بعلامة توحي برغبته في أن يسمع الحكاية.

ينهض رافي متجهًا ناحية خزانة كبيرة تحتل حائطًا كاملا، ويخرج منها زجاجة خضراء نصف شفافة تحتوي سائلًا أحمر اللون.

ـ إنت عارف أن الأرمن معروفين بالرُّمان، ده احنا بنعمل منه نبيذ كمان.

ـ ومعروفين بالسجق الحلو كمان، قولي حاجة أنا معرفهاش.

ـ طب تعرف إن في الأساطير الأرمنية عندنا، الرُّمان ده هو الحارس من عين الشر، وهو اللي بيحدد خصوبة العروسة يوم الفرح، ببساطة لو العروسة كسرت الرمانة ونزلت حب كتير يبقى خصوبتها عالية وهتجيب أطفال.

ابتسم توفيق ابتسامة باردة متحفظة، بينما وضع رافي زجاجة النبيذ أمامه على الطاولة.

ـ في حاجات كتير يا باشا إنت متعرفهاش، حابب تسمع حكاية طويلة شوية، أعتقد هتحب، من اللي بسمعه عنك أعرف إنك بتحب الحواديت الطويلة.

ـ والحواديت القديمة كمان، بس المهم إنها تتحكي.

قالها في نفاد صبر، في إشارة توحي ببداية تعكر المزاج، إشارة جعلت رافي يجلس على مقعده ويجرع جرعة كبيرة من زجاجة النبيذ تتنافى مع مظهره الراقي وطريقته في حمل الزجاجة، حتى بدا كسكارى الحانات الحقيرة في أزقة كلوت بك سابقًا.

- بمناسبة الرمان، عندنا مقولة كدة من الحواديت القديمة اللي انت بتحبها...

- بتقول إيه بقى؟

توفيق بدأ يتململ فعلًا ويفكر في قطع هذه الجلسة والرحيل من هذا المكان.

- نزلت من السما في قديم الأزمان ثلاث حبات رمان، واحدة للي بيحكي الحكاية، والتانية للي بيسمع الحكاية، والتالتة لبقية العالم.

- طب أنا طمعان في الرمانة بتاعتي بعد إذنك، يا إما خليهالك وانا همشي من هنا.

رفع رافي يده معتذرًا لتوفيق، ثم عقد كفيه ووضعهما فوق الطاولة، وسرحت عيناه الملونتان في الفراغ وهو يتابع..

- الحكاية بدأت من زمن طويل، من ميت سنة بالضبط.

وانطلق يحكي بلا توقف

* * *

القاهرة

العاشر من أبريل ٢٠١٥.. التاسعة إلا عشر دقائق مساءً

عقارب الساعة تواصل رحلتها نحو التاسعة مساءً بتوقيت القاهرة، الوقت المحدد والمعلن لبداية العمل داخل ذلك المطعم الراقي البسيط في أحد شوارع المعادي.

مطعم يفتح أبوابه في التاسعة مساءً ويغلقها في الثالثة صباحًا!! إنها لساعات عمل غريبة نوعًا وغير مطروقة، فالأندية الليلية مثلا تبدأ عملها بعد الحادية عشرة مساءً والبارات داخل الفنادق في بعض الدول تبدأ نشاطها في السابعة مساءً، لكن أن يبدأ مطعم هادئ مسالم - لا يقدم إلا كؤوس النبيذ المعتق - ساعات عمله في التاسعة مساءً، فهو لأمر غريب ويثير التساؤل كذلك.

هذه أول كلمات تطرق أبواب عقلك عندما تسمع عن مطعم (البيت)، المطعم الذي يملكه ويديره المليونير المصري من أصول أرمنية نقية، رافي كشيشيان.

يتذكر الجميع تلك المقابلة التليفزيونية، في مساءً ربيعي جميل يوم العاشر من أبريل، وبعد أن قرأت المذيعة بارعة الجمال ديباجة البداية

المليئة بقصص الكفاح المزيفة وكلمات المديح المعسولة في شخص ضيفها، سألت السؤال الشائع الذي يطرحه الجميع، وهو السؤال الذي -دائمًا- ما يجعل المليونير رمادي الشعر كثيفه، يبتسم ابتسامة غامضة تمنح الجميع ذلك الشعور المسيطر على مقاليد الأمور.

- طول عمري وأنا بدور على أحسن حاجة، أحسن حاجة في كل حاجة، حتى الزباين اللي بتعامل معاهم في (البيت)، أنا معايا فلوس كتير جدًا، فلوس تخليني أفتح أحسن مطعم في مصر وأعين أحسن شيفات في العالم، لا.. وممكن كمان أشغل المطعم ٢٤ على ٧ طول السنة، بس ساعتها هتفضل معضلة الاختلاف والجودة، هنتأكد من جودة اللي احنا بنقدمه إزاي؟ وهنبقى إزاي مختلفين عن الألف متين وعشرين مطعم اللي فاتحين في القاهرة؟

- ممكن توظف أحسن فريق مراقبة جودة في العالم برضه، هي مش معضلة كبيرة لو سمحت لي.

- صدقيني يا هانم، جودة الأكل اللي بتقدميه مش سهل التحكم فيها مع الأعداد الكبيرة اللي متوقع إنها تزورك كل يوم، وبعدين عشان أحقق الجودة اللي أنا عايزها، لازم أعين أفضل شيفات في العالم، وعشان أغريهم يسيبوا مطاعم باريس وفيينا وييجوا مطعم مش معروف ومش مشهور في مصر، لازم تكون المغريات قوية جدًا ولا تقاوم، وعشان ده في الأول والآخر مشروع تجاري، هضطر ساعتها إني أرفع الأسعار بشكل كبير ممكن يأثر على سمعة المكان ويضرني إني أقبل زوار كل مؤهلاتهم هي الفلوس وبس، ودي آخر حاجة أحب إني أعملها، وبرضه بعد كل ده، لسه جودة الأكل مش مضمونة بشكل كامل.

ثم منحها ابتسامة واسعة ساحرة، تدرب عليها طوال عمره، جعلت وجنتها المتوردة تزداد توردًا، ربما كانت كلمة «هانم» التي يستخدمها تجعل كل ما يفعله ساحرًا.

ـ وعشان كده؟

قالتها بصيغة سؤال وهي تهيم بعينيها في قسمات وجهه.

ـ وعشان كدة زي ما حضرتك عارفة، اخترت مكان هادي لطيف، الأشجار القديمة العريقة محوطاه من كل حتة، وعملناله ديكور بسيط جدًا عشان نزود إحساس الأتموسفير البسيط الشيك، عشان ببساطة تحس إنك قاعد في بيتك، في وطنك.

نظرات حالمة ارتسمت على وجه رافي، أربعيني العمر عشريني القوام، وسرحت نظرات عينيه العسلية في فراغ وهمي رسمه عقله.

ثم صوب نظراته الحالمة إلى وجه المذيعة الحسناء، فهمم المخرج في ميكروفونه ـ الذي يصله برجاله خلف الكاميرات ـ من داخل الأستوديو:

ـ كاميرا ٤، خش لي كلوز على وش الضيف بسرعة.

بينما الضيف يكمل:

ـ ترابيزات بسيطة وكراسي خشب أنيقة وعصرية في نفس الوقت، شموع وإنارات تخليك تشوف كل حاجة وفي نفس الوقت ما تكشفش أي حاجة، بساطة وأناقة وراحة بال، هو ده البيت.

ابتسامة واسعة ارتسمت على وجهه الذي احتل الشاشة بالكامل، بينما المخرج مستمتع بما يراه في غرفة التحكم، فطوال سنوات عمله

العشرين في أروقة الإعلام، لم يرَ ضيفًا تحبه الكاميرا مثل رافي.

بينما المذيعة تتنحنح في أناقة لتعود إلى أرض الواقع:

ـ والشيفات يا مستر رافي؟

ـ الشيفات دول بقى الاختيار اللي متعبنيش كتير وما ترددتش فيه لحظة، وعشان كدة كان لازم أعين ماريان وأمينة مشرفين على المطبخ، ببساطة لأنهم أفضل اتنين شيفات اتعاملت معاهم في حياتي، ومع أكلهم ببساطة هتحس إنك فعلًا في البيت.

ـ والجودة؟

ـ بغض النظر إن ماريان وأمينة اخواتي، وإنهم أكتر اتنين بحب أكلهم في الدنيا وضامن جودته ونظافته، إلا إني أصريت أشرف بنفسي على جودة الأكل اللي بنقدمه في البيت، مفيش أحسن منك إنت عشان تشرف على شغلك وتفاصيله، ده مبدأي اللي علمهولي بابا الله يقدس روحه.

ابتسمت المذيعة في هدوء وهي تواجه الكاميرا وراحت تقرأ من شاشة التلقين بعض الكلمات في نبرة هادئة ساحرة مثيرة لأعصاب أعتى الرجال هدوءًا:

ـ طبعًا كلنا عارفين إن مستر رافي هو الابن التاني لمستر يعقوب كشيشيان، صاحب محلات يعقوب المشهورة جدًا في مجال المواد الغذائية واللي تاريخها بيرجع لسنة ١٩٢٥ واللي لسه موجودة في جميع أنحاء القاهرة ومحافظة على أصالتها وجودتها وعراقة طبعها.

ثم توجهت ناحية ضيفها بابتسامتها الواسعة كاشفة عن صف

أسنان فارط البياض، أنتجته كبرى عيادات تجميل الأسنان في لبنان:

ـ ممكن حضرتك تكلمنا شوية عن تجربتك الناجحة جدًا.

ابتسم المليونير العازب متابعًا:

ـ في البداية عملنا افتتاح صغير أوي، وكنا بنستقبل بس مجموعة منتقاة من قرايبنا وأصدقاءنا من المجتمع الأرمني في مصر والعالم العربي، وبعدين بدأنا واحدة واحدة نتوسع ونستقبل عملاء وزباين من كافة المستويات الاجتماعية والمالية، ببساطة لأن أسعار أكلنا في متناول اليد مش غالية بشكل فاحش زي أغلب المطاعم التانية، ولاحظنا إن تجربة مطعم بيفتح بس من ٩ مساءً لحد ٣ صباحًا بدأت تلفت انتباه شباب كتير أوي في العشرينات والتلاتينات، وخاصة الأتموسفير الراقي المودرن برضه، وبدأ اسمنا يتردد كتير على السوشيال ميديا، فقررنا نبدأ نستقبل زباين بشكل مفتوح من كل الأعمار و الأعراق، وبدأت قايمة الحجوزات عندنا تعلى وتعلى لحد ما وصلنا لحجوزات لمدة ست شهور قدام، وده بصراحة عرضنا لضغط كبير أوي عشان نزود عدد ساعات العمل، بس احنا ما استسلمناش، لأنه ببساطة الفكرة نفسها كانت عامل مهم في النجاح والانتشار اللي حققناه، كمان تواجدي بشكل مستديم في البيت مع إخواتي وولادهم عامل مهم وضروري جدًا عشان مصداقية الاسم، البيت.

ابتسمت المذيعة مؤمِّنة برأسها في هدوء، وقابلت الكاميرا محركة شفتيها المصبوغتين بعناية كأن بيكاسو شخصيًا هو من رسمهم:

ـ في نهاية لقائنا أعزائي، نحب نشكر مستر رافي على تشريفه لينا وحضوره معانا رغم مشاغله الكتير، ونتمنى إننا نشوفه تاني.

ـ أكيد يا هانم، بلا شك هنتقابل تاني.

قالها بلهجة هادئة، لعوب مليئة بالوعود، لا تنقصها سوى تغيير كلمته من «هنتقابل» إلى « هقابلك»، لتبتسم المذيعة في خجل وترتفع الكاميرات مع موسيقى تتر النهاية المليئة بآلات النفخ معلنة نهاية الحلقة.

يبدو أن هناك أيامًا قادمة بين الجريء والجميلة.

دعنا لا نكون فضوليين أكثر من اللازم، لا بد من الحفاظ على حدود اللياقة هنا،

لذا وإذا كنت محظوظًا بما فيه الكفاية كي تتمكن من حجز طاولة للعشاء، وبعد الانتظار لمدة خمسة أشهر كاملة، سوف تتمكن من الوصول إلى المطعم مع ضيوفك الموقرين المتميزين، سيتم الترحيب بك بشدة وبابتسامة عريضة من ڤيكن، حفيد شقيق رافي الأكبر، الرجل الوطني الذي توفي أثناء مشاركته في حرب أكتوبر المجيدة في عام ١٩٧٣، وهو شاب وسيم ذو شعر بني داكن، يقف منتصبًا بملابسه الكلاسيكية الأنيقة مثل نجم سينمائي لامع، والتي تم تفصيلها خصيصًا فوق قوامه الممشوق في أتيليه موريس حنا الشهير، ثم يفتح لك الباب وهو يحني رأسه في أناقة تاركًا المساحة لك كي تدخل البيت بكل راحة واطمئنان.

بعد اجتيازك ڤيكن، ستقابل شانت، خال رافي الشبيه بدوق إنجليزي أزرق الدماء، سوف يذكرك بمايكل كين إلا أن الأخير أقصر خمسة سنتيمترات، سيقودك بهدوء إلى طاولتك، ويشعل شمعة أنيقة بقداحة ذهبية، ثم يمنحك ابتسامة وقورة منصرفًا إلى ضيف آخر، وبعد أن تجلس إلى طاولتك، ستلتقي بماريان، الشقيقة الكبرى لرافي العظيم، وزعيم فريق الطهي الأسطوري في المطعم.

ستأتي إلى طاولتك بنفسها، فتقدم أرقى المقبلات الأرمنية المجانية، ثم تعطيك ابتسامة كبيرة تظهر تجاعيد وجهها الخمسيني الساحر رغم أخاديد السنين البارزة فيه، مما جعلها تبدو كأنها ملكة من ملكات عصر النهضة، ثم تدعو ابنتها الصغيرة نارين، الشابة الجميلة ذات الثانية والعشرين عامًا، فتأتي وهي تطفو على الأرض بنعومة راقصة باليه وتصب عصير الرمان الأحمر ـ المستورد من أرمينيا رأسًا إلى البيت ـ دون كحول إذا كنت لا تشرب النبيذ ـ فالمطعم يعرف التقاليد جيدًا ـ أو تصب كأسًا من النبيذ الحلو إذا كنت ممن يحبون النبيذ، ثم تشرق الشمس على طاولتك حين تبتسم لك، وتغرب حين تذهب هي ووالدتها مباشرة إلى المطبخ، بعد الحصول على اختيارك من قائمة الاختيارات المحدودة، لا مفاجآت مسموح بها في البيت، لا بد أن يكون الجميع جاهزًا ومستعدًا.

إذا رفعت رأسك قليلاً، فقد ترى امرأة مشدودة القوام حادة النظرات، تقف في وسط المطبخ المكشوف من نافذة تقديم الطعام، مرتدية مريولة أنيقة تزينها عناقيد العنب، وتقف في وسط المطبخ كجنرال بريطاني، وهي يا سيدي أمينة الشريف، أو المعروفة سابقًا باسم نَنار كشيشيان، قبل الزواج من ضابط الجيش الوسيم، المقدم أحمد الشريف ـ الذي توفي بسلام قبل ثلاث سنوات ـ وهي تصرخ بصوتها الحاد، وبأرمنية تبدو لمن يسمعها كأنها تعويذة سحرية تلقي بها في الطعام حتى يسحر آكليه، تصرخ كي تهب أختها و ابنتها فيشكلون فريق الطبخ الأفضل والأشهر.

إذا كنت لا تزال منتظرًا منذ ساعة، فلا تقلق، هذه تقاليد المطبخ الأرميني، استمتع بعصير الرمان والمقبلات المجانية، فسوف يصل

طعامك قريبًا على عربة من طراز لويس فويتون الأنيق، مدفوعًا بواسطة قوام رفيع طويل لفتاة، تسير مثل الراقصات المصريات القديمات في رسوم المعابد.

سوف تبتسم بزاوية فمها اليسرى في هدوء، ثم تنقل الطعام إلى المائدة بحرفية وحرص شديدين، ورائحة الكرز تفوح من ثيابها الأنيقة، ثم تبتسم متمنية لك وجبة سعيدة، وجبة نقلتها لك من المطبخ أيادي شقيقة رافي الصغرى، الثلاثينية الرشيقة نارية كشيشيان.

الآن مع وصول الطعام، حان الوقت كي ترضي نفسك وتنعم بهذه التجربة.

بينما تمنحك نارية ابتسامة هادئة وهي تقول بصوت أقرب للهمس:

ـ أهلا وسهلا بيك في البيت.. Bon Appétit

* * *

الفصل الأول

موعد على العشاء

• ١ •

القاهرة

الثالث والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. التاسعة والربع مساءً

عندما تقود السيارة المرسيدس الخاصة بك، فإنك تمارس أكثر تجربة ممتعة في حياتك.

هكذا يقول عاصم دائمًا، لن تشعر مطلقًا بأي متعة في استخدام سيارة مرسيدس إذا لم تكن جالسًا خلف عجلة القيادة.

لذلك، طالما يمتلك عاصم خورشيد هذه السيارة منذ عام ٢٠٠٦، لم يقم بتعيين سائق على الإطلاق، دائمًا ما يقودها بنفسه على الرغم من أنه غالبًا ما يكون سكرانًا كالقراصنة!

التجربة الثانية، والتي هي ممتعة مثل قيادة مرسيدس الخاص بك، كما يقول عاصم دائمًا، هي تجربة تناول الطعام في مطعم آل كشيشيان، البيت.

لا زال عاصم يتذكر المرة الأولى له في هذا المطعم، كانت منذ تسعة أشهر، يومها تلقى دعوة من صديقة ذات أصول أرمنية لتناول العشاء معها هي وزوجها وشقيقة زوجها، وكان الغرض مفهومًا بالطبع، العثور على زوج ثري لأختها العانس ذات الخامسة والثلاثين.

ومن أفضل من عاصم خورشيد، المدير التنفيذي لواحد من أكبر البنوك الخاصة في مصر.

يومها، ارتدى حذاءً رياضيًا رخيصًا، لم يحلق لحيته النابتة ووضع بعض الكريم فقط في شعره - على غير عادته - ثم ذهب إلى المطعم عبوس الوجه محمر العينين، من آثار كأسين من الاسكوتش دون ماء أو صودا.

لسوء حظه، أو لحسن حظه، كانت الفتاة صارخة الجمال والفتنة.

كانت جنية من الأساطير ترتدي فستانًا أحمر قصيرًا فوق بشرة بيضاء لامعة، وتمتلك أجمل العيون الزرقاء التي رأها في حياته العابثة المليئة بالنساء، عيون ذكرته بعيني جدته حكمت هانم خورشيد، سليلة أعرق البيوت التركية الأصيلة.

دلف يومها إلى المطعم بعد أن استقبله شاب أنيق، يرتدي سترة أنيقة للغاية وربطة عنق من الحرير الأحمر، بحيث بدا للمارة كأنه هو الضيف صاحب المرسيدس السوداء، وبدا عاصم كأنه فتى ركن السيارات الذي التقط منه مفاتيح السيارة الأنيقة!

وما إن مرَّ عاصم من الباب، حتى صحبه لورد إنجليزي أنيق -كما بدا - إلى الطاولة المحجوزة باسم عائلة مستر يعقوب بوجسيان، ليجد صديقته وزوجها، وجنية الجنة، التي تحتل جسد شقيقة صديقته الصغرى!!

- فاتن، أعرفك بمستر عاصم خورشيد، المدير التنفيذي للبنك اللي بشتغل فيه أنا ويعقوب، وصديق عزيز علينا أوي.

رفعت الجنية الساحرة عينيها الزرقاوين نحوه، ومدت يدها في صمت، فتناول كف يدها وقبلها، ووجه نظراته اللعوب - التي يتقنها من فرط خبرته مع الجنس الناعم - إلى عينيها الساحرتين، تاركًا انطباعه المنشود، الذي تبين له مع نهاية تلك الليلة الساحرة، أنه أتى أكله مع الساحرة الحسناء.

الانطباع الذي جعله يستيقظ بعد ثلاثة أشهر، في سريره العصري المريح، ليجد الجنية الحسناء نائمة بجانبه، وحول إصبع يدها اليسرى تلتف حلقة ذهبية مرصعة بالألماس.

خاتم الزواج.

انعطف عاصم بسيارته المرسيدس من زاوية أحد شوارع المعادي الشهيرة، وهو يتذكر كيف كانت فاتن - الاسم الذي سمتها بها والدتها المصرية لها على الرغم من معارضة أبيها الأرميني المتعصب - كم كانت ساحرة كاسمها، فاتن، الساحرة، وكيف تشاركا تلك الأيام والشهور الملتهبة بنار العاطفة والعشق، كيف كانا يشعلان الفراش بنار حبهما كل ليلة من ليال شهور زواجهما الثلاث الأولى، وكيف كانا منفتحين على الحياة معًا كأنهما عصفوران مهاجران حول العالم الرحب، وكيف ملأت الجنية الساحرة عينه و جسده وأغنته عن كل النساء.

وكيف أصبحت فاتن بوجسيان تلك المرأة ذات القلب البارد واللسان السليط!!

كيف يدب الملل واليأس والكراهية في حياة اثنين بعد أربعة أشهر

فقط من زواج تبخسه لفظة «سعيد» حقه الكامل، كيف تتحول الجنية الحسناء إلى ساحرة قبيحة؟!!

دار بسيارته حول الحديقة العتيقة، ودخل إلى الشارع الهادئ، الذي يقوده الى البيت، بناء على دعوة من ذلك المليونير ـ الذي يراه متعجرفًا مغرورًا ـ رافي كشيشيان.

لقد أرسل بطاقة دعوة رائعة إلى مكتبه صباح الأمس، يدعوه لتناول العشاء مع (مجموعة من كبار الشخصيات الهامة) كما لو كان عاصم خورشيد هو من يتوسل لقاءه، كي يرسل له ببطاقة دعوة باردة إلى مكتبه مع شركة توصيل رخيصة!!

عاصم خورشيد، الشخص الذي يحتفظ بأمواله واستثماراته في البنك الذي يديره، والشخص الذي قام بتسهيل القروض له كي ينشأ مشاريعه المتعددة ويزداد ثراء، في النهاية، يرسل له ببطاقة دعوة مزينة بشريط من ثلاثة ألوان! فقط لأنه ليس على وفاق مع مواطنته الأرمنية اللعينة، أو لأن أحواله مع البنك الذي يديره ليست على ما يرام هذه الأيام!

اللعنة على هذه الأيام السوداء المتقلبة!

انضم بسيارته إلى ذلك الصف من السيارات التي تتوقف أمام باب المطعم، بينما يأخذ ڤيكن المفاتيح ويفتح الباب لكل ضيف ولكل مرافق، ويحرص بنفسه على إيصال السيارة إلى المكان المحدد لوقوفها، مما يتسبب في تعطل صف السيارات وزيادة حجمه حتى كاد أن يسد مدخل الشارع الهادئ.

ـ ما كنتش اعرف إنك بخيل أوي كده يا رافي، ما تعينلك عيلين يساعدوه بدل مانت معطل «كبار الشخصيات الهامة كدو» ومخلينا

عاملين زي صف النمل اللي داخل الجحر.

قالها هامسًا لنفسه، ضاغطًا على حروفها، محاولًا تفادي ظهور آثار السكر على لسانه الثقيل، إن خمسة كؤوس من الكونياك ليست بالأمر الهين، حتى على متمرس مثله.

إلا أن السكر قد يأتي بالملل، والملل في حالات السكر يأتي بالغضب، والغضب قد يؤدي إلى أفعال كالتي سوف يفعلها الآن.

في هدوء مريب، أطفأ المحرك، وترجل من السيارة حاملًا مفاتيحه متجهًا ناحية ڤيكن:

- امسك إركنهالي، أنا عندي ميعاد مع مستر رافي ومبحبش أتأخر.

دون أن يلتفت إليه، دون أن يتزحزح خطوة واحدة إلى الوراء أو يغير من ابتسامته التي يمنحها لضيوف آخرين، قال ڤيكن:

- حضرتك انتظر دورك يا مستر عاصم، وأنا هكون مع حضرتك بعد دقائق.

تصاعد الدم إلى رأس عاصم المهتز غير المتزن، وراحت حدقتاه ترقصان كالبندول وهو يضع يده فوق كتف ڤيكن ويديره ناحيته بحركة مفاجأة، حاول جعلها عنيفة:

- إنت حمار يا بني آدم إنت، بقولك عندي معاد مع مستر رافي الساعة ٩ ونص، والساعة بقت ٩ ونص، يبقى تاخد المفتاح وانت ساكت ومترغيش كتير.

وكأن وجهه قد نحت في قالب من الصخر، لم تتغير ابتسامة ڤيكن الواسعة، بل أضاف لها نظرة تحدٍ مع تصاعد أصوات من عينة «أوه»

و «ياي» تصدر من إحدى السيدات اعتراضًا وتأففًا من الفعل الآثم.

- مستر عاصم، مع كل تقديري واحترامي لحضرتك، حضرتك تنتظر جوة عربيتك معزز مكرم، ولما يجي دور حضرتك أنا بنفسي هركن العربية في أكتر مكان مميز عندنا وأنا بنفسي هوصل حضرتك لحد باب المطعم.

احمرت عينا عاصم وانضمت قبضته حتى أوشكت أن تنفجر، وبينما يهم برفعها حتى ارتفع صوت وقور حازم من على باب المطعم.

- ڤيكن، خد مفاتيح عربية مستر عاصم فورًا.

التفت كليهما إلى مصدر الصوت، بينما أومئ شانت برأسه في هدوء، فتناول ڤيكن المفاتيح، وأرخى قبضة عاصم من على كتفه وهو ينفضها في هدوء، بينما أشار شانت بيده كي يدخل عاصم إلى المطعم:

- اعذره يا مستر عاصم، ميعرفش إن حضرتك النهاردة من ضيوفنا الاسبيسيال، تُفضل حضرتك.

- ولد قليل الأدب، أنا كنت خلاص هضربه لولا تدخلك.

ابتسامة هادئة ساخرة ارتسمت على وجه شانت، ثم اختفت فورًا وهو يقود عاصم نحو طاولة لستة أشخاص وضعت في ركن قصيّ من المطعم:

- إتفضل ارتاح يا مستر عاصم، مستر رافي هيكون مع حضرتك بعد دقائق.

رمى عاصم بجسده على المقعد، بينما انصرف شانت في هدوء يليق بنبرة صوته الوقورة الهادئة، وعاصم يحدق في الحائط أمامه، فقط ليرى

لوحة رسمت بطريقة سريالية أو تشكيلية أو أيًا كانت الطريقة، لم يكن يومًا محبًا للفنون ولا متذوقًا لها، وحتى وإن عرف بعض اللوحات المشهورة من زياراته حول العالم، لكنه لم يكن في حالة ولا مزاج تمكنه من أن يتقمص دور الناقد الفني.

- عاصم باشا، إنت منورنا النهاردة.

صوت رافي المرح يأتي من خلفه، وبينما يحاول النهوض، حتى ضغطت يد رافي على كتفه تطلب منه الجلوس، تعبير يميزه جيدًا، رافي لا يريد أن يقابله وجهًا لوجه في هذه المساحة الضيقة، لربما كان متأففًا من رائحة فمه التي أزكمت أنوف زوار المطعم بالكامل.

هكذا قال لنفسه ورافي يتخذ مقعدًا على الطاولة، مقعدا في منتصف الضلع الصغير المقابل له من الطاولة الخشبية المستطيلة، رأس المائدة المواجه إن شئنا الدقة.

- إزيك يا رافي؟ ميرسي على الدعوة.

- ميرسي ليك عشان شرفتنا النهاردة يا عاصم، ده شرف لينا كلنا في البيت.

وما إن أتم عبارته، حتى وجد عاصم كأسًا زجاجيًا يوضع في خفة على يمينه، ويصب داخله النبيذ الأحمر القاني.

- ميرسي يا نارين.

قالها دون أن يلتفت إليها، فقالت بصوتها الحريري - هكذا وصفه أول ما سمعه -:

- في خدمتك دايمًا مستر عاصم.

نظر إلى رافي ليجده قد أشار بيده إليها لتتصرف:

- مش هنشرب مع بعض ولا إيه؟

- لا اعذرني، أنا النهاردة مليش مزاج للشرب خالص.

جرع جرعة كبيرة من كأس النبيذ وعيناه تنظران إلى اللوحة المعلقة على الحائط، فالتفت رافي للوحة، ثم عاد له بابتسامة هادئة:

- دي لوحة العشاء الأخير، بس مرسومة بوجهة نظر جديدة لفنان بلدياتنا.

- أرمني مصري يعني؟

- لا هو في الحقيقة أرمني لبناني.. اسمه بول جاراجوسيان.. سمعت عنه قبل كدة؟

هز عاصم رأسه بلا مبالاة وبلا اهتمام، هو لم يسمع عنه ولن يهتم في يوم أن يسمع عنه، في الواقع لولا أن لوحة العشاء الأخير الأصلية لدافنشي كانت ضمن برنامج رحلته إلى ميلانو منذ عامين، لما كان سمع عنها من الأساس.

- وانت أخبارك إيه يا عاصم؟ طمني عليك.

- زفت.

- ليه كدة يا صديقي؟

- يعني مش عارف ليه؟

قالها وهو ينظر إليه في لوم، لوم تظاهر رافي بأنه لا يلاحظه ولا يفهمه، فقال عاصم من بين شفتيه المرتجفتين:

- يومين وهقعد قدام لجنة التحقيق في البنك، ودي لجنة جاية من برة، ولو فتحوا الملفات أنا هيتخرب بيتي، وكل ده ليه، عشان الزفتة اللي أنا متجوزها عايزة تتطلق، ولما قولتلها ما بطلقش، سرقت خزنتي وسلمت الورق كله للبورد، وانت عارف البورد عندنا، كلهم ولاد وسخة ومش هيسموا عليا، دول جابولي لجنة تحقيق من برة وكأني سارق سريقة.

- وحد برضه يدي مراته أرقام خزنته يا عاصم، اسمحلي ده تصرف مش حكيم تمامًا.

أشاح عاصم بيده في حركة تنافي أبسط قواعد اللياقة، وجرع المتبقي من الكأس، ثم أخرج من جيب سترته علبة سجائر معدنية وقداحة ذهبية أشعل بها سيجارة بيد مرتجفة، نافثًا دخانها في غضب.

- وازاي أقدر أساعد يا صديقي.

- انت طول عمرك راجل بتحب المعلومات، عايز أي معلومة ادخل منها للجنة.

- انت عارف، المعلومات دي خارج نطاق تخصصي يا عاصم.

أمال عاصم رأسه ناحية الطاولة، ونظر إلى رافي بعينين امتلأتا برعب حيواني وكأنه ضبع ضبط متلبسًا بالأكل من فريسة الأسد.

- أرجوك يا رافي، أنا ممكن ادفع لحد عشرة مليون في أي معلومة مفيدة تخليني ألعب مع اللجنة، أنا مستقبلي كله على المحك، أنا ممكن أدخل السجن في حاجة زي دي.

نهض رافي من مكانه واقترب من عاصم مربتًا على كتفه في هدوء،

وعيناه لا تفارقان اللوحة المعلقة فوق الحائط المقابل.

- ما تقلقش يا عاصم، أنا هحاول أشوف هقدر أساعد إزاي، بس أنا دلوقتي عايزك تنبسط كده وتفرفش، إيه رأيك تجرب شوية أبيتيزرز؟

ثم فرقع بأصابعه، فجاءت نارين تحمل في يدها طبقًا من السجق الأرميني المشوي، والمزين بحبات من الرمان، وضعته فوق الطاولة، ثم عادت من جديد بزجاجة النبيذ وصبت كأسًا آخر وهي تبتسم لخالها الذي أشار بطرف عينه فانصرفت بهدوء.

- ده طبق مخصوص علشانك، عايزك تدوقه كده وتقولي رأيك فيه.

- مش قادر آكل حاجة يا رافي سامحني.

- لا إزاي، يا راجل ده انت ضيفي النهاردة، وكمان جاي في معادك مضبوط، يعني لازم تتعامل معاملة مميزة جدًا.

- إنت عارف يا رافي، عاصم خورشيد ميتأخرش عن معاده ولو بيموت، أنا بيتهيألي لما يجيلي الموت في معاده هيلاقيني مستنيه على الكرسي في هدوء واحتمال أبقى لابس كفني كمان ومستعد.

قالها فخرًا، ثم ضحك في صوت مرتفع معجبًا بدعاباته، فابتسم رافي في هدوء وربت على كتفه.

- أكيد يا عاصم، أكيد.

* * *

• أ •

القاهرة

السابع والعشرون من أغسطس ١٩١٦ .. الرابعة والربع صباحًا

جلست مرال كشيشيان ممسكة بملابس زوجها وابنها البكر، تحاول أن تضم الأطراف فوق بعضها حتى تحسِّن من شكلها بعد إتمام جفافها فوق سطح المنزل ذي الطابقين، المنتصب بمعجزة إلهية في إحدى حواري الدرب الأحمر بالقاهرة.

راحت السيدة الحامل في شهرها التاسع، تكمل ثني الملابس وهي تنظر بعينين راضيتين إلى زوجها النائم فوق شيء ما على الأرضية كان يستخدم كسجادة في أحد قصور البهوات الكائنة على بعد أمتار من منزلهم المتهدم الموشك على السقوط فوق رؤوسهم المكلومة.

راحت تحادث نفسها في هدوء، ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا، كل ما كان لديهم باعوه بالبخس حتى يؤمنا أجرة المنزل، وقبل زوجها بوظيفة قهوجي في إحدى الغرز الحقيرة كريهة الرائحة، متناسيًا وظيفته القديمة

في ماراش، مدرس تاريخ، مدرس تاريخ أصبح يصنع الشاي والقهوة لحثالة الأرض حتى يطعم زوجته الحامل وطفله ذا العشرة أعوام الذي أوشك أن يصبح مراهقًا.

الزوجة التي كادت أن تفقد طفلها البكر عشرات المرات طوال الرحلة الطويلة في صحراء سوريا والأردن، وحتى بعد أن دخلوا مصر وهي نائمة فوق حمار هزيل تصارع الموت، وطفل يصرخ طالبًا شربة ماء لا يقدر الأب على تأمينها، وأب ينفجر الدم من قدميه العاريتين، اللتان باع حذائهما الجلدي في سوق عكا حتى يشتري هذا الحمار.

راحت تبتسم راضية، ثم قبلت يدها كما علمتها جارتها أم حسين، حامدة شاكرة للرب على عطاياه.

ضربة أتتها من داخل رحمها المنتفخ، فتأوهت في صمت، تبعتها ضربة من رأس الصبي النائم على فخذها.

- وكأنني ينقصني ضرباتك يا ابن هاروت.

قالتها بالأرمنية التي تحبها، وراحت تتذوق حروفها التي حرمت عليها خارج منزلها، فقط في المنزل تتحدث بالأرمنية مع هاروت والصبي وحتى مع الجنين في بطنها، لكنها تعلمت العربية المصرية وأتقنتها في عام واحد فقط، وأصبحت تجادل وتتناقش وتحكي بها مع جاراتها وبنيهم.

جاراتها الذي احتوينها و أحببنها، وصرن لها خير معين ومعلم، جاراتها الذين أعجبن بطريقة خبزها وبطريقة تفصيصها للرمان وكيف يعصر، جاراتها اللاتي أحببن البسطرمة إلى درجة العشق، أم جمعة تقول لها إن البسطرمة التي تصنعها أفضل مما يصنعه الخواجة كريسو البقال،

وأم مرقص زوجة خادم الكنيسة ساعدتها في تسويق ما تصنعه في سوق الخميس.

الضربات تزداد، هذه المرة من الداخل.

يبدو أن الأوان قد حان يا مرال.

تنهض متثاقلة كاتمة تأوهاتها، لتجد بركة من المياه تملأ الأرض من تحتها، الصغير يريد الخروج إلى هذا العالم أخيرًا، يريد الخروج بعد أن خرج أبواه من بلادهم هاربين مسافرين باحثين عمن يؤويهم، بعد أن كانا يمنيان النفس بكرامة وارفة ووجبة دافئة وشراب لذيذ يخلدان بعده إلى نوم عميق.

تتقافز الومضات أمام عينيها، تتذكر المسيرات الحافية ممزقة الثياب، تتذكر الأعمدة الخشبية والجثث المعلقة، تتذكر ذوي الشارات الحمراء مفتولي الشوارب، تتذكر النظرات الجائعة والأيدي التي تتحرش وتعبث.

خواطرها تتقافز في رأسها كأرانب السبق، وهي تهز هاروت في عنف، فينظر لها من بين جفنين منتفخين وعينين حمراوين وهو يلوك شيئًا ما في فمه.

ـ ماذا دهاك يا امرأة؟

ـ أعتقد أنني سألد الآن، الآن يا هاروت.

ثم صرخت صرخة ارتجت لها جدران البيت المتهالكة، فانتفض هاروت بثياب النوم راكضًا نحو منزل أم سلامة الداية، ومرال تنهار من التعب والصرخات وعرقها بارد يتصبب فوق جسدها.

الداية.. الصرخات.. بكاء الطفل الصغير.. وهاروت يجلس فوق

حجر على مدخل المنزل.. في يده التبغ وأوراق البفرة محاولًا أن يصنع لفافة دخان.. التبغ يتساقط على الأرض كعرق مرال الذي يذيب روحها.. صرخات المرأة مع صرخات الطفل الصغير مع توسلات الداية لها كي تدفع.

ثم البكاء.

بكاء خفيض.. بكاء يشبه صرخات ابن عرس تطارده قطة غاضبة، يختلط بصوت صرخات الأم، ورأس الداية يطل من خشخاش نافذة المنزل المكسور.

- مبروك ما جالك يا خواجة هاروت.. بنت زي القمر.

- تسلمي وتعيشي يا أم سلامة.. طب هي لسه بتصرخ ليه.. مش خلاص.

- الظاهر لسه في تاني.

انعقد حاجبي هاروت، وألقى بالتبغ وأوراق البفرة على الحجر وهو يدلف إلى المنزل، لم تبدو بطن مرال كبيرة إلى هذا الحجم.

ثم البكاء من جديد.

هذه المرة.. بكاء قوي مجلل كأجراس كنائس السكاكيني، والداية تغادر الغرفة متهللة الوجه مستبشرة.

- مبروك يا خواجة.. المرة دي ولد زي القمر.

تهلل وجه هاروت، والتفت إلى أيقونة المسيح المخلِّص الموضوعة فوق طاولة الطعام مخلوعة الأرجل بالية الخشب، وجثا على ركبتيه متمتمًا بكلمات أرمنية مختلطة مسرعة، حتى ظنته أم سلامة يلقي

بتعاويذ لحماية الأطفال من شياطين الجن والإنس، ثم انتفض مسرعًا نحو الغرفة، لتصطدم عيناه بزوجته غارقة في عرقها، مبتلة الثياب، تجاهد لا حتضان رضيعين متغضنين ملفوفين في مناشف بيضاء.

تقدم نحوها، بينما تصاعدت زغاريد أم سلامة تملأ سكون الفجر، فقام هاروت وأخرج من جيبه كل ما يملك محاولًا وضعه في كف يدها المتغضن إلا أنها أبت وصرخت في وجهه:

- والنبي ومن نبىَّ النبي، ما آخد منك حاجة، دي أم سوغو الغالية.

ربت هاروت على يدها شاكرًا ممتنًا، فرحلت المرأة وزغاريدها تملأ الصمت صخبًا وفرحةً، بينما جثا هاروت إلى جوار الأم النفساء مبتسمًا وهو يتناول منها الرضيعين ويضعهما فوق ذراعيه الضخمتين، وينظر لهما في فخر وفرحة.

- يشبهانك.

- بل هما صورة من أبيهما.. تمنيتها من العذراء ورزقت بها.

- أبوهما ليس منمق التقاطيع دقيق الملامح هكذا.

ابتسمت وكتمت ضحكتها من الألم، ثم نظرت إليه في نظرة حاوية حانية كأنه هو من أنجب لتوه وليست هي.

- ماذا ستسميهما؟

- أحب أن أسمي الفتاة باسم من أسمائنا القديمة، لا أريد لها أن تفقد هويتها إذا تزوجت من غير عرقها.

- والفتى.

- الفتى لا بد أن يُسمى باسم عربي، لا بد له أن يكون مواطنًا ولو

حتى باسمه فقط، لا أريد أن يدعوه بالخواجة مثل أبيه.

شردت ببصرها إلى النافذة المتكسرة، وهي تراقب ضوء الشمس التي أوشكت على الإشراق.

- يعقوب.. سأسميه يعقوب.

ثم نظر إلى وجه الرضيع الهادئ كالملاك متابعًا.

- يعقوب ابن هاروت كشيشيان.

❋ ❋ ❋

٢

القاهرة

السابع عشر من أبريل ٢٠١٥.. التاسعة إلا ربع مساءً

سيكون من الظلم وقلة التقدير ألا نعتبر ليلى حسني من نجمات الصف الأول.

صحيح أنها لم تعد مطلبًا إخراجيا أو إنتاجيًا كبيرًا في هذه الفترة، وصحيح أنها ابتعدت عن أدوار البطولة النسائية المطلقة ـ بعد أن حطمت سنين عمرها رقم السابعة والأربعين منذ شهور ـ إلا أنها لا تزال كما هي متألقة واثقة تمشي بخطواتها الممشوقة وجسدها المتكامل متفجر الأنوثة.

منذ يومين كانت تتصفح الصور على تطبيق أنستجرام من حساب مزيف أنشأه لها سكرتيرها ومساعدها الشخصي، وراحت تكتب التعليقات الساخرة من النجمات المماثلين لها سنًا ومكانة، وتنعتهم بأبشع النعوت

بداية من الاتهام بالتصابي وعدم احترام أعمارهم وحتى ادعاءهم الأنوثة واتخاذ أوضاع مخلة حتى يجذبوا المتابعين من المراهقين المشتاقين لقطعة لحم طازجة يصنعون من صورها متعة زائفة في غرف نومهم المظلمة.

حتى اصطدمت عيناها بتعليق لأحدهم على صورة لها نشرتها منذ خمسة أيام:

«ليلى حسني هتفضل الـمُزَّة الأولى والأخيرة.. وفتاة أحلام كل بني آدم اتولد بعد ١٥ مايو ١٩٩٣».

ودت لو تمنح هذا المتابع ستة قلوب من الإعجاب دفعة واحدة، فهذا التاريخ لا يتذكره إلا من شاهدوا أول ليلة عرض لفيلمها الأول على الإطلاق (بائعة العنب)، عندما كانت فتاة غضة في الخامسة والعشرين من عمرها.

تتذكر الصورة وتاريخها:

منذ خمسة أيام كانت فلاشات الكاميرات تضرب في عنف وجهها المحقون بأفخر أنواع الفيلر، وعيناها الزرقاوان اللتان ورثتهما من أبيها حسني عسكري، ضابط الشرطة الذي دخل بأمها خمسة أيام ثم استقبل رصاصة في رقبته ومات بعدها بأسبوع، الرصاصة التي ظلت المرحومة أمها تجزم أن من أطلقها فرد من عائلة عسكري.

- يعني معقولة يا أمي أخ هيقتل أخوه.

- أصلك عبيطة، ومتعرفيش عيلة عسكري زيي، هو إنتي فاكرة إنهم ناسيين لابوكي إنه عصاهم واتجوز ممرضة من القلعة، مية في المية هُمَّ اللي قتلوه عشان يحرمونا منه، إنتي ناسية إنهم اتبروا منك وقالوا إنك مش بنتهم وإني جايباكي من الحرام.

ابتسمت في خفوت وهي تتذكر كلام أمها لها وهي بعد مراهقة في الخامسة عشر، الكلمات التي سوف تعلق في رأسها بعد أن تصل إلى قمة سلم المجد، وستظل تردد نصفها أمام الكاميرات كل ما سألها أحدهم عن سر جمالها الدائم، ستنكر كل ما يقال عن عمليات التجميل وحقن البوتوكس والفيلر، وستقول بكل افتخار أن أصولها التركية الباشاوية هي ما تمنحها نهر الجمال الذي لا يجف.

نفضت ذكريات القلعة وحواري الحلمية ووضعت مكانها من جديد ذكريات الصورة.

ـ مدام ليلى، أخبار فيلم حضرتك الجديد إيه؟

سؤال انطلق من صحفي يقف بجوار أحد الفلاشات اللامعة، وهي طوال عمرها الفني الذي يتعدى العشرين عامًا لم تكف عن التقرب من الصحفيين، ومن منحهم أخبار حصرية وسرية، بل وكونت بطانة لها من كبار الصحفيين والنقاد حتى يدافعوا عنها ويكونوا جيشها الذي يحميها من غدر الزمان.

ـ الصحفيين دول يا مصطفى هم رجالتي اللي مقدرش أكمل في المجال ده من غيرهم، دول اللي هيحموني وقت ما أقع، ولو اخترت فيلم ولا مسلسل غلط هم اللي هيقفوا قصاد اللي بيشتموني، ولـمَّا المنتجين والمخرجين يطنشوني هم اللي هينشروا أخباري وحواديتي عشان أرجع أبقى مطلوبة من الناس تاني والمنتجين يبصولي تاني، ولو اتنشرتلي صورة ولا فيديو شمال، هم اللي هيداروا عليا ويعملوا مشاكل جديدة الناس تبصلها وتسيبني، دول سندي وظهري، ومهمين عندي زي مانت مهم بالضبط.

تتذكر مقولتها في تلك الليلة الهادئة في إحدى شرفات مراسي، وتتذكر كيف أنها أغمضت عينيها وهي لا تتمنى سوى ذلك اليوم الذي التقطت فيه هذه الصورة.

تتذكر عندما ضمت شفتيها المصبوغتين بلون قرمزي ساحر، وسرحت ببصرها في الهواء الطلق لتبدو كأنها موديل لوحة من عصور النهضة.

ـ معتقدش إني هدخل أفلام جديدة قريب بعد الفيلم ده، الفيلم ده كان علامة فارقة في حياتي، كفاية إنه كان سبب إني أبقى واقفة قدامكم هنا على الريد كاربت في مهرجان القاهرة، ودي حاجة مهمة جدًا لأي ممثل مهما كانت نجوميته وخبرته.

أتقنت الكلام المنمق، وأتقنت كيف تدس مصطلحًا أو مصطلحين بلغات أجنبية في وسط ردودها، أتقنت كل هذا وستبقى متقنة له، لأن هذا ما يجعلها ليلى حسني، صاروخ السينما المصرية.

ـ إيه رأي حضرتك في كلام الأستاذ طاهر الشهاوي، من إن دورك في الفيلم هو أضعف حاجة فيه، وإن أي ممثلة شابة كانت ممكن تعمل الدور ده أحسن منك؟

تعرف صاحب السؤال وتكاد تميز صوته، إنه واحد من هؤلاء الذين لم ينضموا لجيشها.

ـ والله ده رأيه وهو حر فيه، المهم رأي الجمهور والنقاد الفاهمين، ورأي لجنة تحكيم المهرجان اللي مرشحاني لجايزة الممثلة الأولى حسب ما وصلني.

ضربة ثلاثية موفقة تتقنها بشدة، جعلت فلاشات الكاميرات وأصوات الصحفيين تعلو، في جملة واحدة أظهرت أنها ديمقراطية تتفهم الرأي

الآخر، ونعتت الناقد المخضرم بأنه لا يفهم دون أن تقولها صراحة، ونشرت إشاعة عن ترشحها لجائزة، حتى إذا ما لم تفز بها - كما تتوقع - ستثير زوبعة كبيرة يستغلها جيشها الجرار كي يصنع منها عنوانًا رئيسًا في كل صفحات الفن ومواقع الأخبار.

تتذكر يومها، كيف لوحت بيديها للجميع وتظاهرت بالاستعجال وهي تلتفت إلى مضيفة السجادة الحمراء، فتنقلها بهدوء إلى الممر الخاص الذي سينقلها إلى قاعة العرض الأول لفيلمها.

وما إن دخلت إلى الممر حتى تلقفها مصطفى، سكرتيرها وكاتم أسرارها ومساعدها الأمين المخلص، وكلبها المطيع الشرس.

- كنتي منورة الريد كاربت يا نجمة.

- شوفت الواد الصحفي الوسخ بتاع النجوم.

- قلتلك مليون مرة تسيبني عليه وأنا هخلصك منه.

- غبي ومتسرع، ياض اكبر بقى وافهم، اللي زي ده لو لمسناه بعد المقالتين اللي نشرهم عننا هيقولوا إن ليلى حسني هي اللي أذته، لكن لو سبناه يهبل في جرنانه الأصفر، ولا حد هيعبره، وبعدين يا أهبل هو في حد بيقرا جرايد اليومين دول، المهم ده، ده هو المستقبل.

ورفعت يدها بهاتفها المحمول نحو وجهه وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، فظهرت على وجهه تعابير توحي بأنه نسي شيئًا وتذكره للتو.

- فكرتيني يا كبيرة، في رسالتين على الموبايل التاني، جم على الجروب بتاع البيت، الجروب بتاع رافي.

تذكرت كيف هف قلبها وتراقصت عيناها، عندما ذكر اسم رافي،

وتذكرت كيف اختطفت الهاتف الآخر من يده ونظرت إليه وهي تلتهم الكلمات التهامًا بعينيها.

ـ عزومة على العشا في المطعم عنده بعد خمس أيام.

ـ بس إنتي مسافرة الجونة تاني يوم يا أستاذة.

ـ ما تولع الجونة، إنت عارف يعني إيه عزومة على العشا من رافي كشيشيان.

زامت شفتيه والتفت ببصره في الناحية المقابلة، فأطلقت ضحكة عالية مجلجلة.

ـ ينيلك، إنت بتغير عليا ياض يا مصطفى.

ـ إنتي في مقام أختي الكبيرة يا ست ليلى، أنا منساش أبدًا إنك إنتي اللي عملتيني، وأنا خايف عليكي من السكة دي.

ـ لا متخافش، وحلو البق بتاع أختي الكبيرة دي، حلو كدة وفخم.

ثم أتبعتها بضحكة أخرى وهي تناوله الهاتف من جديد وتهز رأسها ساخرة وتردد جملة «إنتي في مقام أختي» مقلدة طريقته في ميوعة، وكعب حذائها الجوتشي يرن فوق رخام الكرارة وهي تتقدم إلى صالة العرض.

تتذكر كيف قابلت مصطفى وكيف أصبح بعدها ما أصبح.

كانت يومها في مقتبل حياتها، بعد أن انهالت عليها العروض لتمثل أدوار الخادمة اللعوب أو فتاة الريكلام في الملاهي الليلة، وبعد أن ابتاعت شقتها الأثيرة في أفخم عمارات الزمالك، كانت مضطرة أن تزور حواري القلعة كل نهاية أسبوع، ببساطة لأن الحاجة فخرية عبد

النبي، رئيسة وحدة التمريض في مستشفى أحمد ماهر، ترفض الاستقالة وترفض أن تنتقل من حواري القلعة إلى شوارع الزمالك الفسيحة.

تتذكر كيف كانت تأخذ سيارتها إلى صالون صديقتها مصففة الشعر، ومعها حقيبة صغيرة بها عباءة سوداء وحجاب حريري أحمر، تضعهم فوق ثيابها العصرية و تستقل سيارة أجرة إلى ميدان صلاح الدين، ثم تسير محاذية سور صحن مسجد الرفاعي حتى تصل إلى شارع ضيق، ومنه تمشي محاذية لصف من بلوكات الإسكان الضيقة حتى تصل إلى ١٣٠ أ، وتصعد في هدوء للطابق الثالث وسط رائحة المجاري الضاربة في كل أركان السلم الضيق، لتصل إلى الشقة رقم ٨ ، حيث لا زالت الحاجة فخرية تجلس على كنبة أسيوطية غطتها بقماش كريمي ذي زهور فاقعة، وتضع سبرتاية القهوة على الطاولة القصيرة أمامها.

تتذكر بعد أن استمتعت بقرب أمها، وهي تقطع المسافة عائدة إلى ميدان صلاح الدين، وعندما اقتربت من جديد من سور مسجد الرفاعي، انطلق سهم بشري من خلف أحد السيارات ساحبًا بخفة يد - لم ترَ مثلها في حياتها - محفظة نقودها التي تسميها أمها (كيسة الفلوس) وتسميها النجمات مثلها (البوك).

ولأنها ربيبة شوارع القلعة، ولعبت طوال عمرها مع الصبية ألعاب القفز والركل والركض، فأصدر مخها المدرب أوامره إلى قدمها اليمنى لتقطع الطريق على اللص الراكض، فينقلب على الأرض

إلا أن الشيطان تفادى ردة فعلها الصاروخية، وقفز من فوق قدمها الصغيرة، ثم تفادى رجلًا كان يهم بالإمساك به، وقفز بكلتا قدميه ليقف بين العمدان الحديدية التي تعلو سور المسجد، ثم فتح المحفظة وجمع

أوراق المال منها، ثم قفز من جديد في حركة بهلوانية ضاربًا وجه رجلين أتيا على إثر صرخات ليلى، وانزلق بجسده بين ساقي رجل ثالث ضاربًا بين ساقيه بقبضة يده، وانطلق راكضًا نحو ليلى عابرًا من جوارها من جديد كالسهم، مختفيا بين البلوكات المتراصة.

كل هذا حدث في ثوانٍ، وليلى تحدق في الفراغ مفغورة الفم بلهاء التقاطيع، ومع شعورها بملمس الجلد الناعم على يدها، اكتشفت أن المحفظة الجلدية عادت إلى يدها!

ـ يا ابن الجنية يا قرد.

ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة إعجاب، متجاهلة كلمات الرجال وتساؤلاتهم وهم يحدقون في صدرها وشفتيها، وفتحت المحفظة لتجد كل البطاقات والصور في مكانها بينما لم يتبقَ لها من المال سوى جنيه واحد فقط، وهو إجمالي ما يمكنها دفعه لسائقي الميكروباص اللذين سينقلونها من ميدان السيدة عائشة الى الزمالك!

حركت ساقيها المتجمدتين، ومضت تمشي على قدميها في حذائها الرياضي، وهي تخرج الهاتف المحمول الصغير من داخل جيبها المخفي في العباءة، وتتصل برقم تحفظه ولا تسجله.

ـ مساء الخير يا بشبوشي، تصدق عيب أوي أتسرق في نفس المكان اللي قابلتك فيه أول مرة، آه والله اتسرقت، عيل من بتوع القلعة سرق كل الفلوس اللي في البوك وسابلي البطاقة والكارنيهات، مين يا أخويا؟! روبن هود مين يا قلبي؟! أنا ماليش في الكلام بتاعكم بتاع المثقفين ده، لا أنا مش عايزة الفلوس، زمانه صرفهم وشم بيهم كُلّه، أنا عايزة الواد ده نفسه، آه هشغله شغلانة شريفة أصلح بيها المجتمع، مش بتقولوا

كدة برضه عندكم في المجلس، بكرة بالليل، طيب يا قلبي أنا، هستنى تليفونك، يلا باي.

تتذكر كيف أتوها به مكبلا في شقة الزمالك، وراحت تتأمله من أعلى رأسه الأشعث حتى كعبي حذائه الباتا الأبيض، فتى في التاسعة عشرة من عمره، يبدو عليه معالم تربية جيدة، هزيل الجسد لكنه ليس معتل الصحة، تقسيمه العضلي يظهر أنه يمارس الرياضة بانتظام.

- إنت بتشتغل إيه ياض؟

اتسعت ابتسامته الساخرة.

- بشتغل مهندس كمبيوتر.

- لا حلوة يا ابن المفكوكة، وبتصلح بقى ولا بتبرمج؟

- والله اللي تقولي عليه يا فنانة.

أشارت له بطرف إصبعها، فتقدم منها في هدوء، ثم أشارت إلى المقعد المجاور لها فجلس، ووضعت ساقًا فوق ساق وهي تشعل سيجارة رفيعة أنيقة.

- إنت هتشتغل معايا.

- هشتغل معاكي إيه؟

- مهندس كمبيوتر يا روح أمك.

ثم أطلقت ضحكة عالية ساخرة ونظرت نحوه متابعة:

- أنا لسه في أول طريقي، وده مطمّع فيَّا اللي يِسْوى واللي ميسواش، وأنا من الآخر مبحبش صحبة النسوان ولا شغلهم، إنت هتبقى دراعي

اليمين اللي يربي أي حد، وعيني اللي بتشوف قبل مانا أشوف، ومستشاري اللي هاخد رأيه في كل حاجة.

ـ لا مؤاخذة يا فنانة، أنا منفعش ولا أحب، ثم أنا كمان ما بحبش صحبة النسوان.

ثم استوى بجسده الممشوق واقفًا، فنظرت له نظرة كادت تثقب جسده:

ـ أُقعد يلا، إنت فاكر إنك لو خرجت من هنا هتخرج على الشارع، شغل القرود بتاعك ده مينفعش مع جوز التيران اللي برة، دول ياكلوك حي، أُقعد واتّك عالعقل واسمعني.

نظر لها في يأس ثم جلس على المقعد:

ـ تكونش ياض فاكرني بنت ذوات، أنا أبويا أصوله تركية آه، بس أنا متربية في نفس الشوارع اللي إنت إتربيت فيها، بس أنا ربنا فتحها عليا ووسعها أوي وبقيت نجمة، وإنت ربنا قفلها عليك وبقيت ملقاط، أنا بقى بديك فرصة عشان تنضف وتبقى بني آدم، هلبسك وأنجرك وأوديك الجيم وأخليك سكرتير ومساعد، تكونش فاكرني هشغلك لبيس ياض، أنا مبحبش صحبة النسوان آه، بس مبكشفش جسمي ده غير في الحلال.

ابتسم وأشاح بوجهه عنها، تلك النظرة التي لا زالت تراها في عينيه كلما انفلت لسانها أو ألقت في أذنه بكلمات إعجاب.

ـ إنت هتطلع من هنا على الساونا، هيوضبوك ويمسحوا القشف اللي عليك، وبعدين هيخدوك على موباكو يلبسوك، وبعدين هتقعد في

الشقة دي ست شهور، واكل شارب نايم على حسابي، ومش هتطلع منها غير يا على تمرين الكاراتيه يا على الجيم.

- وهو يصح برضه يا فنانة أقعد معاكي في نفس المكان والشيطان تالتنا؟

- الشيطان ده أنا اللي مشيطناه يا روح أمك، ثم أنا مش قاعدة، أنا مسافرة اليونان عندي تصوير، فيلم جاسوسية كده، وبعدين هتفسح مع البيه بتاعي شوية وعلى ما أرجع يكونوا خلصوا الفيلا بتاعت المنصورية، وبعدها هخلي البيه جوزي يعملك مرتب كويس تحوشلك منه قرشين.

- هو إنتي ولا مؤاخذة متجوزة؟

نظرت له بنفس نظراتها الباردة الشبيهة بطلقات بندقية الخرطوش، توزع إصابتها على كل ملامح وجهه المترب المتسخ.

- أول درس هتتعلمه معايا، متسألش عن حاجة، إنت هتعرف اللي المفروض تعرفه وبس، وتاني درس هتتعلمه، متنساش أول درس ده أبدًا، فاهم؟

هز رأسه في هدوء وهو يحدق في وجهها، يومها نسي مصطفى أنه يتحدث مع ممثلة في أواسط عشريناتها، انتقلت منذ عام واحد من شارع ضيق تكسوه المجاري وتسمع فيه أصوات ابن عرس، إلى شقة فاخرة في الزمالك تطل على نهر النيل، يومها كف عن سؤال نفسه، لم يعد يهتم من أين يأتي هؤلاء بهذه الأموال، يومها فقط بدأ رحلته كي يعب من هذه الأموال قدر استطاعته، يومها تجسدت طاقة القدر في شكل امرأة ممشوقة القوام فائرة الجسد، ويومها بدأت حياته الجديدة.

كل هذا رأته في عينيه وفي إشارات رأسه، لا زالت تتذكر ذلك اليوم، ولا زالت تتذكر ذلك الرقم الذي تحفظه ولا تسجله، لذا أمسكت بهاتفها وكتبت الرقم، ثم كتبت رسالة من كلمة واحدة وأرسلتها، لن تتصل على رقمه الجديد الذي يبدأ بكود دولي لإحدى دول أوروبا الشرقية، سوف ترسل الرسائل وتنتظر الرد كما أمرها ومع إظلام القاعة وبداية عرض فيلمها الموعود، سمعت صوت رسالة الرد يأتي من الهاتف، وعلى ضوء الشاشة الفضية، راحت تقرأ الرسالة التي أرسلها لها صاحب الرقم:

«وانتي كمان يا روح البشبوش»

* * *

• ٣ •

القاهرة

الثالث والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. العاشرة إلا ربع مساءً

تنساب حركة المرور بشكل بطيء للغاية في مدخل شارع ٢٥١ بالمعادي الجديدة، ومعها يطلق فوزي جميل زفرة ملل وهو يدور ببصره إلى الطريق حوله، بينما تنظر ميريت إلى الطريق من زجاج النافذة المغسول صباح نفس اليوم، وأضواء السيارات تنعكس على مقلتيها الفيروزيتين:

- طب ما تحاول تشوف طريق تاني؟

- طالما دخلنا هنا مش هنخرج غير في آخر الشارع، دي ماسورة فرعية ملهاش غير مخرج ومدخل، نفق..

- ملوش غير مدخل واحد ومخرج واحد، عارفة عارفة.

- طب مانتي بتعرفي تفتكري حاجات أهو، كويس والله.

وختم جملته بنظرة ساخرة كست ملامح وجهه، ثم دفع نظارته من فوق أرنبة أنفه وعاد لمراقبة الطريق.

ثلاثة عشر عامًا هي عمر تلك المأساة، كما تسميها ميريت، ثلاثة عشر عامًا من فوزي كل صباح.

ثلاثة عشر عامًا من الجحيم والعزلة، هذا ما يصف به فوزي زواجه من ميريت.

ـ ما تتجوزيهوش يا ميريت، طالما مبتحبيهوش متتجوزيهوش.

ـ هو أنا كنت لقيت غيره؟!

ـ مش معنى إنك داخلة السوبر ماركت تجيبي زبدة وملقتيش تقومي تشتري زيت، ما هو مش أي حاجة هتنفع.

تتذكر كلمات أختها، وتنظر من جديد إلى تلك السيارة الفورد الصغيرة التي تقف إلى جوارهم منذ ربع ساعة، هي عمر انتظارهم داخل سيارتهم الهيونداي موديل ٢٠٠٥، والتي لا يوافق فوزي على بيعها أو استبدالها بسيارة أحدث، على الرغم من إلحاحها طوال ستة أعوام!

لا تذكر بالتحديد آخر مرة تحدثا فيها عن هذه السيارة، ربما في إحدى غزواته التشجيعية أمام التليفزيون على أريكة في غرفة المعيشة، منذ عام تقريبًا.

تتذكر يومها، يوم أن كانت عائدة من إحدى غزواتها المجنونة وهي تقود تلك السيارة منتهية الصلاحية، لا تقدر حتى على رفع قدمها لتسير على الأرض، بينما صورة اللاعبين المتقافزين حول الكرة الجلدية تنعكس في زجاج نظارات فوزي.

- هو انت مش ناوي تبيع البعكوكة دي وتجيب حاجة تليق بيك؟

- وماها البعكوكة، مش شايلانا ومحافظة علينا وموفرلنا، إيه القرف ده يا شيكابلا ما تتعدل.

ثم ألقى بريموت التلفاز على الأرض غاضبًا، وشاشة التلفاز تنعكس على زجاج نظارته عديمة الإطارات.

- ممكن تسيب الزفت ده وتتكلم معايا شوية.

- جرى إيه يا ميريت، هو إنتي ميحلالكيش الكلام إلا وماتش الزمالك شغَّال، يعني هلاقيها منك ولا من فتح الله، الله يخرب بيتك يا شيخ.

قالها بالكامل دون أن يحول وجهه عن شاشة التلفاز، ثم مد يده إلى علبة السجائر ليشعل سيجارة فوجدها خاوية، فسحقها بيده وإلقى بها في ركن الغرفة.

- إيه القرف اللي انت بتعمله ده!

- يا حفني، يا حفني أبوس إيد أمك إلعب كورة بقى.

- إنت يا بني آدم.

التفت لها والشرر يتطاير من عينيه التي تنظر لها من فوق نظارته المنزلقة، واللعاب على طرف فمه مستعد لأن يتطاير على قسمات وجهها الجميل.

- إنتي إزاي بتكلميني كدة؟!

- وانت إزاي بتعمل كدة، إنت قاعد في مزبلة.

ـ متحترمي نفسك وتوطي صوتك.

ـ لما تحترم إنت نفسك وتحس إنك في بيت مش في زريبة زي الحيوانات.

ـ يعني تقصدي إني حيوان.

ـ متحورش كلامي يا فوزي.

ثم تتصاعد الوتيرة، ويتحول الصراخ إلى سباب، ثم السباب إلى تطاول، ثم لعنات، ثم قد يتطور إلى صفع أو ركل حسب نتيجة المباراة، أو حسب مقدرة ميريت على القذع بلسانها الشبيه بمدفع العوزي.

ـ تفتكري رافي عازمنا ليه؟

أخرجها صوته من سريان ذكرياتها.

ـ مش عارفة، الدعوة جاتلي على جروب الواتس آب زي ما جاتلك، مفيش أي تفاصيل مخصوصة.

قالتها وهي تتحاشى النظر له، وهي تحدق في السيارة الفورد، في الفتاة التي تقترب بوجهها في نعومة من وجه الرجل الوسيم قائد السيارة، في القبلة المختلسة التي تبعتها ضحكات خبيثة فرحة بانتصارهم الصغير على كل هؤلاء الذين لم يلاحظوا قبلتهم السرية.

ـ أنا قولت يمكن قالِّك إمبارح، مش إنتم كنتم مع بعض إمبارح.

ـ ما تحترم نفسك وتنقي ألفاظك، إيه كنتم مع بعض دي، حتى خاف على كرامتك كراجل يا أخي وانت بتقول كده على مراتك.

ـ كرامتك كراجل.. تصدقي فطستيني من الضحك.

وفي وسط ضحكاته الساخرة المكتومة، تعرف جيدًا أن كلماته لم تكن بعيدة عن الدقة.

بالأمس كانت تجلس فوق الأريكة الوثيرة في فيلا رافي الجديدة بالتجمع، تجلس حافية متمددة في ثوب قصير فوق الأريكة، بينما صدرها المستدير المتناسق يستضيف رأس رافي الرمادية.

- رافي..

- أيوة يا حبيبتي.

- تفتكر إيه الحل؟

- إنتم اللي معقدينها يا ميري.

- إنت عارف إني لو غيرت ملّة، أبويا وأمي، أهلي هيقاطعوني طول العمر.

- وانتي عارفة إنك لو فضلتي معاه مش هتعرفي تفضلي معايا.

- ما هو مبيلمسنيش بقاله خمس سنين ولا هيلمسني، ده احنا ما بننامش في أوضة واحدة من ساعة ما قابلتك.

يرتفع رأس رافي ويقترب بوجهه من وجه ميريت، ويهمس بصوت قريب من فحيح عشرين ثعبانًا.

- عشان علاقتنا تكمل صح لازم تبدأ صح يا بيبي، وعشان تبدأ صح يبقى إنتي وهو مينفعش تفضلوا مع بعض، ولو حتى صوري قدام الناس.

ثم منحها ترياقها المعالج، وجبتها الأسبوعية من السعادة التي تجعلها تصبر على الحياة رفقة ذلك الوباء الذي يرتدي النظارات بلا إطار.

بينما الوباء، أو فوزي جميل، ابن عمها الذي تزوجها رغمًا عن أنف

أمها وأمه، يسرح ببصره في الطريق المزدحم منتظرًا الفرج.

بالأمس كان نائمًا فوق أريكة جلدية، يحدق في نجفة قديمة أنتجتها مصانع كريستال عصفور في أواخر الثمانينات، وصوت موسيقى شرقية هادئة يأتي من مكان ما، وصوت الدكتور موريس ينساب هادئًا في أذنه.

ـ وبعدين يا فوزي؟

ـ ولا قبلين يا دكتور.

قالها وشبح ابتسامة يعبث على شفتيه، عندما رأى ذلك البرص الصغير وردي الجلد يتخفى داخل صرة النجفة، تصور لو رأت ميريت هذا الكائن، لكانت صرخت وقفزت بكامل جسدها منتحرة من النافذة.

ـ موضوعي ملوش حل يا دكتور موريس، أنا وهي مينفعش نتطلق، والكنيسة مش هتطلقنا ولو ضربنا بعض بسكاكين، وأنا مش هغير ملة عشان أنا بحب مِلّتي ومبسوط بيها، وهي مش هتغير عشان أبوها ميحرمهاش من الورث، الراجل رجله والقبر خلاص وهي مستنية القرشين.

ـ طب ما هي محلولة، بعد ما باباها يموت وتورث، ممكن تتفقوا إنها تغير مِلّة وتنفصلوا وتخلصوا.

ـ وتفتكر إننا ما اتكلمناش في كدة، يا دكتور ميريت مش عايزة تسيبني، بقيت أحس إنها بتتلذذ بتعذيبي وبإنها تنكد عليا، بقت بتتعاطى النكد لدرجة إنها أدمنته مش هتقدر تتعافى منه، لو سبنا موضوع العربية نتكلم في كرهها للكورة، ولو سبنا الكورة نتكلم في الخروج، ولو سبنا الخروج نتكلم في الهجرة.

راح يعد على أصابع يده حتى استنفد خياراته العشر، فخفت صوته وراح يكرر خياراته من جديد.

- مين فيكم اللي عايز يهاجر.

- أنا.

- وهي رافضة.

- عشان أنا عايز.

- طب ولو انت بطلت كلام في الموضوع؟

- هلاقيها داخلة علي بورق الهجرة بعد يومين.

- وساعتها مشكلتك اتحلت وتهاجر.

- لو اتحركت ورحت دفعت أي فلوس ومشيت في الورق هترفض.

- شغل أطفال مثلًا أو عند لمجرد العند؟

- حضرتك مش مصدقني؟

- لا يا فوزي مصدقك.

هو يحب الدكتور موريس، الرجل الوقور محمر البشرة، أنيق الملبس خفيض الصوت، يذكره بجده الذي ربّاه بعد أن رحل أبوه صباح يوم ولادته، جده الذي صنعت وفاته شرخًا لا يلتئم في حياته.

أصوات النفير تعلو، يبدو أن الماسورة الفرعية ـ أخيرًا ـ قد زالت أسباب سددها المجهولة.

- على رأي الواد بتاع الفيسبوك، في مصر لا تعرف المرور بيقف ليه

ولا بينام ليه، زيه زي حاجات كتير في البلد دي.

ثم أطلق ضحكة عالية معجبًا بدعابته السخيفة، فصدر صوت (مممم) من بين شفتي ميريت المصبوغتين بعناية شديدة، وانطلقت سيارتهم في طريقها.

بينما صوت رسالة بنغمتين مختلفتين ينبهان بوصول رسالة جديدة في مجموعة الواتس آب.

«عندكم ربع ساعة تأخير يا آل جميل»

* * *

• ب •

القاهرة

العاشر من مايو ١٩٢١ .. السادسة والربع مساءً

تتبدل السنوات كنهر يسري من المنبع إلى المصب، أو من المصب إلى المنبع، وتتقافز الأيام والساعات على هاروت كشيشيان فتحيل شعره الرمادي إلى شعر أبيض شبيه بسحابة صيف، وتضع نظارات طبية أنيقة فوق وجهه المتجعد، وتحول المقهى الشعبي البسيط إلى محل بقالة يبيع أشهى صنوف الأجبان والزيتون واللحوم المصنعة، وتحول الحارات الزلقة المليئة بماء الصرف إلى شوارع ضيقة مرصوفة في أطراف حي الدرب الأحمر.

تغيرت الأماكن والشوارع والبشر، ولم يتغير شيء من أناقة ووسامة في وجه هاروت، فقط غطتها التجاعيد والثنيات وبعض من ملامح نهاية الطريق.

حتى المنزل الآيل للسقوط في أطراف الحي، تحول إلى منزل من ثلاثة طوابق بالقرب من أحد قصور الامراء، والأسطى هاروت القهوجي تحول إلى الخواجة هاروت البقال، والطفل صوغومون تحول إلى مراهق فتي وسيم منمق الملامح مثل أمه، أمه التي تحولت إلى مدام كشيشيان الخياطة، حائكة ثياب نصف سيدات الدرب الأحمر.

ويعقوب، الطفل ذو الستة سنوات، الذي يتكلم وتوأمه الهزيلة بلسان المصريين كأنهم من أصول مأصلة من قلب وادي النيل، يلعبان أمام البقالة العامرة بينما هاروت يراقبهما من فوق زجاج نظارته، والمياه البيضاء تغيم الرؤية.

- كما قال الحاج سلطان، ابن الشيب يتيم.

قالها لنفسه متحسرًا بلغته الأم التي ما زال يحبها ويتحدث بها مع زوجته وأولاده، ثم أخرج من جيبه علبة نشوق صغيرة استنشق منها نفحة أو نفحتين، وسعل مستمتعًا

- مساء الخير يا أبي.

- يسعد مساك يا سوغو، تعالى اجلس.

يتبادل التحية مع بكره بالأرمنية، فيجلس الشاب الصغير بجواره

- كيف صحتك؟

- اليوم بخير وغدا ربما لا ، وربما نعم، اقتربت نهاية الطريق فلا أشغل بالي كثيرًا.

- أدام الرب صحتك يا أبي.

- لا شيء دائم أيها الشاب، يومًا ما ستجلس في مكاني وتقول

كلامي، فقط تذكرني بالخير.

مال الفتى على رأس أبيه يقبلها، ثم ألصق شفتيه بأذن أبيه وقال:

- هل قرأت في الجريدة ما فعله من اسمي على اسمه؟

- اصمت ولا تتحدث في شيء هنا، بعد ربع ساعة قابلني في منزل خالك أسادور، وأحضر الجريدة معك.

أومأ الشاب برأسه، ثم انصرف مسرعًا بينما نهض هاروت كديناصور حافٍ منذ فجر التاريخ، واستند على عصاه الخشبية الأنيقة.

- واد ياسيد، إنت يا ولد.

- أؤمر يا خواجة؟

- خاللي بالك من المحل، أنا رايح لحد بيت نسيبي وراجع، وخلي بالك من العيال.

- من عينيا يا خواجة.

يتحرك هاروت في هدوء، لا يتوقف عن سؤال نفسه، ماذا فعلت بي ست سنوات، هل تذكر الشيب وألم المفاصل والعمى وضعف السمع أن الأستاذ هاروت كشيشيان الذي جاء إلى مصر هربًا من جحيم بني عثمان قد أصبح عجوزًا فجأة، ست سنوات فقط، لقد كان منذ خمس سنوات يخدم في قهوة المعلم بيومي المصري، يمشي مسرعًا بين الطاولات ويصنع المشروبات، ويرص أحجار المعسل، حتى امتلك مالًا ابتاع به القهوة من الأفندية أبناء المعلم، وحولها إلى ما يعرفه من تجارة مارسها أجداده، وينسى التاريخ و التدريس إلى غير رجعة.

لم يكن يتوقع أن تحوله السنوات الأربع الأخيرة إلى عجوز متهالك وهو لم يبلغ سنينه السبعين بعد، لم يكن يرى في مستقبله القريب أن توأمه الجميل الهزيل وزوجته الباسلة الودودة قد يصحوان في يوم ما ولا يصحو هو ليمتع نظره بهم!

حث الخطى قليلًا نحو منزل نسيبه، وما إن ولج من الباب الموارب حتى قابلته فتاة مليحة ممشوقة القوام، ابنة نسيبه أسادور، الفتاة الجميلة ذات الأعوام العشرين، لو كانت أصغر قليلًا لما تردد في تزويجها لابنه البكر الثائر، علها تطفئ ثورته وتعلمه أنَّ في الحياة ما يستحق أن تحيا له غير الانتقام.

دلف إلى حجرة المسافرين - كما كانت تسمى - فوجد نسيبه ذي الخمسين عامًا وشاب ثلاثيني ذا نظارات مستديرة رفيعة الإطار لا يذكر هاروت اسمه جيدًا، وابنه البكر يجلسون حول طاولة متوسطة الارتفاع، والشاب الثلاثيني يقرأ لهم خبرًا في جريدة اللطائف المصورة.

- تشبهون جنرالات الحرب العالمية، ينقصكم خريطة لروسيا وبعض أكواب القهوة.

- القهوة في الطريق يا نسيبي العزيز، تعال اجلس، افسح مكانًا لأبيك العجوز يا فتى.

قالها مازحًا، فلكزه هاروت بطرف العصا لتتعالى ضحكاتهم جميعًا، عدا سوغو الذي يشير انعقاد حاجبيه إلى خطورة ما كان يتحدث به، حماس الشباب المشتعل، هذا ما يسمي به هاروت ولده البكر.

- خير يا بني، تحدث فالمحل بلا رقيب، وأمك قد تصدر حكمًا بإعدامنا إذا لم نصل المنزل في وقت الغداء.

همس بها هاروت من بين أسنانه النخرة، فرفع الفتى الصحيفة في وجه أبيه، ليجد صورة لشاب مليح القسمات، حاد النظرات، أنفه مستقيم مقوس في طرفه، يبدو كـ...

تردد التشبيه في رأس هاروت حتى قطع الشاب الثلاثيني أفكار العجوز

- يبدو كأرمني يا سيدي، أنت لم تخطئ.

- هل يصدر عقلي أصواتًا واضحة للجميع هذه الأيام.

ابتسم الشاب الثلاثيني ومال بجسده ناحية هاروت مكملا.

- هذا صوغومون تهليريان.

- أعرفه جيدًا، ماذا عنه، ماذا تريد أن تقول غير ما كتب هنا في هذه الأوراق.

قالها مقاطعًا متعجلًا، فتقوست ملامح الشاب الثلاثيني ونظر ناحية نسيب هاروت، فأطلق أسادور ضحكة مرتفعة، وربت على كتف الشاب المستاء من أخلاق العجوز المقاطع دومًا.

- عزيزي هاروت، هلا كففت قليلًا عن مقاطعة الرجل، اترك له الفرصة كي يخبرنا قصته، أكمل يا سيمون، كلنا آذان صاغية.

عدَّل الشاب من نظارته فوق أنفه المستقيم، بينما استند هاروت بذقنه فوق عصاه وراح يستمع إلى القصة.

القصة التي غيرت كل شيء

* * *

• ٤ •

القاهرة

الثالث والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. العاشرة وعشر دقائق مساءً.

كان يومًا عصيبًا بلا شك.

هذا ما حدث به الدكتور بهاء سنجر نفسه، وهو ينفث دخان سيجاره الرفيع بطعم الفانيليا، وهو ينعطف بسيارته الألمانية الحديثة أمام بوابة مطعم البيت، ملبيًا تلك الدعوة الكريمة - كما سماها في رده على الدعوة - من صاحب المطعم، وصديقه الخاص العزيز، المليونير الوسيم ذي الأصول الأرمنية رافي كشيشيان.

لطالما كان بهاء حساسًا ناحية الأرمن، كان يشعر نحوهم بنفس شعور جده الباشا الراحل، كان جده لا يتوقف عن وصفهم بالسرطان، دائـمًا ما يعتقد أنهم مثل اليهود، لا يتركون مجتمعًا إلا توغلوا فيه وسيطروا على مفاتيحه، كان رأيه كذلك كرأي جده، ربما لارتباطه

الشديد بالرجل الذي عاش حتى نهاية الثمانينات، لكن أبوه مراد سنجر، الكاتب الصحفي والفيلسوف وعالم الاجتماع الشهير.

كان أبوه يبتسم ابتسامته الوقور، ويضع ساقًا فوق ساق قائلًا في هدوء:

- جدك زيه زي الناس القديمة كلها، ميعرفوش الفرق الكبير جدًا بين التكيف و التوغل.

- يعني إيه يا بابا؟

- يعني في فرق بين إن الأرمن مثلًا، قومية متربية على إنها تتكيف مع أي وضع تتحط فيه، ولذلك مثلًا لما وصلوا مصر بعد الحرب، عرفوا إزاي يتكيفوا مع الأوضاع بسرعة، واتحولوا لمصريين أكتر من المصريين نفسهم.

- أكتر من الأتراك يا بابا.

خلع مراد سنجر نظارته، وسرح ببصره في محادثة شبيهة حدثت بينه وبين عمه ضابط الجيش السابق ثم قال:

- تعرف إن اللي حصل ده بيفكرني بمحادثة لطيفة زي دي، حصلت بيني وبين عمي بهاء.

ثم ارتسمت ابتسامة هادئة وقورة على وجهه متذكرًا كلمات العم الكبير، الوزير والمستشار السابق.

- يا مراد، إحنا قومية متكبرة وكلها نعرات، عشان احنا كلنا جايين من خلفية قبلية، عندنا درجات وتقسيمات وتفضيلات، وقدرتنا على

التكيف مع أي حد من برة القبيلة بتخضع لعدة عوامل، لكن أهم عامل فينا هو شعورنا بالتفوق، وده سبب إننا دايمًا بنعامل الفلاحين إنهم أقل مننا، مع إنهم عايشين من ألفين سنة بيزرعوا وبيحصدوا وهُمَّ اللي بنوا الدولة دي، لكن إحنا كنَّا شوية غزاة مغتصبين بالنسبة ليهم، وخدنا وقت طويل جدًا على ما اندمجنا معاهم.

نفير سيارة ينطلق عاويًا خلف بهاء، فيفيق من ذكرياته المركبة، وينظر يمينًا ويسارًا ليجد نفسه أمام باب المطعم، وذلك الشاب الوسيم قريب رافي يقترب من باب السيارة، ويفتحه له في أدب، فيهبط من السيارة في هدوء.

- مساء الخير دكتور سنجر، شرفت البيت يا فندم.

- مساء الخير، شكرًا لذوقك.

ثم يغلق أزرار سترته الحديثة، ويتحرك في هدوء إلى مدخل المطعم، الذي فتحت أبوابه على مصراعيها عندما اقترب منها، وأمام عينيه يقف رجل وقور شبيه بالممثل البريطاني مايكل كين.

ابتسم بهاء لهذا الخاطر، إذا كان مايكل كين هو من يقف على باب مطعم البيت، فربما قابل جود لو أو كليف أوين على طاولة رافي.

- مش بعيدة عليك يا ابن يعقوب.

همس بها لنفسه وهو يتقدم عابرًا باب المطعم، بينما يقوده العجوز الوقور ناحية طاولة في أحد أركان المطعم، ليجد مجموعة من البشر قد جلست حولها، ليس من بينهم رافي نفسه.

أشار لهم برأسه في احترام، ثم تبع إشارة يد العجوز ناحية مقعد

خشبي مبطن، فجلس فوقه وعيناه تجوبان وجوه الجالسين.

رجل وزوجته يبدوان متزوجان وليسا على وفاق كبير، يجلسان متباعدين قليلًا رغم قرب مقاعدهما، هما زوجان بلا شك، الخواتم الذهبية في الكف اليسرى، وتبادلهما لكلمة واحدة كل دقيقة، هو طبيب أمراض نساء متمرس ويعرف كيف تكون العلاقة بين الزوجين المتحابين أو المتباعدين، ربما كانا على خلاف بسبب الحمل، أو خلاف بسبب علاقتهم الجنسية المضطربة، لطالما كره الزواج وكره أن يربط حياته بعلاقة مع امرأة أيًا كانت، من أجل ما يراه الآن بأم عينه.

امرأة بارعة الحسن والجمال، تضحك بشكل مبالغ فيه أحيانًا وكأنها تواجه كاميرات تصوير وهمية، تتبادل حوارها الضاحك مع شاب محمر العين غير متزن اللسان كما يبدو له، شاب يتذكر رؤيته يومًا في مكان ما، لكنه لا يتذكر المكان، يجلسان بجواره في طرفه من المائدة المستطيلة.

بينما يجلس هو على المقعد المقابل لرأس المائدة، المقعد الذي يبدو موضوعًا لرافي بنفسه، بينما المقعد الآخر المجاور لرأس المائدة ـ والمقابل لمقعد بهاء ـ خاوٍ، ربما ينتظر المدعو السادس.

إلا أن ذلك المقعد على رأس المائدة الآخر لفت انتباهه، فلماذا بحق السماء يوضع مقعد على طاولة و ظهره للطاولة؟!

رفع عينيه فوق المقعد ليجد لوحة تنتمي لمدرسة حديثة ما في الفن، يتذكر أيام معرفته بهاني شوقي، الفنان التشكيلي الذي غادر مصر بعد فضيحة ما اتهموه فيها بمعاشرة شاب في الثانوية العامة!

ـ العشاء الأخير!!

قالها مندهشًا مبتسمًا، معجبًا بذكائه وفطنته وملاحظته للأمر دون وقت، هذه اللوحة هي تصوير حديث نوعا للوحة العشاء الأخير لدافنشي، يتذكر يوم أن كان مع هاني في ميلانو وراح يصف له أهمية هذه التحفة الفنية، بعيدًا طبعًا عن إرهاصات الكأس المقدسة وخيالات دان براون.

أتت المقبلات الأرمنية الساخنة لتقطع رائحتها الساحرة شريان ذكرياته، السجق الحريف كثير التوابل الذي يذوب في الفم، وكسرات من خبز صنع من دقيق الشعير والشوفان، أتت محمولة فوق صينية من الخزف وضعت على يد فتاة تشبه راقصات الباليه في قوامها المتسق الرفيع، ربما كانت إحدى قريبات رافي أو ربما كانت فتاة ممن يحملون جنسيات شرق أوروبا، لكنها بارعة الجمال كما يراها هو، تحمل يدها المعروقة الناعمة ـ كما تبدو من شكلها ـ طابعًا محببًا.

أين رافي كشيشيان من هذا السيرك من البشر؟ هل يدعو ضيوفه كي يتركهم جالسين حول الطاولة يحدقون في وجوه بعضهم البعض؟

يتذكر صباح الخامس عشر من أبريل، كان يوم أربعاء والعيادة مغلقة من الخارج، بينما يجلس هو خلف مكتبه يكمل مسودة روايته الأولى، حلمه الذي لم يستطع تحقيقه منذ أن كان طالبًا في كلية طب القصر العيني، أو عندما كان طبيبًا نصف مشهور في عيادته القديمة بدار السلام، قبل أن يتحول إلى واحد من أشهر أطباء النساء والتوليد، قائمة الانتظار في عيادته قد تتعدى شهرين، أعزب بلا أطفال أو زوجة ينغصون عليه حياته،أعزب في أواخر الأربعينات، هي جملة تثير التساؤلات أكثر ما تثير الدهشة، لكنها الواقع الذي يحبه ويرغبه، فلماذا لا يحقق حلمه الآن.

يتذكر حينما وصلت الرسالة على مجموعة الدردشة على الواتس آب، المجموعة التي أنشأها رافي وسماها البيت، وضم لها بعض زبائنه وأصدقاءه، هو لا يفحص في قائمة الأسماء ولكنه يتذكر تلك الممثلة ليلى حسني، لا يميز لها دورًا أو دورين جيدين، ربما كانت هذه المرأة الضاحكة أمامه هي ليلى حسني، ويميز أيضًا مهندس سيارات مسيحي يدعى فوزي، ربما كان هذا الفوزي هو الرجل الذي يتبادل الحوار مع الممثلة الفاتنة، أو ربما كان هو الجالس مع زوجته بلا وفاق، ربما كانت انعدام فرص الطلاق هي ما تبقيهم سويًا، ربما ربما وسلسلة لا تنتهي من ربما، لكنها مفيدة لتضييع الوقت.

اهتز هاتفه الآخر الموضوع في جيبه، الخط الساخن كما يسميه، فأخرج الهاتف الصغير من جيب السترة وأجاب المكالمة الواردة:

- أيوة مساء الخير، أنا دكتور بهاء مع حضرتك، آه أهلًا وسهلًا.

تغيرت ملامح وجهه، ثم راح ينظر حوله في ريبة وكأنه يتأكد من انشغال الآخرين، ثم تابع محاولًا جعل صوته في آخر طبقة مسموعة ومفهومة.

- بصي حضرتك، أنا عملت كدة عشان ظروفك اللي حكيتهالي وحالتك النفسية المدمرة، لكن أنا في العادة مبعملش كدة، لو سمحتي متقاطعنيش وخليني أكمل كلامي، يعني إيه هتفضحيني على السوشيال ميديا، كنتي عايزاني أعمل إيه، أعمل العملية وأحنطلك الجنين مثلًا، يا هانم الجنين نزل من بطنك ميت، عارفة يعني إيه ميت، أقولك، ممكن نتكلم الصبح ونتفاهم عشان أنا فعلا مشغول، الصبح الساعة ٥، لا الساعة ٦، طيب طيب خلاص، الساعة ٦ بالضبط هكلمك.

ثم أغلق الخط وعلى وجهه تعابير ممزوجة من خوف وتقزز واشمئزاز، وبدا له الهاتف الصغير كأنه عقرب يتلوى في راحة يده، فوضعه في جيب السترة من جديد وأشعل سيجارًا رفيعًا وهو يبحث عن منفضة، ليجدها قد وضعت أمامه من نفس الحسناء التي قدمت المقبلات منذ قليل.

- ممكن جلاس واين لو سمحتي، أي حاجة لونها أحمر.

- تحت أمرك دكتور بهاء، دقيقة واحدة.

منحته ابتسامة ساحرة وهي تنصب قامتها الممشوقة وتتحرك ناحية المطبخ المكشوف، ثم سمع أصواتًا مختلفة تصدر من خمسة هواتف موضوعة فوق الطاولة من بينها هاتفه، فرفع هاتفه و طالع الرسالة مبتسما

«أهلا بيكم في البيت، لحظات واكون معاكم»

* * *

٥

القاهرة

الثالث والعشرون من أبريل ٢٠١٥ .. العاشرة وأربعين دقيقة مساءً

مرحبًا بكم في يوم من حياة أصعب مهنة في التاريخ، كما يسميها بدير العمدة

دائمًا ما كان يشبهها براقص الأكروبات الذي يركب دراجة من إطار واحد، يمشي بها على حبل رفيع معلق على ارتفاع خمسة أمتار، يلاعب مجموعة من الكرات في يده، وعلى أرنبة أنفه زجاجة بلاستيكية شبيهة بزجاجات لعبة البولينج!

إنها المحاماة يا سادة!

راح يستعيد ذكريات هذا اليوم الغريب، من المفترض إنه الخميس، المحاكم لا تكون ممتلئة يوم الخميس، ووكلاء النيابات لا يعملون بكل طاقتهم يوم الخميس، ومكتبه لا يعمل يوم الخميس، والناس لا ترتكب

كل هذا القدر من الحماقات يوم الخميس كذلك.

لكنه لا يجد تفسيرًا لهذا الخميس، سوى جملته التي رن بها صوته في مصعد البناية التي يسكنها مكتبه في شارع مشهور بالمعادى.

ـ خميس قالب على تلات.

ثم خرج من باب المصعد وسيجارته السوبر تتدلى من طرف فمه، سيجارته التي لا يعرف سواها منذ أن بدأ التدخين في أواخر سبعينيات القرن العشرين، ورغم أنه واسع الثراء، إلا أن السوبر صديقته الودودة لم تفارق فمه قط ولم تتوقف عن إتلاف خلايا رئتيه.

يتذكر كيف كان يعمل في مكتب محاماة متواضع، منذ عشرة أعوام، وكيف جاءته الفرصة الذهبية، فانقض عليها كالصقر ونهش في لحمها حتى أصبح ثريًا، استرد أملاك جده الراحل، وابتاع ذلك المكتب الفاخر بالمعادي، وسيارة المرسيدس التي كان يحلم بها في شبابه القصير، كل أحلامه تحققت من هذه الفرصة الذهبية، الفرصة التي حولته إلى واحد من أكثر المحامين ثراءً ونفوذًا.

يفرد قامته القصيرة وهو يحدق إسماعيل البواب بنظرة الصقر التي تعود عليها، حتى يحافظ على هيبته وسط السكان وعمال البناية، ثم يتقدم ناحية سيارته المرسيدس قديمة الطراز صفراء اللون، والتي كانت تعرف بالتمساحة في أواخر الثمانينيات، ويلقي بحقيبته الجلدية أو بئر أسرار المحامي كما يسميها، ويقود سيارته في هدوء إلى مطعم البيت.

فقط ليكتشف بعد نصف كيلومتر فقط أنَّ هناك ضوضاء قادمة من ناحية الإطار الأيسر الأمامي، وعندما أوقف السيارة بجوار الرصيف

وهبط منها، وجد الإطار المذكور قد تحول إلى خرقة بالية، ووجد سكينًا عملاقًا قد غرز فيه!

ـ الله يلعن أبوكم، أصلها كانت ناقصاكم.

ثم أخرج هاتفه المحمول من جيب سترته، وطلب رقمًا يحفظه عن ظهر قلب، وبعد الكثير من الثواني التي مرت كساعات أجابه صوت رخيم:

ـ مساء الخيرات يا توفيق باشا، أتمنى إني مكنش بزعجك، والله يا باشا في موضوع بسيط كدة، واحد ابن حرام رزعلي سكينة في كاوتش العربية، آه والله سعادتك تصور، غالبًا عايز يبعتلي رسالة بس كسل يوصلها بنفسه فسلمها للعربية، مانت عارف يا باشا الواحد أعداؤه لا يحصوا ولا يعدوا، هنعمل إيه يعني، طيب سعادتك أنا هركن العربية جنب الرصيف، هي في آخر الشارع اللي فيه مكتبي، حضرتك هتبعت الأمين، طيب الله يكرمك، وأنا هبقى آجى لحضرتك الصبح بكرة نقفل المحضر، منتحرمش سعادتك، إتفضل اتفضل اتفضل.

ثم أغلق الخط، وبصق بصقة عملاقة فوق الأسفلت، وراح ينظر يمينًا ويسارًا باحثًا عن تاكسي.

وبعد نصف ساعة من البحث والمداولات، والطرق المزدحمة، والعراك مع سائق التاكسي، وصل إلى مطعم البيت ملبيًا دعوة صديقه وموكله المفضل، رافي كشيشيان.

يتذكر بدير لقاءه الأول برافي، كان ذلك عندما زاره الأخير في مكتبه، كان مشوشًا قليلًا، تبدو عليه آثار الإرهاق، لكنه كان وسيمًا أنيقًا كعادته.

ـ بس أنا متعرفتش بحضرتك.

ـ أنا رافي كشيشيان، حضرتك تعرف مطعم البيت أكيد.

ـ طبعًا، حد ميعرفش البيت، صحيح أنا ماليش في الطبيخ الأجنبي وبحب الطبيخ البلدي بتاعنا، بس طبعًا أعرف البيت.

ـ على كدة حضرتك مشرفتناش في البيت قبل كدة.

ـ لا والله محصليش الشرف.

ـ لا ده انت لازم تشرفنا، إحنا بنقدم نبيذ أرمني ممتاز، يمكن متكونش دُقت زيه في حياتك.

نظر لرافي من فوق النظارة، كيف عرف ذلك الوغد أنه يشرب الخمور، ربما لم يجد إخفاء رائحة الكونياك من فمه، أو ربما كان احمرار عينيه مبالغًا فيه.

عينا رافي من النوع الذي لا يفضله، هما عينان قويتان قاهرتان تأمران فتطاعان، هو لا يحب من يصدر له الأوامر، طوال سنوات عمله في المحاماة وهو يأمر فيطاع، حتى عندما يقف بقامته القصيرة وشاربه الضخم في قاعة المحكمة يستعطف القاضي كي يستمع إلى كلماته البليغة، يميز السامع نبرته الآمرة و حجته القوية، ونظرات عينيه الشبيهة بنظرات شاهين جارح يتأهب دائمًا للانقضاض على فريسته الغافلة.

لطالما شبهه أبوه بجده شاكر باشا، الرجل الذي أنجب فوزية هانم، والتي تزوجت من حسنين العمدة الصعيدي الثري تاجر الحبوب، لتنجب منه شاكر العمدة، الرجل الذي قرر أن صغيره القصير غير مكتمل النمو سيحمل اسمًا مصغرًا للقمر المكتمل الفضي، وهنا بدأت

أسطورة المحامي الأشهر في قضايا التعويضات والمحاكم الاقتصادية، علامة العقود والأستاذ الذي يلجأ له التلامذة كي يفصلوا عمالهم دون أن يدفعوا قرشًا واحدًا.

ابتسم ابتسامته الواسعة التي تظهر سنه الفضي القابعة بعد الناب في فكه العلوي، وراح يعبث بشاربه الكث، تقليد العائلة، وهو يراقب بوابة البيت، وذلك الشاب الوسيم ممشوق القوام، ڤيكن قريب رافي، يقترب من التاكسي الذي وصل عند منطقة نزول الزبائن المقابلة بالضبط لباب المطعم.

يتذكر كيف جاءته الدعوة.

كان في مكتبه يومها، أنهى مقابلة هامة مع مجموعة من التجار الكبار كما يسميهم، ثم انتهى من دراسة قضية ما مع مساعدته الشابة هناء، وبعد أن أنهى مرحلة ما قبل الدراسة، وأزال آثارها من فوق بنطاله، وأغلق سحاب البنطال واتخذ وضعيته المريحة فوق مقعده الجلدي الضخم، بينما هناك تعدل من ثيابها، جاءه تنبيه الرسالة.

- شوفي مين باعت رسايل على الواتس.

تناولت الهاتف وراحت تعبث فوقه بأصابعها غير المطلية، ثم قالت:

- ده الجروب بتاع رافي، باعت رسالة كدة فيها دعوة للعشاء عنده الخميس الجاي.

- طب ابعتى قوليله إني جاي.

قالها بلا أن يرفع عينيه وهو يقلب في أوراق الملف، إلا أن صمت هناء جعله يرفع عينيه نحوها ليجدها تنظر له في غيظ.

ـ إيه يا مرة مالك، مبتبعتيش الرسالة ليه؟

ـ هو انت مش متفق معايا إننا هنسافر إسكندرية الخميس؟

ـ خليها الخميس اللي بعديه.

ـ هو رافي ده يعني أهم مني؟

ـ وأهم من اللي خلفوكي كمان.

ـ يا سلام!!

فصدر من منخاره صوت اعتراض سافر كاد يهد البناية فوق رأسها، حتى أنها تراجعت للخلف خطوة وكادت تسقط الهاتف.

ـ ما تتعدلي يا مرة بدل ما أعدلك، وابعتي الرسالة دلوقتي يا إما عليًّا الطلاق منك ما تقعدي فيه، ده مكنتش ورقة عرفي اللي هتخليكي تتفردي وتتني عليًّا، اخلصي ياللا واعمليلي الشاي خلينا نشوف الخرا اللي ورانا.

اومأت برأسها منسحقة مستسلمة، ربما تذكرها لإخوتها الخمسة وأمها العاجزة جعلها تستسلم وتقبل ما تقبله، تقبل أن تكون عاملة في المكتب، وسكرتيرة، ومساعدة، ومحظية وعشيقة، وزوجة سرية لزوج الاثنين، ولتذهب شهادة الحقوق إلى الجحيم.

هبط من التاكسي بعد أن نفض الذكريات على المقعد، وابتسم لڤيكن الذي فتح الباب له وقاده إلى باب المطعم، فقابل شانت العجوز الشبيه بمسيو الفونس مدرس الفرنسية الذي كان يدرس له في ثانوية قوص.

ـ كيفك يا راجل يا عجوز؟

- نشكر ربنا يا مسيو بدير، منورنا.

- تسلم وتعيش، أمال فينه الباشا الكبير؟

- حضرتك ارتاح وهو هيكون معاكم حالا.

- معاكم!!

قالها بدير مستغربًا، ثم استغرب استغرابه، الدعوة جاءت على مجموعة واتس آب، بها العديد من الأعضاء، صحيح أن المجموعة تدعى (البيت VIP) لكن المجموعة تضم بعض الأرقام والأسماء التي يعرف بدير بعضها ولا يعرف البعض الآخر، وخاصة تلك الممثلة البضة الفاتنة، التي كانت رفيقة لياليه الافتراضية قبل أن تظهر هناء وتشبع جوعه، حتى أن جسده امتلأ بالرغبة عندما تصور وجودها أمامه في الطاولة نفسها.

- ده هيبقى عشا مليح بقى.

همس بها لنفسه وهو يجلس على مقعده، المقعد الذي جعله على بعد سنتيمترات من رأس المائدة، وأمامه يجلس بهاء سنجر، طبيب أمراض النساء المشهور وأحد جيرانه في المعادي منذ القدم، ابتسم وحياه برأسه فرد الآخر التحية بصلف وقلة ذوق، أو هكذا رأى بدير.

أمامه بجوار بهاء، يجلس ذلك السِكِّير مدير البنك سابقًا، الذي يوشك على تقضية سنين عمره الباقية في ليمان طرة، عاصم خورشيد، هو يعرفه جيدًا، ببساطة لأنه محام البنك في القضية التي ستزج بعاصم في السجن، وهو من دبَّر ألا يصل إعلام أول جلسة إلى مكتب عاصم، كي يتلقى حكمًا غيابيًا يضعه في موقف المدافع، الضربة الأولى من نصيب بدير فقط.

بجواره يجلس بدر التمام، ليلى حسني، تلك الأنوثة الفائرة، في ثوب لا يعرف بدير إذا كان موجودًا أم أنه مجرد خيال تنسجه حولها لتداري صدرها الفائر وقوامها الملفوف، وذراعاها البضتان تبرزان من أطراف الثوب، منظر كفيل بأن يحطم أعصابه فيرجع كأس النبيذ التي وضعت أمامه، لتزيد من غليانه ولا تفلح في إطفاء فورته.

- الله يخرب بيتك.

قالها لنفسه هامسًا، فندت ضحكة مكتومة من ذلك الرجل الجالس بجواره، الأصلع ذي النظارات الذي يراه لأول مرة، فأدار وجهه ناحية الكرسي الخاو في طرف الطاولة الآخر والذي يولي ظهره ناحية الطاولة، ربما هي طريقتهم في هذه المطاعم الفاخرة كي يعلنوا ألّا أحد سوف يجلس هنا.

فوق المقعد رأى لوحة مما لا يفهمه ولا يهتم به، يتوسطها خيال أبيض حوله خيالات ملونة، أجساد بلا وجوه، هو يكره تلك اللوحات التي يتصنع أهل الفن الحديث العمق و الثقافة بها، يذكر أن آخر لوحة قد أثارت اعجابه هي لوحة رأها في مكتب أحد عملائه الأثرياء، فقط لأن المرأة العارية في اللوحة كانت تملك صدرًا جميلًا أثار إعجابه

- العشاء الأخير، بس بمعاصرة شوية.

خرجت الجملة من الرجل الأصلع بجواره لتقطع خواطره، فالتفت ناحيته بنصف وجه، ليجد ابتسامة لزجة تملأ وجهًا متهدلًا مستديرًا، نفر آخر من أبناء القاهرة اللينين الذين يكونون على باب مكتبه طالبين مساعدته الثمينة في الاستحواذ على قطعة أرض ما.

- آه، خدت بالي.

- فوزي جميل، مهندس كمبيوتر.

- بدير شاكر العمدة.

- أشهر من نار على علم.

انتفخت أوداجه، وانتفض شاربه الكث فوق فمه، ومد يده يصافح اليد اللينة الممتلئة، وأقسم بينه وبين نفسه أن يد هناء أكثر خشونة من يد ذلك الأفندي.

- أنا كنت جاي لحضرتك المكتب كمان يومين.

- تآنس وتنور، طالما انت من صحاب رافي تبقى عزيز علينا.

- الله يعز مقدارك، كان عندنا موضوع صغير كدة عايز أحله.

نداء العمل يرن في عقله، فيشير بيده لتملأ الفتاة الممصوصة - كما يراها - كأس النبيذ، ويقرب وجهه من وجه العميل المتوقع.

- خير؟

- أنا بس مش عايز أزعجك بأمور شغل واحنا برة أوقات الشغل.

ليرسم على وجهه تعابير الأهمية والأسى.

- الشغل ملوش مواعيد يا باشمهندس.

يقترب فوزي أكثر، ليرى بدير تلك النظرة الملتاعة في عينيه، هاتان العينان الضيقتان تخفيان أمرًا ما.

- عايز أفض شركة البرمجيات بتاعتي.

ـ وماله، بسيطة.

ـ المشكلة إن الشركة بيني وبين المدام.

قالها فوزي هامسًا، فرفع بدير بصره ناحية المرأة نصف الحسناء التي تلطخ وجهها بالمساحيق، الجالسة بجوار ذلك الـ (فوزي) ثم عاد ببصره نحو فريسته.

ـ طلاق.

ـ ياريت ينفع، فوزي جميل جرجس يعقوب.

ـ آه خدت بالي.

ثم مد يده في جيبه وأخرجها ببطاقة صغيرة عليها ميزان العدالة واسمه يتوسطها مع رقم محمول متميز تتشابه أرقامه.

ـ يبقى حضرتك تشرفنا بالزيارة يوم السبت، عشان نتكلم على راحتنا.

ـ يكون أحسن طبعا، وبالنسبة للأتعاب أنا...

ـ يوم السبت نتكلم في كل التفاصيل، ومش هنختلف، متقلقش.

ثم ابتسم ابتسامة تاجر خضراوات ينهي صفقة طماطم، واعتدل في جلسته وهو يخرج علبة سجائره السوبر، وما إن أشعل سيجارة ورفع عينيه نافثًا دخانها حتى قابلته نظرات متقززة من ذلك السِكّير عاصم، بينما راحت الفاتنة السينمائية تتفحصه بعينيها.

عندما اقتحم صوت رافي الجلسة

ـ أهلًا وسهلًا بيكم جميعًا، نورتم البيت، البيت بيتكم.

التفتوا جميعًا إلى مصدر الصوت، رافي كشيشيان، في حلة سوداء أنيقة ساحرة، وقميص أبيض بلا ربطة عنق، ومنديل فضي موضوع بعناية في جيب السترة، بينما دبوس رسمت عليه ثلاثة ألوان في شكل مستطيل بدت لبدير كأنها علم ما.

سحب رافي المقعد وجلس متوسطا الطاولة، وأشار بيده إلى الفتاة الرفيعة الطويلة، فانصرفت تحث السير ناحية المطبخ.

- طبعا إنتم منورينا جميعًا، واللي منكم ميعرفش التاني، على الرغم من إنكم أعضاء في جروب «البيت الفي أي بي» على الواتس آب، لكن اسمحولي أبدأ التعارف أنا.

ثم أشار ناحية اليمين وبدأ.

- دكتور بهاء سنجر طبيب أمراض النساء والولادة المعروف.

هز بهاء رأسه شاكرًا وهو يلف ببصره نحو الطاولة

- مستر عاصم خورشيد، صديقي العزيز ومدير بنك (....) طبعًا.

هز عاصم يده متصنعًا التواضع والتفت ناحية الجمع.

- النجمة المتألقة دائمًا ليلى حسني.

- إنت اللي متألق على طول يا حبيبي.

ردة فعلها بدت لبدير متصنعة مبالغ فيها، وكأنها في برنامج سهرة فنية.

- الفنانة التشكيلية المعروفة ومهندسة الديكور الفنانة ميريت جميل.

التفت بدير ناحية المرأة الملطخة بالأصباغ، فبدت له نظرات الإعجاب اللامعة في عيني المرأة، ليبتسم في خبث، هذه المرأة تعشق رافي وربما

كانت تخون زوجها اللين معه، فلتقطع ذراعه وليحلق شاربه إذا لم تكن تفعل ذلك.

- المهندس فوزي جميل، صديق الطفولة وصاحب أكبر شركة برمجيات في البلد.

ابتسم فوزي وهز يده محييًا وكأنه طفل يحيي أصدقاء والده.

- وصديقي العزيز، ومحاميّ الخاص، وحجة القانون الأستاذ بدير العمدة.

انتفخت أوداج بدير من جديد، وألقى نظرة سريعة على وجه ليلى حسني، ليجد ابتسامة ماكرة على وجهها.

لربما احتاجت له قريبًا، هو يعرف أنها كانت على علاقة سرية بأحد رجال مبارك الهاربين، ربما كانت زوجته أو محظيته، هو يعرف أن العلاقة سرية للغاية وأن الرجل هرب ومعه حقيبة ثيابه فقط، وأن كل الأموال والأملاك أودعت باسم تلك المرأة، هذه معلومات سرية، لكن ليست سرية على من يملكون شبكة علاقاته الواسعة المتشعبة، لربما أتته تطلب عونًا لتهريب تلك الأموال والتخلص من تلك الأملاك، لكنه لن يفوت الفرصة ساعتها، سينقض الشاهين على فريسته ويطلب الثمن الذي يليق بهذين النهدين المتفجرين.

- بيتهيألي كفاية كده مقدمات وشغل حفلات الكوكتيل، ونبدأ العشا بسرعة، ولا إيه.

ثم ألقى ضحكة مقطوعة صغيرة، وأشار بيده إلى قريبه الشبيه ببشاوات العصور الغابرة، فاتجه إلى باب المطعم وقلب لوحة مفتوح إلى مغلق.

- إنت هتحبسنا ولا إيه يا باشا.

كانت هذه من بدير، فابتسم رافي متابعًا:

- لا يا أستاذنا، في الحقيقة أنا أصريت إني أرتب أن المطعم يكون فاضي تمامًا لما حضراتكم تشرفوني، كل حجوزات النهاردة اتلغت والمطعم مغلق من دلوقتي، مينفعش أعزم أصدقائي المهمين زيكم ويبقى في حد يعكر خصوصيتنا.

- خصوصيتنا.

انطلقت الكلمات ثقيلة من بين شفتي عاصم خورشيد المثقلتين بالشراب، فالتفت رافي له.

- طبعًا يا مستر عاصم، النهاردة ليلة خاصة جدًا.

ثم تحول بصره ناحية اللوحة، وارتسم على وجهه تعبير لم يفهمه بدير جيدًا، وهو يتابع:

- ليلة خاصة جدًا جدًا.

* * *

الفصل الثاني

حتى مطلع الفجر

• ٦ •

القاهرة

الثالث والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الحادية عشرة وخمسون دقيقة مساءً

ـ أوامر معاليك يا فندم، لا هنجيبه طبعًا، يا باشا احنا رجالتك وتلامذتك، أنا هجيبه بطريقتي الخاصة يا فندم، إتفضل سعادتك، إتفضل، اتفضل.

نظر المقدم توفيق إسماعيل إلى الهاتف بعد أن أغلق اللواء فلان الخط، وعلى وجهه تلك النظرة الساخرة الممزوجة بسخط و حزن وغضب.

نظرة (الكوميديا السوداء) كما تسميها زوجته.

ألقى بالهاتف على سطح مكتبه في قسم البساتين، ثم تناول علبة سجائره وأشعل سيجارة وراح يدور بمقعده نصف دورة، ومع كل التفاتة يئن المقعد منزعجًا، ولسان حاله طلب الرحمة في هذه السن ـ مقعد عمره عشرة أعوام ـ وطلب الرحمة من وزن توفيق الذي يتخطى المائة كيلوجرام.

ـ لا انت هتعيط، استحملني كده ده احنا عشرة عمر.

عشر سنوات قضاها توفيق بين نقطة الشرطة المعدمة الواقعة في أطراف الطريق الدائري، ثم النقلة التي حولت حياته، عندما ترقى لينضم الى المباحث في أعقاب يناير، وها هو الآن رئيس مباحث البساتين وأحد أهم الضباط المسؤولين عن إعادة ترتيب البيت في أعقاب ٣٠ يونيو، بل وله مجهودات لا ينساها أحد في تعقب ما يسميه رؤسائه بالخلايا النائمة، وما يسميه هو ببساطة، شوية عيال فاضية بتوع سياسة.

السيجارة في طرف فمه وعيناه لا تفارقان تلك الصورة الموضوعة على مكتبه، وقطرات العرق البسيطة تتأرجح مع هواء مروحة السقف فوق رأسه نصف الحليق.

نقرتين على الباب، تدلان من الأثر الذي تركته في الجو أنهما من شخص تبدو عليه التربية و الاحترام، وليس منسحقًا أو تابعًا.

ـ ادخل يا طارق.

هكذا قالها توفيق دون أن يرفع عينيه من على الصورة، فانفتح الباب عن شاب أبيض البشرة، مصفف الشعر بعناية، حليق الوجه ممشوق القوام، حتى وإن كانت قامته لا تتعدى المتر وسبعين سنتيمترًا.

ـ تعالى اقعد عايزك.

ـ إيه يا معالي الباشا، إنت مش ناوي تروح ولا إيه؟ الساعة داخلة على اتناشر.

ـ اقعد ومتحرقش كتير، شايف الصورة دي.

يتناول طارق الصورة ويحدق فيها جيدًا، ثم يرفع بصره ناحية توفيق،

الذي شبك أصابعه أسفل ذقنه وهو لا يكف عن تحريك جسده بالمقعد العجوز نصف دورة يمينًا ويسارًا.

ـ مش ده الواد بتاع الزهراء؟

ـ أيوة هو.

ـ مش كانت النيابة أخلت سبيله أول إمبارح.

ـ إيه يا طارق في إيه، هو أنا قاعد مع اليوم السابع، مانا عارف إن النيابة ، استغفر اللـه العظيم متخليناش نغلط في حد بقى.

ـ في إيه معاليك بس.. إنت متنرفز ليه؟

أطفأ توفيق السيجارة وأزال انعقاد أصابعه وهو ينهض من فوق المقعد، ويكاد يسمعه بخياله يحمد اللـه شاكرًا أنه نهض.

ـ المشكلة إن اللوا عزمي عايزه، عايزه هنا في التخشيبة يومين تلاتة، الظاهر الواد مهبب الدنيا فوق ومحتاجين ياخدوا منه كلمتين، والصراحة أنا متعودتش أزعل اللوا عزمي بالذات.

ـ طب وإيه المشكلة، ما نجيبه.

ـ آه وإيه المشكلة صحيح.

ثم نظر إلى مدخل القسم من نافذة مكتبه الصغيرة المستطيلة، و سرح ببصره إلى شجرة كافور عجوز على الجانب الآخر من البوابة المعدنية الكبيرة، المزروع أمامها قوالب خرسانية عملاقة تغطي نصفها.

ـ متشغلش دماغك إنت، أنا هتصرف، المهم بعت حد لعربية بدير المحامي؟

- أهو الموضوع ده غريب شويتين يا باشا.

- غريب إزاي يعني؟

قالها دون أن يلتفت، وعيناه لا زالتا معلقتان بشجرة الكافور العجوز، التي تهتز أغصانها بلطف مع نسمات هواء أبريل الليلي، أو ربما كانت الخماسين على وشك البداية وهذه بشائرها التي...

- إنت معايا يا باشا؟

- كَمِّل يا طارق سامعك.

جلس طارق على المقعد أمام المكتب، وهو لا زال ممسكًا بصورة الشاب المطلوب.

- سكينة مغروسة في كاوتش، مفيش أي علامات تانية لأي حاجة، مفيش رسالة ولا كلمة ولا حتى ورقة على قزاز العربية؟

- رسالة ميفهمهاش غيره يعني.

- يجوز، ويجوز بدير يكون بيدبر حاجة شمال لحد من أعدائه، وعايز يدخلنا في الموضوع عشان يمشي الشمال قانوني.

استدار توفيق بجسده ورفع بنطاله قليلًا وهو يعدل من وضع قميصه داخله، بينما قدماه تتحركان حاملتين جسده إلى المكتب من جديد، ثم جلس في المقعد المقابل لطارق.

- بقولك إيه، كنت عايز أسألك على حاجة.

- إتفضل معاليك.

- تعرف حاجة عن الأرمن؟

ابتسم طارق في بلاهة، بينما توفيق يضحك ضحكته الساخرة المكتومة، وعيناه تضيقان مع اهتزاز نصفه العلوي.

- الأرمن يا طارق، الجماعة بتوع أوروبا اللي جم مصر زمان دول، لبلبة ونيللي وأحمد مظهر، إيه يا طارق ما تصحى معايا.

- آه يا باشا ، معلش مكنتش مركز، الأرمن آه.

ثم هز رأسه مؤمنًا في بلاهة، فهز توفيق رأسه مقلدًا إيَّاه ساخرًا.

- أيوة إنت بتهز دماغك ليه؟

- لا مفيش يا باشا.

- تعرف حاجه عنهم ولا لا؟

- لا مش أوي يا باشا.

- يعني إيه مش أوي؟ يا تعرف يا متعرفش يا طارق.

- يبقى معرفش يا باشا.

تناول توفيق علبة سجائره، ومع إشعاله سيجارته اعتدل بجسده إلى الخلف وأطلق دخانها إلى سقف الغرفة.

- حضرتك عايز تعرف عنهم إيه؟

- أي معلومات بسيطة تنفع بنت في سنة رابعة ابتدائي.

- سنة رابعة ابتدائي إزاي؟

اعتدل توفيق وأشار له ليقترب ثم قال:

- مخبيش عليك، البنت عندها بحث في مادة اسمها، اسمها شويال

ساينس باين، عن الأرمن، المدرسة بتاعتها أصلها مبتحبنيش وواضح إنها متعقدة من كل ضباط البوليس، فراحت منقية أصعب موضوع للبنت، والبنت بقالها خمس ساعات بتعيط ومش عايزة تروح المدرسة بكرة.

ـ بكرة الجمعة يا باشا ومفيش.

ـ ششششششش.

رفع توفيق كف يده في وجه طارق وهو يصدر ذلك الصوت المصحوب بالكثير من الشينات، تلك الحركة التي يود طارق ـ في كل مرة يصدرها توفيق ـ لو فجر رأسه بست طلقات من مسدسه الميري، ثم أحرقه في فرن غاز.

ـ المهم إن أمها زي مانت عارف، خريجة اقتصاد منزلي باين وآخرها الفرجة على حريم السلطان، وأنا كذلك، معرفش عن الأرمن غير الواد بتاع أرسنال اللي اسمه مختار معرفش إيه.

ـ مخيتاريان.

ـ هو ده، فمش عارفين نعمل أي حاجة في الموضوع.

ـ طب جربتم جوجل يا باشا؟

نظر توفيق إلى طارق وعلامات الدهشة تكسو وجهه الممتلئ، وكأنه يسمع ذلك لأول مرة.

ـ حضرتك مجرد ما تمسك الموبايل أو اللاب توب أو أي جهاز كمبيوتر متوصل بالنت، هتفتح صفحة براوزر وتخش على جوجل، وتكتب الأرمن، وهتلاقي بتاع مليون نتيجة، طلع منها اللي تحبه.

- جوجل.

- أيوة جوجل.

- جوجل.

وراح توفيق يردد الكلمة مرات متعددة بنبرات صوت مختلفة، ثم انتفض ناهضًا من فوق المقعد وتناول هاتفه المحمول، وراح ينقر الشاشة بأصابعه وعلى وجهه ابتسامة منتصرة، بينما اختلس طارق ابتسامة ساخرة وهو ينظر إلى شاشة هاتفه المحمول، تحولت في ثوان الى نظرات قلقة ثم نظرات ساخطة، وراح يقلب في شيء ما.

- كنا بنقول إيه بقى على بدير؟

- ثواني يا باشا.

- في إيه يا طارق، إنت مبحلق في الموبايل كدة ليه، بتدور على حاجة على جوجل؟

ثم أطلق العنان لضحكته الساخرة بصوت مرتفع، لكن طارق لم يحرك ساكنًا، لم يرفع عينيه من فوق الشاشة ولم يبد كأنه سمع توفيق.

- في إيه يا طارق؟ ما تنطق.

- في مشكلة صغيرة كدة يا باشا، والمشكلة إنها منتشرة على السوشيال ميديا بقالها بتاع عشر دقائق.

- مشكلة إيه؟ وريني البتاع ده.

ناوله الهاتف المحمول، فوجد توفيق نفسه داخل عالم تويتر الأزرق السماوي، الحروف تتراقص أمامه وتلك الكلمات المتي يسبقها علامة الشباك (#).

- أنا مش فاهم حاجة من الهلك ده، في إيه؟

- ممثلة مشهورة أوي، ليلى حسني لو تعرفها.

- حد ميعرفش ليلى حسني.

- خبطتها عربيه والإسعاف جت شالتها، قدام مطعم البيت بتاع رافي كشيشيان.

- هو تويتر كان سامعنا واحنا بنتكلم على الأرمن ولا إيه؟

نهض طارق وتناول هاتفه من يد توفيق، وأشار إلى علبة سجائره طالبًا سيجارة فأومأ توفيق برأسه موافقًا.

- طب إيه يا باشا.. اتحرك على هناك؟

- ليه، هي اتقتلت ولا اتخطفت ولا حصلها حاجة، واحدة سكرانة خارجة من سهرة خبطتها عربية، وراحت على الإسعاف، نشوف هينقلوها على مستشفى إيه ونبعتلها أمين واتنين عساكر الصبح ياخدوا أقوالها وخلاص، متوجعش دماغنا يا طارق أنا عايز أروح لعيالي، النهاردة الخميس يا أخي.

رن هاتف توفيق، فنظر إلى الشاشة، وتغيرت ملامح وجهه المنبسطة وهو يجيب المكالمة.

- مساء الخير معاليك، أيوة حاضر، لا تحت أمر حضرتك تمام، بنفسي طبعًا، هو بس الموضوع، لا يا فندم شغلنا طبعا، حاضر يا فندم.

ثم أغلق الخط وراح ينظر إلى الشاشة وهو يجز بأسنانه على شفته السفلى ساخطًا.

- طارق.

- أيوة يا باشا.

- اطلع على مطعم البيت، شوفلي الموضوع ده.

- بس يا باشا النهاردة الخميس والصباح...

- طارق...

قالها ضاغطًا على كل حرف بها، مشددًا على كل تشكيل وكل مخرج من مخارجها، فصمت طارق ودار مغادرا الغرفة.

- أيوة يا ماما، لا هتأخر شوية عندي شغل، شغل يعني شغل يا داليا، هكلمك، سلام.

ماله ومال الزواج، كان هانئًا مرتاح البال في بيت المرحوم أبيه، تخدمه أمه وترعاه وتتحمل فوضويته وكسله و عجرفته، يترك الغرفة كل صباح كأنها مقلب قمامة عمومي ويرجع في المساء ليجدها غرفة فندقية تلمع من النظافة، الآن عليه أن يضع منامته على طرف الفراش في وضع صحيح، وأن يغسل أسنانه كل صباح - لأن البنت بتقلدك - وأن يتوقف عن التدخين في غرفة الجلوس، وأن يتصل إذا نوى التأخير وإذا نوى التبكير.

داليا سيدة راقية مثابرة - وهو لا ينكر ذلك - لكنها ليست أمه، وهو بعد كل هذه السنين، لا يتوقع لها أن تكون أمه، لكنها....

فرَّق رنين هاتفه قطيع الأفكار والخواطر الذي يرعى في رأسه، فأجاب مسرعًا

ـ ها يا طارق، عربية سودا من غير نمر، وفين العربية، هربت إزاي يعني؟ طب خليك عندك، خد كل المعلومات اللي تقدر تاخدها، إنت مش عارف مين متابع القضية، وكلمني كل ما يجد جديد.

ثم أغلق الخط، وعيناه معلقتان بسجل مكالماته، بالذات على ذلك الرقم الذي اتصل به يطلب أن يشرف بنفسه على التحقيق فيما حدث للمثلة الفاتنة، صاحبة التاريخ الطويل والجسد المثير، صديقة شبابه وزائرة أحلامه حتى وهو في هذا العمر.

فتح صفحة من متصفح الإنترنت على هاتفه، وكتب ببطء ـ كعادة أعداء التكنولوجيا ـ ليلى حسني، فانطلق جوجل يأتيه بالنتائج، وأولها صورة ليلى بفستانها الأحمر المثير في ختام مهرجان ما، وهي تبتسم في غنج للكاميرات المنتشرة حولها.

ـ ده انتي طلعتي مسنودة بجد بقى.

* * *

• ٧ •

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الثانية عشرة وخمس وأربعون دقيقة صباحًا

أين ذهبت ليلى؟

كان هذا هو عنوان السؤال الذي تضخم في رأس عاصم الثمل المتراقص فوق رأسه.

كانت تجلس بجواره يتبادلان أطراف الحوار، يلقي في أذنيها بدعابته المكررة بلسانه الثقيل الثمل فتضحك بصوت مرتفع يشعل النار في ثنايا جسده، وكأنه تشجعه على أن يزيد من وتيرة الدعابات ويرفع من كثافتها، لتضحك من جديد ويغلى جسده من جديد، ولربما خرج الليلة برفيقة تملأ وحدته التي فرضتها عليه ابنة الأرمن الباردة سليطة اللسان.

أين ذهبت ليلى؟

السؤال الذي راح يأكل من خلايا مخ بدير، كانت الفاتنة تجلس هناك بجوار ذلك الثمل المختلس، عاصم خورشيد، بينما تتلاعب ذراعيها ويترجرج صدرها مع ضحكاتها المجلجلة، لقد رأى بدير عينيها وهما تنسحبان نحوه كلما ضحكت على إحدى الدعابات السخيفة من رافي أو من ذلك الوغد عاصم، لكن يا ترى أين ذهبت؟

ربما ذهبت تصلح من زينتها.

أين ذهبت ليلى بعد أن خرجت من الحمام؟

هذا ما قاله فوزي لنفسه، عيناه تجوبان المكان اختلاسًا، لربما كانت تنهي مكالمة هاتفية ما، لكن هاتفها ملقى بلا حراك فوق الطاولة، لقد كانت تحدق فيه غير مصدقة، ثم ذهبت إلى الحمام، وخرجت من الحمام وهي تعدو بلا توقف حتى أنها صدمت مقعدين في طرف المطعم وكانت تؤذي ركبتها الجميلة.

ألم يلاحظوا ذلك؟ هؤلاء الحمقى السكارى الذين لم يتوقفوا عن مراقبة صدرها وذراعيها.

مثله تماما، هو لم يتوقف عن المراقبة أيضًا، لكنه لم يشرب ولم يثمل، ربما اكتفى بثمالته من مراقبتها.

من ڤيبرج يا رافي؟

السؤال الذي خرج من بين شفتي بهاء، وهو يمسك بهاتفه المحمول ويرفع عينيه في مواجهة رافي مباشرة، بعد أن رأى تلك الرسالة التي تلقاها الجميع على مجموعة المحادثة في الواتس آب.

- ڤيبرج صديق عزيز عليًا أوي، زيكم كدة، أعرفه من زمان، بيشتغل في الصحافة.

- بس هو مش مدعو معانا النهاردة صح؟

ابتسم رافي وسرح ببصره ناحية المقعد الموضوع في وضع عكسي على طرف الطاولة

- هو صاحب الكرسي ده صح؟

قالتها ميريت وهي تشير إلى المقعد، فأومأ رافي برأسه والابتسامة لا تفارق وجهه

- إيه الخبر اللي هو عامله شيرع الجروب ده؟

لم يكن بهاء يكمل عبارته، حتى رفع الجميع هواتفهم المحمولة نحو وجههم، حتى عاصم الثمل ذي الوعي المتراقص، بينما رفع رافي كأس النبيذ نحو فمه وهو يتساءل في هدوء غير مهتم.

- خبر إيه؟

- ليلى حسني، خبطتها عربية قدام المطعم هنا ونقلوها المستشفى.

- أوه، إيه الخبر المزعج ده؟

قالها رافي وهو يضع كأس النبيذ في هدوء، ويخرج هاتفه من جيب سترته مطالعًا الخبر.

بينما انتفض بدير من مقعده، وعدل من وضع بنطاله وكأنه يهم بالخروج.

وكأنها إشارة غير مرئية أو مرتبة، نهض بهاء ونهض فوزي وعزما على التحرك ناحية الباب.

- إيه يا جماعة رايحين على فين؟

- مش نشوف في إيه؟

- ما احنا عرفنا في إيه يا أستاذ بدير.

- بس واجب برضه نطمن بنفسنا.

ابتسم رافي وهو يرفع بصره ناحية بدير، دون أن يتحرك مليمترًا واحدًا من فوق مقعده، بينما راح بدير ينظر إلى بهاء، وكأنه يطلب الدعم حتى يتحركا للاطمئنان على نجمة النجوم.

- هحكيلكم قصة لطيفة كده تهديكم شوية.

ثم أشعل رافي سيجارًا فخمًا من قداحته الذهبية ونفث دخانه وهو يسرح ببصره إلى اللوحة المعلقة.

- كان لي جد زمان في أرمينيا، متعود يتغدى الساعة ١٢ الظهر، ومهما حصل في الدنيا كان لازم الغدا يتحط الساعة ١٢، وفي يوم من الأيام قعد على الترابيزة وبص في الساعة، لقى إن فاضل خمس دقائق والساعة تبقى ١٢ والغدا لسه متحطش، قعد يعد الثواني والدقائق لحد ١٢، وبرضه الغدا لسه مش على الترابيزة، وبعد ما الساعة بقت ١٢ وربع، فقد صبره، وراح زاعق بعلو صوته على جدتي، هو الغدا متحطش على الترابيزة لغاية دلوقتي ليه، وبعد ما زعق كتير جدًا، جاتله خالتي بتعيط وقالتله إن جدتي ماتت، فبصلها بهدوء و طلب منها طلب واحد بس...

ثم نفث دخان سيجارته وصمت، فنظر بدير إليه وقال:

- لازم قلها اتصلي بالحانوتي ولا المغسل.

- لا، ببساطة طلب منها تحطله الغدا.

ثم ضحك رافي ضحكة مكتومة ساخرة، وراح ينفث دخان سيجاره، والجمع المتحلق حول الطاولة ينظرون له وعلى ملامحهم تعابير البلاهة المخلوطة بدهشة وعدم فهم واضحين، عدا بهاء الذي ابتسم في هدوء.

- وبعدين؟

كانت هذه الكلمة الأخيرة خافتة، ثقيلة الحروف، خرجت من فم عاصم الذي تبعها برشفة من كأس نبيذ كان يخص ليلى منذ دقائق.

بينما رافي ينظر له ببساطة، ثم هز كتفه قائلًا:

- ولا قبلين.

- أيوة إيه المقصد من ورا القصة يا رافي؟

- المقصد ببساطة، إن الحياة لازم تمشي كما هو مخطط لها يا أصدقائي، الحياة مش هتتوقف عشان فقدنا حد مننا، ما بالكم بحاجة بسيطة زي حادثة عربية بتحصل كل يوم في كل شهر، وطالما الإسعاف وصلت بسرعة وحالتها مستقرة زي ما بيقول الخبر، يبقى سهرتنا لازم تستمر.

صمت متوتر، خيم فوق الطاولة الخشبية لدقائق معدودة، قطعتها جملة خافتة من ميريت، إلا أن رنينها كان أوقع من ألف جرس عملاق، ربما بسبب الصمت المخيم.

- هي كانت سكرانة ومش على بعضها بعد ما جريت عالحمام.

التفت الجميع نحوها، بينما رفعت هي كأس النبيذ وجرعت المتبقي منه على دفعة واحدة، وتابعت وهي تضعه فوق الطاولة:

- مسكينة.

أطلق رافي ضحكة عالية ساخرة، بينما ابتسم بهاء في هدوء وهو يجلس على مقعده من جديد، كذلك فعل بدير وفوزي.

نظر بهاء في وجه رافي، ثم اتسعت ابتسامته وهو يتذكر يوم أن قابل رافي كشيشيان، يوم ولادة ابنة أخته المراهقة، يومها كان رافي شابًا في العشرين من عمره، يرتدي الجينز وقميصًا منقوشًا بالمربعات الحمراء والزرقاء يثني أكمامه حتى مرفقه، بينما كان بهاء وقتها في النصف الثاني من عشريناته، طبيب توليد شاب يملك كل ما يؤهله ليكون شهيرًا وناجحًا، يعمل راهبًا في محراب أستاذه الشهير.

- طمني يا دكتور.

- الجنين وضعه مقلوب، عشان كده هنلجأ للتدخل الجراحي.

- قيصرية يعني؟

- تقدر تقول كدة، فين جوزها عشان محتاجينه يملى شوية أوراق.

ملامح الأسى ظهرت على وجه رافي الشاب، وعيناه راحت تنظر يمنة ويسرة.

- جوزها تعيش انت.

- لا إله إلا الله، طيب أخوها أو أبوها؟

- أنا أخوها.

- حضرتك عندك كام سنة.

ملامح السخط على وجه رافي تخبر بهاء بأن تخمينه كان صحيحًا، الشاب لم يتخطَ الحادية والعشرين، تلك اللمعة في العين والجسد المشوق

والهرمونات التي تتقافز داخل جسده، وقبضته التي تجمعت أصابعها استعدادا لمعركة وهمية لن تبدأ

اليوم يرى رافي آخر، رافي كشيشيان الذي تخطى الأربعين، ونحتت السنين بعض التضاريس في وجهه الوسيم، بينما انطفأ ذلك البريق الذي كان يضرب الناظر لها بشرر كالقصر.

أفاق بهاء من سيل الذكريات، وأبعد عينيه عن رافي إلى الهاتف المحمول، بينما مال بدير برأسه ناحية فوزي هامسًا:

- واضح إن المدام سكرت.

نظر فوزي ناحيته ثم أجابه في خفوت:

- غيرة ستات وانت سيد العارفين يا أستاذنا.

- بس خسارة كبيرة غياب الست ليلى عن القعدة.

- بتقول حاجة يا أستاذ بكير؟

كانت هذه الجملة الأخيرة ساطعة واضحة، محملة بأطنان من الثمالة، تبعتها يد عاصم وهي ترفع زجاجة معدنية صغيرة نحو فمه، وكف يده تمسح شفتيه.

عيناه تتراقصان مقلتيها، وتطلقان الشرر ناحية بدير.

- واضح إن مش مراتي بس اللي سكرت.

قالها فوزي هامسًا وهو يكتم ضحكاته في أذن بدير.

- أولا اسمي بدير يا عاصم بك، ثانيًا بقول إن السهرة بريقها هينطفي كتير بغياب الست ليلى، ولا انت إيه رأيك؟

ربت رافي على ذراع بدير وهو ينظر في غضب إلى وجه عاصم، الذي أشعل سيجارة وراح يحدق في اللوحة المنتصبة على الحائط، بينما يده ترتعش بالسيجارة.

- هو طبعًا غياب ليلى هيأثر كتير، بس احنا طبعًا مش هنبوظ السهرة، إحنا هنتمنالها الشفاء العاجل ونطمن عليها بعدين، المهم نكمل سهرتنا دلوقتي، ده احنا لسه في مرحلة المقبلات.

- مرحلة المقبلات دي طولت أوي يا رافي باشا، هو المطبخ بتاعكم مفيهوش إلا سدق ومزة ولا إيه، أمال فين الزَفَر؟

قالها بدير بصخب وهو يطلق ضحكات أشبه بتراقص عملات فضية داخل حصالة طفل مسرف، بينما رد رافي الضحكات بابتسامة واسعة:

- الظاهر إنك متعرفش المطبخ الأرميني كويس يا أستاذ بدير.

- والله يا دكتور بهاء أنا أفضل المطبخ الصعيدي، لكن رافي بيه دعوته مترفضش.

ابتسم بهاء وهو ينظر ناحية رافي من جديد.

- بس اشمعنى النهاردة يا رافي؟

قالها بهاء مبتسمًا وهو يداعب هاتفه الموضوع فوق الطاولة

- النهاردة يوم خاص بالنسبة لي، في الحقيقة هو يوم خاص بالنسبة لكل الأرمن على وجه الأرض يا صديقي.

- تقصد عشان أربعة وعشرين أبريل.

- برافو يا بهاء، انت مذاكر تاريخ كويس.

ابتسم بهاء سنجر في هدوء، وراح ينظر إلى وجوه الحاضرين وهو يتابع:

- اختيار لطيف يا رافي، بس مش شايف إنها مش مناسبة للاحتفال، دي ذكرى هزيمة يعني مش ذكرى انتصار حربي.

- أولا هي مذبحة، مش هزيمة، ثانيًا دي أهم من أي انتصار يا صديقي.

- فسرلي كدة إزاي إبادة ستميت ألف بني آدم...

- مليون وخمسمية وتمانين ألف.

- مختلفناش يا رافي، فسرلي إزاي إبادة مليون واللي انت بتقوله ده ممكن تكون أهم من أي انتصار؟

نظر رافي نحو بهاء، وعيناه تطلقان بعضًا من شررهم القديم، الشرر الذي سحر نائبًا جراحيا في قسم التوليد، وجعله يقبل بتوقيع شاب لم يبلغ السن القانونية على استمارة عملية قد تودي بحياة امرأة وجنينها.

- بعد كل اللي شفناه في حياتنا على مدار ١٠٠ سنة، أعتقد إنها مناسبة جميلة جدًا للاحتفال إننا لسه عايشين ولسه موجودين، بعد كل اللي عملوه العثمانيين معانا من ١٠٠ سنة وأكتر.

ضحك عاصم من بين أسنانه وهو يجرع من كأس النبيذ، ثم قال وهو يحرك يديه في الهواء.

- بس أنا شايف إنكم بتبالغوا أوي يا صديقي، الموضوع ده فات عليه زمن، والصراحة لازم تبطلوا تفكير فيه وتكملوا حياتكم، اتعلموا مننا، احنا حاربنا إسرائيل خمسين سنة، وبعدين عملنا اتفاقية سلام معاهم والأمور مشيت.

- بيتهيألي أنا مختلف معاك في النقطة دي يا مستر عاصم.

قالها فوزي وهو يقطم من قطعة خبز موضوعة فوق طبق مزخرف من الفخار، ثم قال بفم مليء بالخبز.

- الموضوع هنا مختلف كتير، إحنا لما حاربنا إسرائيل كان عشان رفضنا لوجود الكيان ده وسرقة أرض الفلسطنيين المسالمين، لكن اعذرني، حرب الأرمن مع الأتراك كانت صراع نفوذ عرقي، شبه حرب البوسنة كده، ودي حاجة متتقاسش بمقاييس الحرب والسلام، دي وسيلة تبرر الغاية، زي ما قال ميكيافيللي.

- أعتقد إن الباشمهندس فوزي قال الخلاصة.

كانت هذه الجملة الأخيرة من بهاء وهو يشعل سيجارًا بنيًا رفيعًا، وينفث الدخان في هدوء، بينما أشاح عاصم بيده بتعبير يوحي بعدم اللامبالاة، بينما ميريت تنظر نحو رافي متابعة:

- سوري يا رافي، بس أنا مضطرة أختلف معاك المرة دي، أنا شايفة إن القضية عندكم انتهت، دلوقتي بقى في جمهورية مستقلة وليها اسمها وكيانها، والأرض اللي اتاخدت منكم كانت فعليًا أرض تركية، الموضوع مختلف تمامًا عن قضية فلسطين وإسرائيل.

نظر رافي ناحية بدير، الذي كان يلتقط حبة فستق من طبق بجواره ويكسرها بأسنانه الغليظة، وما إن انتبه لتركز نظر رافي عليه ومعه الجمع الجالس، انزلقت حبة الفستق داخل حلقه، فراح يسعل في جنون حتى طردها من فمه فوق الطاولة، وهو يجاهد لعبِّ الهواء.

انطلقت ضحكات الجميع، بينما اتسعت ابتسامة رافي وهو يربت

على كتف بدير، ثم تحولت ابتسامتها إلى ضحكة خفيفة من بين أسنانه اللامعة.

لكن كلمات قالها الرجل العجوز شانت في أذن رافي، أخفت الابتسامة، وحولتها إلى تعبير منزعج على وجهه، فوضع كأسه على الطاولة ونهض مغلقًا أزرار سترته.

- في حاجة يا رافي؟

قالها بهاء و التعبير القلق لا زال يكسو وجه رافي.

- لا يا صديقي مفيش، مشكلة بسيطة كدة وهنحلها، كملوا يا جماعة السهرة، المين كورس نازل كمان شوية.

ثم انصرف مع شانت في هدوء.

بينما عاصم لا يزال مواجهًا اللوحة، والسيجارة المشتعلة قد تأكل معظمها وقاربت على الانتهاء.

وعقله المثقل بذرات الكحول لا زال يستعيد ذكريات حواره الأخير مع ليلى.

- مسكين يا عاصم، يعني الموضوع ده هيضرك.

- غالبًا اه، وممكن قريب ألاقي نفسي على الحديدة وببدأ من جديد.

- طيب واللي يطلعك من الموضوع ده كسبان كمان.

- أديله عمري عن طيب خاطر.

أطلقت ليلى ضحكة مرتفعة وهي تهمس من بين أسنانها:

- إنت هتساعدني مساعدة بسيطة، أخرج بيها مبلغ صغير من البلد، وقصاده هتكسب عشرين مليون جنيه، وحد هيشيل القضية مكانك.

- أبوس إيديك قوليلي إزاي.

أطلقت ضحكة عالية أخرى وهي تضرب كفها بكفه، وكأنه ألقى على أذنها دعابة الموسم، وراحت ترمق بطرف عينيها ذلك المحامي القصير ذا الشارب الكث، الذي يراقبها في جشع منذ وصوله إلى المكان، وقالت وهي تغمز بعينيها مدعية الاهتمام به:

- بعد منخلص سهرتنا، هنتظر منك مكالمة بكرة الصبح على رقمي الخاص، أنا هبعتهولك دلوقتي، وهنتفق فيها على كل التفاصيل، اتفقنا، ودلوقتي اضحك بصوت عالي أوي معايا، كأنك قولتلي نكتة قبيحة.

ثم ضحكا سويًا وهي ترفع الهاتف المحمول إلى وجهها، بينما تطرف بعينيها اليسرى ناحية رافي الذي اندمج في حوار قصير مع ذلك الطبيب الأنيق، وما إن قابلت عيناها تلك الرسالة التي أرسلت لها بشكل منفرد على الهاتف، حتى امتقع وجهها الجميل، وألقت الهاتف فوق الطاولة وكأنها ممسكة بثعبان كوبرا، ونهضت مسرعة باتجاه الحمام.

تذكر عاصم كل ذلك وهو يرفع الزجاجة المعدنية إلى شفتيه مجددًا، ثم أشار بطرف إصبعه إلى الفتاة المليحة، طالبًا منها كأس نبيذ أخرى.

- على الله متكونيش موتي ولا فقدتي الذاكرة.

* * *

• ج •

القاهرة

الرابع والعشرون من يونيو ١٩٦٢ .. الحادية عشرة صباحًا

أيام عصيبة مرت على الرجل الذي يجلس خلف ذلك المكتب الخشبي الأنيق في محل بقالة كبير وشهير في أطراف حي السيدة زينب.

عيناه الخضراوان الصافيتان، مغمضتان خلف نظارته الطبية المستديرة الأنيقة، وحواجبه السميكة مرفوعة إلى الأعلى في وضع غريب.

يرى فيما يرى الغاف، أنه يمشي بلا هدى في أرض واسعة كبيرة، أرض لا زرع فيها ولا ماء.

ليست صحراء، ربما لو كان عرف الثلوج في حياته لقال إنها صحراء غطت بالثلوج، ربما لو كان عاش يومًا واحدًا في ماراش كما فعل أبوه الراحل أو أمه المقدسة روحها دائمًا، لكان عرف ما تعنيه الرؤيا.

يمشي على هدى، لا يعرف من أين أتى ولا أين يذهب، تتصاعد

حوله أصوات أبيه وأمه وأخته القديسة - التي اختارها الرب إلى ملكوته في عمر الزهور - يسمع صرخات الغضب التي تأتي من حنجرة شقيقه صوغومون وهو ينزع الفتيل فيحيل منزلًا كاملًا إلى رماد منثور، يسمع صوت لوسين وهي تتأوه في الليل تأوهات الألم المكتومة من أثر المرض اللعين.

يسمع صوت جمال عبد الناصر وهو يهدد ويتوعد، يسمع صوت ابنه المراهق أرتين وهو يضحك ضحكته الأولى.

ثم تلك الزهرة

زهرة بيضاء اللون، تنبت من وسط الأرض الثلجية، يقترب منها فرحًا، ربما أجد الماء هنا.

وما إن حاول قطفها، حتى يتفجر الماء من تحتها، ماء عذب صاف لا تعكره عكارة ولا تشوبه شائبة.

- مالك يا مقدس؟

توقظه العبارة الخارجة كالرصاص الحي من بين شفتين غليظتين يعلوهما شارب مبروم في عناية.

- يا ابني أنا لا عمري قدست ولا زرت القدس.

يفتح عينيه، ويخلع نظارته فاركًا إياهما في عنف، محاولًا دفع الصحو إلى رأسه نصف النائم.

- اجري غور هاتلي قهوة ياللا، ومتقوليش يا مقدس تاني، أنا اسمي الأستاذ يعقوب، متخرجتش أنا من التجارة عشان تقولي يا مقدس، اسمي إيه أنا؟

- الأستاذ يعقوب.

- كويس، ياللا روح بقى.

يعتدل في جلسته، ويرفع عينيه المرهقتين نحو الساعة المعلقة بجوار شهادة تخرجه من التجارة، الشهادة التي منحت كي تبروز وتعلق فقط.

العقارب لا زالت تحاول جاهدة أن تتقدم نحو الثانية عشرة ظهرًا، أقرب موعد عودة الوغد الصغير من المدرسة، بعد قليل سيدخل المحل بسرواله القصير المتسخ، وقميصه الأبيض الذي حال لونه للأصفر الترابي، وعينيه العسليتين المليئتين بالتحدي كعيني أمه، سيلقي بحقيبته القماشية بجوار المكتب، ويمنح بابا قبلة على جبينه بشفتين مليئتين ببقايا الأرواح، ثم يقفز خلف ثلاجة الجبن، ويلتقط حبات الزيتون التي يجمع بذورها بعد أن يأكل لحمها، ثم يناكف جمعة ويضايق العجوز صبري، حتى يحين موعد قيلولة أبيه، فيرحل معه إلى المنزل.

جاء جمعة بالقهوة ووضعها مع كوب الماء فوق المكتب الخشبي، بينما فتح يعقوب دفتره الكبير، وراح يحاول جاهدًا أن يسجل شيئًا فيه.

صوت صبري العجوز الجهوري يأتي من داخل المخزن:

- يا أستاذ يعقوب، متنساش صفايح الجبنة، فاضل عندنا صفيحة واحدة.

- حاضر يا عم صبري.

- و الزيتون.

- حاضر.

- و تجيب قد خمس ست أقراص جبنة تركي عشان الطلب عليها كتير.

- رومي، قلتلك اسمها جبنة رومي يا راجل يا مخرف.

- يا سيدي رومي ولا يوناني، المهم إنك عارف أنا أقصد إيه.

عكرت كلمة (تركي) مزاجه المتعكر بالأساس، هو يعرف أن صبري سكندري قديم، وأنهم يلقبونها بالجبنة التركية في الإسكندرية، على الرغم أن القبارصة اليونانيين هم من جاؤوا بهذا الاختراع إلى مصر قديمًا، ربما لأنهم كانوا جزءًا مما كان يعرف بدولة الترك العثمانية، التي سقطت وانهارت وانحلت وضاعت في الصحراء هي الأخرى.

مثلما ضاع أبوه وأمه وشقيقه.

ومثلما أوشكت روح لوسين المسكينة على الضياع.

- يارب متفجعنيش فيها يارب، وأنا هصليلك العمر كله، وهبني لك كنيسة مشفتهاش المحروسة، بس متفجعنيش فيها.

همس بالكلمات والدموع تتكاثف على أطراف عينيه، ثم ابتسم متذكرًا كلمات أبيه الأرمنية الغليظة عندما كان طفلًا في العاشرة.

- أيها الرب الرحيم، إذا نجحت في المدرسة فسوف أصلي لك طوال عمري.

فيزمجر أبوه بصوته الغليظ، ويفرغ البلغم المتجمع في حلقه في منديله الضخم:

- هل تشترط على الرب يا ولد؟ الرب يصلى له في كل وقت، وإذا تكرَّم واستجاب شكرناه وإذا لم يستجب شكرناه، هو فقط من يعرف أين الخير وأين الشر.

ـ ولماذا لا يمنحنا نفس المعرفة؟

ـ لأن عقولنا قاصرة وصغيرة ومحدودة، سوف أحكي لك قصة.

ثم تناول القليل من حبات النشوق، استنشقها وسعل مرة أو مرتين متتابعًا.

ـ في أحد الأيام، خرج ملك إلى الصيد مع وزيره المقرب، وعندما حاول اصطياد أحد الغزلان، جرح إصبعه جرحًا بالغًا، حتى أنه اضطر لقطع إصبعه، فقال له الوزير «ربما كان الخير في ذلك» فغضب الملك غضبًا شديدًا وأمر بحبس الوزير، فراح الوزير يردد جملته وهم يقتادونه إلى الحبس «ربما كان الخير في ذلك».

ـ ياله من رجل غبي، ربما لو صمت لكان أفضل له.

ـ الغبي هو من يقفز إلى الاستنتاج دون أن يسمع القصة كاملة

احمرت أذناه خجلًا، بينما سرحت عينا العجوز الرماديتان ـ كعادته عندما يحكي القصص ـ وتابع:

ـ وبعد سنوات، خرج الملك من جديد للصيد، لكنه كان الفريسة في هذه المرة، اصطاده قوم من عباد النار، وقرروا تقديمه كقربان لمعبوداتهم، لكنهم عندما فحصوه ووجدوا أن إصبعه مقطوع، أطلقوا سراحه، لأن قربانهم لا بد أن يكون صحيح الجسد، وعندما عاد الملك إلى قصره، أمر حراسه باطلاق سراح الوزير، واعتذر له وأمر له بقصر كبير، ثم سأله «لماذا كنت تقول هذه الجملة عندما قطعوا إصبعي وعندما وضعتك في السجن؟» فابتسم الوزير وقال «لو لم تقطع إصبعك لكنت في النار الآن قربانًا يحترق، ولو لم أوضع في السجن، لكانوا أخذوني بدلًا منك قربانًا» هل فهمت الآن يا ابن مرال؟

ابتسم الصغير وأومأ برأسه، فربت عليها العجوز ثم أشار له أن يذهب.

- مساء الخير بابا.

قطع الصوت الصغير، الذي بدأت ملامح حنجرة المراهقة تظهر عليه، تأملات يعقوب، فرفع عينيه نحو الصبي الوسيم، الملطخة ثيابه بآثار التراب و الطين.

- مساء الخير يا ابن أبيك.

تبرم الصبي ونظر في وجه أبيه متحديًا.

- إنت بتتكلم اللغة الصعبة دي ليه، أنا عايز أتكلم عربي.

فنظر يعقوب شذرًا في وجه طفله، وزام وهو يضغط على حروفه الأرمنية الشبيهة بطلقات المدافع.

- لأنها ستظل لغة أبيك وجدك وأجدادك، ولغتك ولغة أحفادك من بعدك، مهما طال بنا الزمن يا فتى.

أشاح الصغير بيده، ثم ألقى بحقيبته القماشية على الأرض، وقفز يتراقص حتى وصل إلى ما خلف ثلاجة الجبن، ثم تعالى صراخ صبري العجوز:

- يا ابني حرام عليك أنا مبقتش قدك.

- يا راجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز.

- طب والعدرا الشريفة مانا عاتقك يا ابن يعقوب.

تتصاعد ضحكات الصبي الشقية وهو يتقافز حول صبري، بينما

تسع ابتسامة يعقوب وهو يراقب تلك المعركة غير المتكافئة بين صبري العجوز ذي الستين عامًا وبين الصغير الذي يتأرجح بين مرعى الطفولة وبين بوابة المراهقة.

رن الهاتف الأسود المزعج فوق المكتب، فانتفض جسد يعقوب، وراح ينظر إلى الكيان المعدني الأسود الجاثم فوق المكتب كما يجثم الدب فوق فريسته، ثم تناول السماعة بيد مترددة.

ـ ألو.

ـ الحقنا يا سي يعقوب أفندي، الست هانم ، الست هانم.

صراخ أم بدوي، المرأة الطيبة التي تساعد زوجته منذ بدأ المرض يأكل عظامها، تصرخ طالبة العون.

ـ مالها الست هانم يا ولية ما تنطقي؟

ـ الست هانم تعيش انت، تعيش انت يا سيدي.

غامت الدنيا في عيني يعقوب، وانفلتت دموعه الغزيرة تسيل على وجهه، وألقى بنظارته فوق سطح المكتب وهو يدفن وجهه في قلب كفيه.

صوت صراخ وولولة أم بدوي لا زال يدوي من سماعة الهاتف الساقطة، وصوت صبري وهو يعنف الصغير أصبح بعيدًا كأنه يأتي من عالم آخر.

ويعقوب يهمس جازًا على أسنانه:

ـ كان بينا اتفاق وانت اللي خلفته، كان بينا اتفاق وانت اللي خلفته.

* * *

٨

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الواحدة وخمس دقائق صباحًا

ثلاث دقائق مرت منذ أن خرج رافي بصحبة خاله العجوز إلى خارج المطعم، إلى الشارع الذي تنيره أضواء مصابيح خافتة.

ربما مرت كثوانٍ على فوزي، أو كساعات على ميريت، أو كأيام على بهاء، أو ربما لم تمر ولم توجد من الأساس بالنسبة لعاصم أو بدير.

بهاء كان مقطب الجبين، منعقد الحاجبين، يبحث بين أروقة جوجل عن رقم هاتف يبدأ بـ (+٩٦١).

رقم ڤيرج، صديق رافي الذي ادعى أنه يعرفه منذ زمن، لدرجة أن يكون عضوًا في مجموعة محادثة يسميها رافي بمجموعة البيت للشخصيات الهامة.

نتائج البحث لم تضف جديدًا، الرقم مصدره من لبنان، وهذا ربما

يكون متوقعًا لرجل أرمني، لبنان تمتلئ بالأرمن وربما كان هذا الرجل فيما يوحي اسمه أرمني يعيش في لبنان.

ربما لو بحث بالاسم لكان الأمر أسهل.

بينما عاصم على طرف الطاولة، لا زال ساهمًا وعيناه لا تفارقان اللوحة، يطلب من الله - وهو لا يدري كيف يفعل ذلك بفم تفوح منه رائحة الكحول - ألا يكون مكروهًا قد أصاب ليلى، حتى يتمكن من إتمام الاتفاق، وإنقاذ نفسه من الفضيحة التي تدق أبوابه بعنف.

بدير أدرك - أخيرًا - أن عشر دقائق قد مرت، فنهض من مكانه وعدل وضع بنطاله وهو يتلفت يمنة ويسرة، وما إن التفت وهو ينوي التحرك ناحية الباب حتى وجد نارية ذات القوام الرفيع الرشيق - المسلوعة كما يصفها هو - تبتسم في وجهه بابتسامة واسعة صبوح.

- على فين يا مستر بدير؟

- هو رافي فين؟؟

- مستر رافي عنده ضيوف على الباب، هيتكلم معاهم كلمتين صغيرين ويرجع للترابيزة تاني، تحب أجيبلك نبيذ تاني؟

- آه نبيذ، فكرة كويسة.

ثم قادته برفق إلى مقعده، فسار معها غير متزن، عقله لم يكن يومًا من محبي الكحول ولو كان حتى على هيئة نبيذ ضعيف التأثير، كما أن يومه لم يكن باليوم القصير اليسير.

ميريت كانت تشتعل نارًا، في الواقع ميريت كانت وقتها المصدر الأول للنار في هذا الكوكب.

لا بد من حل لكل هذا، هكذا قالت لنفسها، لا بد من إنهاء هذه المأساة، هي تحب رافي كشيشيان، بل على الأصح، تذوب في كل تفصيلة تتعلق به، تعشقه إلى درجة الهيام، ربما لأنه لم يكن فظًا غليظًا، أو مهملًا أو كسولًا، أو بطيء الحركة معدوم الإحساس، أو حتى فظًا غليظًا في الفراش، ببساطة، هو ليس فوزي جميل، ليس زوجها الأبدي - كما قال الأب الذي أكمل الإكليل - وليس ابن عمها الذي خطبت له منذ أن كانت مراهقة في الرابعة عشر من عمرها، تجر وراء رأسها ضفيرتين ذهبيتين وعيناها الزرقاوان ترقصان تبخترًا بجمالها الذي يلهب حماس شباب شبرا، على مختلف دياناتهم وأعراقهم.

لا بد من حل لكل هذا، ربما كان الحل أن تطلق عليها رصاصتين، هكذا قال فوزي لنفسه، ولكن الرصاص مزعج ومدوٍ، يجلب الشرطة ويجلب معه حبل المشنقة أسرع من فهد الشيتا، ربما كان السم هو الحل، لكنه ليس خبيرًا في السموم حتى يعرف ما هو السم الذي لن يتم كشفه، وبالتالي سيقود شياطين الشرطة إليه، هو رأى من قبل كيف أن البحث الجنائي قد يصل إلى حل جريمة قتل بالسم تمت منذ خمس سنوات، وهو لا يريد أن تصير صورته عنوانًا لجريمة قتل جديدة في صفحة الحوادث.

خمس عشرة دقيقة مرت على خروج رافي، وبهاء سنجر لم يجد بعد أي نتيجة مرضية عند بحثه عن شخص يدعى ڤيرج!

نتائج عن تعلم اللغة الروسية، ونتائج مكتوبة بالفارسية ونتائج مكتوبة بالتركية المعربة.

ربما كان صحفيًا اسمه الثاني ڤيرج، وربما كان اسمًا مستعارًا لصحفي ما.

أما خارج المطعم، فكان رافي لا يواجه وقتًا لطيفًا طوال خمس عشرة دقيقة.

- مستحيل يا طارق باشا، مستحيل.

- يعني إيه مستحيل يا مستر رافي؟ بقول لحضرتك عايز آخد كلمتين من ضيوفك، إيه الصعب في كدة؟

نفث رافي دخان سيجاره الفاخر، في الواقع زفره زفرًا من كثرة ضجره.

- عشان أنا بقالي ربع ساعة بجاوب على أسئلة حضرتك، قولت لحضرتك بدل المرة مية، مدام ليلى كانت ضيفة على العشا عندي النهاردة، وخرجت من باب المطعم بعد ما جتلها مكالمة ضرورية، أي حاجة حصلت برة المطعم أنا معرفهاش، إنت سألت ڤيكن وقالك إنها كانت بتعدي الشارع جري وإن العربية السودا خبطتها وهربت.

- وطبعا طلبتولها الإسعاف فورًا.

- حضرتك مركز أهو والله، ده شيء جميل.

نبرة سخرية طغت على جملة رافي الأخيرة، فتصاعدت حدة لهجة طارق محاولًا أن يتجاهلها:

- طيب، أنا مصمم إني أدخل أتكلم مع ضيوفك اللي كانوا مع مدام ليلى على نفس الترابيزة.

- وأنا بقول لحضرتك مستحيل، وعشان أبرهن لك إنه مستحيل، حضرتك مش هتخش المطعم عندي غير بإذن نيابة، غير كده حضرتك مش هتخش المطعم أبدًا.

- نعم!!

كانت لهجة رافي تصاعدية كاسحة، حتى أن أمين الشرطة المصاحب لطارق اندهش وكأنه رأى فيلًا يركب دراجة، هو يعرف أن طارق أحمد ضابط تلقى تربية جيدة - ابن ناس كما يصفونه - ولكنه يعرف جيدًا أنه خدم في مكافحة الشغب قبل أن يطلب نقله للمباحث، وأنه قد ينسى تلك التربية في أية لحظة أمام كلمات كتلك.

- حضرتك سمعتني كويس يا طارق باشا، لو سمحت حضرتك أنا هخش جوة المطعم حالًا، وحضرتك مش هترجعلي تاني غير بإذن نيابة، يا إما أنا هعمل اتصالاتي، وحضرتك مش متخيل اتصالاتي ممكن توصل لفين.

لهجة (إنت ما تعرفش أنا مين) التي لا يكره طارق شيئًا مثلها، اللهجة التي لا يجيد هؤلاء الأوغاد شيئًا سواها.

- شرفت يا طارق باشا.

قالها رافي بابتسامة عريضة، ثم استدار متجها ناحية باب المطعم، وعندما وصل إلى ڤيكن المشغول بالعبث بهاتفه المحمول، ربت على كتفه وقال هامسًا بأرمنية سليمة من بين أسنانه اللامعة.

- ادخل إلى المطعم وأغلق الباب ولا تدع أحدًا يدخل.

أومأ ڤيكن برأسه نصف إيماءة دون أن يرفع عينيه من شاشة الهاتف، وما إن اقترب رافي من الباب، حتى اندفع أحدهم راكضًا من داخل المطعم، حتى الباب كاد أن يطيح برافي أرضًا.

ميريت تخرج من باب المطعم وهي تركض ناحية موقف السيارات الكبير المظلم، الأرض التي دفع رافي الكثير من الرشاوي حتى يجعلها

موقفًا لسيارات عملائه المميزين.

- مالك يا ميريت في إيه؟!

خرجت هذه من بين شفتي رافي الذي استند على ذراع ڤيكن الشاب، متفاديًا السقوط وإتلاف حلته الأنيقة، بينما واصلت ميريت ركضها نحو موقف السيارات المظلم، وطارق الذي وقف متسمرًا من المفاجأة يراقبها بعينيه وهي تختفي داخل الظلام.

بينما يعدل رافي من وضع ثيابه وعلامات الدهشة تكسو وجهه، حتى كاد يصدم للمرة الثانية بعد أن ضرب جسد فوزي الممتلئ الباب، وهو يخرج في إثر زوجته الراكضة.

- يا ميريت، استني هنا أنا مش قادر أجري.

ثم توقف وراح يعب الهواء لاهثًا، فاقترب منه رافي.

- في إيه يا فوزي؟

- مش عارف يا رافي، جاتلها رسالة على الموبايل، فاستأذنت تخش الحمام، وبعدها بدقيقة بالضبط خرجت جري زي مانت شايف وخدت في وشها، خبطت شانت الغلبان ووقعته على ظهره وخرجت من الباب.

- وكانت هتوقعني أنا كمان، أوعى تكون زعلتها مانا عارفك.

- وحياتك يا رافي ولا كلمتها أصلًا، ده أنا......

ثم قطعت عبارته صرخة مدوية أتت من ناحية الموقف المظلم.

صرخة نفضت طارق من مكانه، فأنطلق يعدو ناحية الموقف تاركًا مخبريه وأمين الشرطة متسمرين في أماكنهم خوفًا من دوي الصرخة، بينما تسمر فوزي مذهولًا، وفكه السفلي يتدلى من أثر المفاجأة.

- ده صوت ميريت.

قالها وعيناه تتسعان من خلف نظارته، بينما تقدم ڤيكن مسرعًا ناحية موقف السيارات، ورافي يمسك بذراع فوزي.

- سيبني يا رافي عايز أفهم في إيه.

- إهدى يا فوزي، ڤيكي هناك مع الضابط وهنفهم في إيه.

خمس دقائق كاملة مرت، قبل أن يعود طارق شاهرًا طبنجته الميري وڤيكن يحمل في يده عصاه الخشبية الضخمة.

- ميريت فين؟ مجتش معاكم ليه؟

- حضرتك تقرب للهانم ؟

- أنا جوزها يا حضرة الضابط، هي حصلها حاجة، هي كويسة.

أعاد طارق طبنجته إلى خلف بنطاله الجينز، ثم أشار بكفي يده ناحية المطعم، كأنه يدعو الجميع إلى الدخول، أو فلنقل لكي يأمر الجميع بالدخول.

- فين ميريت يا حضرة الضابط، فين ميريت يا رافي.

- معلش يا فندم أنا متأسف، بس أنا محتاج أتكلم معاك شوية.

- فين ميريت؟ لما أعرف الأول فين ميريت.

زفر طارق حانقًا من الرجل البالغ الذي يتصرف كفتاة في الخامسة عشر تركتها أمها في الطريق العام، واقترب من وجه فوزي متابعًا.

- المدام مش موجودة في الباركينج، اختفت، مش فاضل غير دي.

ثم رفع يده التي تحمل حقيبة جلدية صغيرة، مرصعة بحجر غير

أصلي في وسطها، تتدلى من سلسلة فضية.

- ميريت، دي شنطة ميريت.

- أعتقد إننا لازم نتكلم جوة شوية، ده بعد إذن مستر رافي طبعًا.

قالها وعيناه تنظران في تحدٍ في عيني رافي، معلنة عن صدام جديد تهب رياحه على المكان.

وفي هذه المرة، وعلى عكس توقعات طارق الذي هيأ نفسه لذاك الصدام المتوقع، والذي سيذهب فيه إلى آخر الطريق حتى ولو اتصل رافي بوزير الداخلية نفسه، ربت رافي على كتف فوزي المذهول، ثم سحبه من ذراعه وهو يردد نفس الكلمات سائلًا عن زوجته الصارخة المختفية.

بينما ڤيكن يتبع الجمع ناحية المطعم.

وهذه المرة جاء الأمر بالعربية المصرية من فم طارق.

- من فضلك اقفل الباب، ومتخليش حد لا يدخل ولا يخرج.

وما إن دخل الجمع الغريب إلى الداخل، حتى قابلهم بهاء سنجر عاقدًا حاجبيه وهو يحمل نظارته بيده اليسرى ويده اليمنى تحول شاشة الهاتف في وجه رافي وفوزي.

- رافي، في خبر غريب هنا مشيره الأخ ڤيرج صديقك، بيقول اختفاء مهندسة ديكور شهيرة من أمام مطعم البيت في المعادي، مين اللي اختفى يا رافي، ومين دول، في إيه يا رافي؟!!

* * *

٩

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الواحدة وخمس وخمسون دقيقة صباحًا.

- يا باشا بقول لحضرتك فص ملح وداب.

- معاك يا طارق كمل.

مدد توفيق ساقيه فوق الأريكة المريحة، وعيناه لا تفارقان شاشة التلفاز، التي تذيع فيلمًا لإسماعيل ياسين، وابنته البكر زينة ذات العشر سنوات تريح رأسها المزين بضفرتين قصيرتين فوق فخذ أمها داليا، الجالسة فوق الأريكة الأخرى.

مد توفيق يده إلى طبق مليء باللب السوبر الطازج، ورفع حفنة إلى فمه راح يلوكها وهو يستمع إلى كلمات طارق.

- باشا انت معايا.

- آه طبعًا يا طارق معاك، كَمِّل كَمِّل.

- أنا خلصت كلام يا باشا، وأنا شايف إن حضرتك لازم تنزل.

- أنزل فين يا طارق إنت اتجننت.

ثم ألقى بفوارغ اللب في طبق بلاستيكي فارغ وعيناه لا تفارقان شاشة التلفاز.

- تنزل هنا يا باشا، إحنا عندنا حادثة عربية وحادثة اختفاء، يعني دلوقتي بقى الموضوع خطير ومش مجرد توصية من اللوا فلان أو اللوا علان.

- ناوليني المية يا ماما لو سمحتي، جرى إيه يا طارق، هو إحنا مش متفقين.

تنبهت داليا من نصف الغفوة التي ألمت بها أمام شاشة التلفاز، ثم تناولت زجاجة الماء وصبت منها كاسًا وضعته أمام توفيق، فتناول منها الزجاجة وجرع منها جرعة كبيرة أسقط منها نصف الكمية تقريبا فوق منامته القطنية، بينما طارق يحاول إقناعه بخطورة الوضع الحالي وضرورة تدخله.

كان يستمع لطارق بنصف أذن ونصف عقل وبلا اهتمام تقريبًا، سيادة اللواء اتصل به طالبًا أن يتابع حالة ليلى حسني عن قرب، والحالة انتهت بدخول ليلى للمستشفى وبعض الأقوال التي جمعها طارق وبعض التحريات التي سيقوم بها بعض الضباط والأمناء يوم السبت، ثم تؤخذ أقوال الهانم الممثلة في مخدعها بالمستشفى، ويغلق المحضر بأي طريقة كانت.

- الموضوع مش سهل كدة يا باشا، ثم إن رافي ده راجل مريب جدًا، ده كان رافض دخولي للمطعم نهائي، ولولا الست اللي خرجت تصوت بعد ما جتلها رساله موبايل دي وبعد ما الخبر.....

ثم قطع صوته فجأة، و بقى لربع دقيقة يصغي لأصوات مختلطة من غطيط داليا وصوت طرقعة حبات اللب في فمه، وصوت ضحكة إسماعيل ياسين البلهاء الخافت وكأنه يشكل خلفية للحالة البلهاء الكسول التي يعيش داخلها.

- طارق، إنت رحت فين؟

لم يجبه طارق، بل أجابته أصوات خلاف مرتفعة، وصرخات مختلطة بين رجال ونساء، ثم صوت باب يفتح عنوة.

- أنا مش فاهم إيه اللي حصل يا باشا، بس الراجل اللي اسمه عاصم ده.

- عاصم مين؟

- عاصم خورشيد، بعد ما دخل الحمام خرج بيتطوح و هو بيقول كلام ملخبط، ولما وقف حد من اصطاف المطعم قدامه ضربه بالبوكس وزق الباب برجله وخرج.

- حلو أوي الأكشن ده، وانت واقف عندك بتعمل إيه؟

صمت صوت طارق، وعاد صوت غطيط داليا يرتفع، ذقنها تلامس صدرها وخيط لعاب بدأ يتسرب من طرف فمها المفتوح.

- هكلمك تاني يا باشا ، استنى عندك ، استنى عندك.

ثم اخترق أذن توفيق صوت بدا كصوت إطلاق نار، وصرخات

طارق التي بدأت تختفي وتبتعد.

ثم انقطعت المكالمة

ومعها، بصق توفيق حبات اللب في الطبق البلاستيكي، وانقطعت حالة السلام النفسي التي يعيشها فوق الأريكة، وارتفعت صوت ضحكة إسماعيل ياسين في خلفية كل هذه الأصوات، غطيط وضحكة وغطيط وصوت السيفون يأتي من الحمام، يتبعه محمود، ابن توفيق الأصغر.

- إنت قاعد كدة ليه يا بابا؟

- أنا، لا مفيش حاجة يا حبيبي، خش نام انت.

- وماما فين؟

رفع توفيق عينيه من على الهاتف، وحدق في وجه داليا، التي انتفضت على صوت نداءات صغيرها.

لم ينكر يومًا أنه يحب زوجته، ولم يعترف يومًا بأنه يحبها كذلك، كانت هي دائمًا أول امرأة عرفها في حياته، منذ تخرجه من كلية الشرطة وهو لا يهمه سوى عمله، لازمه خجله وقلة حيلته حتى بعد أن صار ضابط شرطة ناجحًا، لم يقدر يومًا على أن يتحدث لفتاة أو سيدة أو حتى صبية صغيرة.

لكن داليا هي من عرفته، هي من بدأت الحوار ذلك اليوم وهي تتطلع في وجهه، هي من سألته عن اسمه وعمله وماذا يفعل، وهو لم يسألها عن أي شيء، فقط سأل خالته عنها وعن أهلها، وبعد خمسة شهور كانت زوجته.

اهتزاز الهاتف المحمول قطع حبل أفكاره، فرفع الهاتف نحو أذنه.

- إيه يا طارق.. هو اللي أنا سمعته ده بجد؟

صوت لهاث طارق يكاد يصم أذنه، ويرفع من إفرازات الأدرينالين في جسده التي بدأت ترتفع منذ سماعه لصوت الرصاص.

- يا باشا حضرتك لازم تنزل فعلًا.

- إنت مبتجاوبش سؤالي ليه؟

ارتفعت نبرات صوته، واعتدل في جلسته وهو يعتصر الهاتف.

- عاصم خورشيد يا باشا، اتضرب بالنار قدام باب المطعم.

- مصدر الطلقة منين يا طارق؟

- عربية سودا متفيمة معدية من قدام المطعم بسرعة، ده حسب كلام الشاب اللي واقف على الباب.

- وانت كنت نايم يا طارق، كنت فين إنت وهم بيضربوه بالرصاص، كنت فين يا بيه؟

ثم التفت نحو زوجته وأطفاله، داليا تنظر له بنظرات ما بين الاستنكار و الفزع، بينما محمود ولده ينظر ناحية التلفاز وعلى وجهه تعابير النعاس، بينما زينة تغط في النوم في حضن أمها.

صمت توفيق، وانعقد حاجباه وضاقت عيناه بين دهون وجهه، بينما صوت طارق يأتيه من بعيد.

يأتيه كصرخات إسماعيل ياسين الكوميدية وهي تأتي من سماعات التلفاز.

- طارق اتصل بالإسعاف فورًا، و اثبت عندك، أنا نازلك.

* * *

١٠

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥ .. الثانية صباحًا

عندما تذهب إلى ثلاجتك ليلًا، تتضور جوعًا وعيناك زائغتان تبحثان عن شيء يسد رمقك، وتفتح الثلاجة لتجد طبقًا من الملوخية قابع هناك بجوار طبق من المحشي المتبقي من طبخة الأيام الماضية، فتلمع عيناك ممنيًا نفسك بوجبة دسمة أمام فيلم مسلي، وبعد القيام من مكانك وتقوم بتدفئة طعامك وتضعه أمامك على الطاولة، وما إن تشرع في الأكل حتى تجد صرصورًا قميئًا يأتي من مكان ما فيمرح فوق طبق المحشي، وذبابة سخيفة تقرر أن تنتحر داخل طبق الملوخية.

هذا تقريبًا ما حدث للجالسين على الطاولة الخشبية المستطيلة في مطعم البيت، أو فلنقل، للمتبقين منهم.

رافي، بعد أن حل وثاق ربطة عنقه الأنيقة، يجلس على رأس الطاولة

يدخن سيجارة السميك، بينما الثلاثي المتبقي تعلو وجوههم علامات التوتر والضيق.

لقد أفسد الصرصور والذبابة سهرتهم المرتقبة، وأفسد شهيتهم في تناول أي من تلك الأصناف الموضوعة أمامهم على الطاولة، تفوح منها رائحة عطرة تفتح شهية أشد الكارهين للطعام.

- إيه يا جماعة مبتاكلوش ليه؟

- ومين له نفس للوكل يا رافي؟

بصقها بدير من بين شفتيه، ثم رفع كأس النبيذ إلى فمه وجرعه بصوت مرتفع مقزز، تقوست له عضلات وجه بهاء، بينما فوزي مسندًا رأسه إلى قبضة يده وعيناه تحلقان بعيدًا من خلف نظارته الطبية المستديرة عديمة الإطار.

- تفتكر إيه اللي ممكن يكون حصل لميريت؟

- معنديش أي فكرة يا صديقي، كل اللي أعرفه دلوقتي إني جعان جدًا، وإني محتاج آكل وأكل كتير كمان، بس لأنكم ضيوفي، فانا مش قادر أقرب للأطباق.

رفع فوزي عينيه نحو رافي، تملأهما الدهشة، بينما أطفأ بهاء سنجر سيجاره الرفيع، ومد يده بشوكة الطعام يتناول قطعة من اللحم ويضعها في الطبق أمامه.

- إتفضل يا رافي، آدي ضيوفك أخدوا من الأطباق، كُل انت لو حابب.

- مالك يا بهاء، أنا شايفك متوتر جدًا يا صديقي.

- متوتر.

قالها بهاء وعيناه تطلقان الشرر في وجه الأرمني الوسيم.

- أنا معدتي اتحولت لمصنع حمضيات، لو نزلت فيها حاجة دلوقتي مش بعيد المصنع ده يحرق جسمي بللي فيه.

ثم عاد بظهره إلى الوراء، ونظر في وجوه الجالسين، عدم فهم لا يشوبه شائبة من نباهة على وجه بدير، ونظرة فوزي السارحة غير المنتبهة، بينما ابتسامة هادئة على وجه رافي.

- تسمع عن الـ drowning child paradox؟

ابتسم بهاء في خفوت، وأطرق برأسه بينما التفت بدير ناحية رافي بعينين نصف نائمتين، وألقم شفتيه بسيجارة سوبر، قائلًا وهو يحاول إشعالها.

- ودي تطلع إيه دي كمان؟

- أنا هقولك يا صديقي، تخيل انت رايح شغلك الصبح في يوم، ومعدي من جنب بحيرة أو بركة مية.

- هو لسه في برك مية في المعادي؟

صمت رافي وعلى وجهه تعبير غاضب مكتوم، وكأنما منعه أدبه مع ضيوفه من لطم وجه بدير، بينما اتسعت ابتسامة بهاء.

- بدير يا صديقي بقولك تخيل.

- آه أتخيل، إذا كان كدة كمل الدورنجن بارموكس اللي كنت بتحكي عنها دي.

- تخيل إنك رايح شغلك الصبح، وعديت من جنب بركة مية، وكان في ولد صغير بيغرق، إنت سهل جدًا تنقذه، لو بس خطيت خطوتين جوة المية ومديت إيدك أنقذته، بس لو عملت كدة، هدومك هتغرق وهتتوسخ، وتتأخر عن اجتماع مهم جدًا واحتمال تفقد وظيفتك بسببه، يا ترى تعمل إيه لو ده حصل؟

نفث بدير سحابة دخان تليق بمحترف سجائر سوبر، ثم قال وهو يلقي بالرماد داخل المنفضة:

- ربنا يتولاه برحمته بقى.

تعالت الضحكات الساخرة متعددة الدرجات بين مكتومة عميقة من بهاء، وعالية مجلجلة من رافي، بينما نظر فوزي ناحية رافي.

- بس أنا مش هعرف أعمل كده يا رافي.

- تعمل إيه يا صديقي العزيز.

- مش هعرف آكل وأكمل سهرتي عادي وأنا مش عارف ميريت فين ولا حصلها إيه، مش هعرف أشيل الالتزام الأخلاقي من جوايا عشان بس أكمل السهرة اللطيفة، ثم إن السهرة دي لو انتهت دلوقتي وكل واحد فينا روح بيته مش هنخسر أي حاجة.

- تفتكر؟

قالها رافي بهدوء، هدوء رن مئات الأجراس في رأس فوزي، هدوء ضرب رأس فوزي بمطرقة حجرية حولته إلى عجين، ومن بين طبقات العجين، عادت تلك الذكرى إلى رأس فوزي.

يومها، كان جالسًا في مكتب رافي على مقعد جلدي وثير، يعادل

ثمنه ثمن سيارة فوزي العجوز يوم أن اشتراها من عشر سنوات، بينما رافي يجلس أمامه في ثياب بسيطة عصرية، واضعًا ساقًا فوق ساق وسيجاره الفخم يتدلى من طرف فمه.

- مش قادر يا رافي، خلاص فعلًا مش قادر، أنا عندي مليون سبب وسبب يخلوني دلوقتي أجيب سكينة وافتح بطنها واروح فيها السجن.

- إهدا يا صديقي إهدا، تشرب حاجة.

أشاح فوزي بيده بينما ضرب رافي زرًا ما فوق مكتبه لتأتي فتاة حسناء مرتديةً ثيابًا عصرية أنيقة.

- هاتيلي اسبريسو من فضلك، وهاتي لمستر فوزي قهوة مضبوطة دوبل، ومتحوليش أي مكالمات على مكتبي.

أومأت برأسها وانصرفت تدق الأرض بكعبيها الرفيعين.

- أنا زهقت يا رافي و مش شايف أي حل.

- بص يا فوزي، إنت عارف إن انت صديقي من زمان، ويمكن قبل ما اعرف ميريت ويبقى في بينا وبين بعض شغل، ميريت إنسانة راقية جدًا وذوق، صحيح هي متسلطة شوية وعصبية شوية، بس دي حاجات ممكن علاجها مع الوقت والتفاهم.

- رافي، أرجوك سيبك من محاضرات العلاقات الزوجية دي، في حاجات كتير بتحصل بين الراجل ومراته الناس مبيعرفوش يفهموها وممكن تحول الحياة بينهم لجحيم.

مال رافي ناحية فوزي وقال في هدوء:

- تقصد في السرير.

ضحكة مكتومة خرجت من بين شفتي فوزي تحولت إلى ضحكة صاخبة دمعت معها عيناه، بينما تعبير مستنكر مرتسم على وجه رافي.

- الله يحظك يا صديقي، والله ضحكتني وأنا مش ناوي.

- إيه اللي في كلامي بيضحك يا باشمهندس؟!!

- أنا مقابلتش ميريت في السرير من سنة تقريبًا، سنة محاولناش حتى نقرب فيها من بعض واحنا قاعدين ع الكنبة حتى.

طقطق رافي بشفتيه، فيما يشبه الحسرة ربما أو الشفقة أو ربما لو نظر لملامح وجهه قليلًا لرأى تعبيرًا بالسخرية ينبت في عيني رافي.

- طب انت شايف الحل إيه؟ بعيد عن القتل والدبح وشغل القرون الوسطى ده.

- مش عارف، مش عارف.

جاءت الفتاة الحسناء بالقهوة ووضعتها أمامهم، بينما عينا فوزي تراقبها وتراقب مشيتها الشبيهة بعارضات الأزياء.

- حلوة سكرتيرتك أوي يا رافي.

- إنت في إيه ولا في إيه يا فوزي؟

ثم ضحك مقهقهًا، بينما رفع فوزي قدح القهوة إلى شفتيه، وما إن رشف فوزي رشفة من القهوة حتى سمع صوت رافي:

- من شهرين تلاتة كدة كنت في السينما مع بنت أختي، كنا بنشوف فيلم أجنبي لطيف أوي اسمه Gone Girl، إيه رأيك تتفرج عليه النهاردة،

- يا رافي بقولك أنا وميريت على وشك نموت بعض، تقولي اتفرج عل فيلم.

- إسمع كلامي، اتفرج بس على الفيلم.

صوت عالٍ أجش، يصدر من حنجرة تقبع خلف طبقتين من الشحوم مما يسمونه اللغد - قطع حبل ذكريات فوزي، ثم اقتحم الصورة رجل بدين متوسط القامة، انحسر شعره من مقدمة رأسه واختفت نصف عينيه خلف خده البدين.

- مساء الخير جميعًا، متأسف لو كنت اقتحمت سهرتكم من غير دعوة.

نهض رافي والتفت إلى الشخص الذي يقف خلف مقعده.

- أنا رافي كشيشيان، صاحب ومدير ال...

- غني عن التعريف يا فندم، ارتاح حضرتك ارتاح.

ثم مشى بجسده بخطوات ثقيلة فوق الأرض، متجهًا نحو ذلك المقعد المقلوب، أسفل اللوحة، وعدل من وضع المقعد جالسًا وهو يخرج من جيب سترته علبة سجائر ذات فلتر أحمر، وقداحة فرنسية شهيرة مما يباع في محطات البنزين، وأشعل سيجارة تحت نظرات رافي المستنكرة، ونظرات بقية الضيوف المندهشة من وجود ذلك الشخص مرتفع الأدرينالين.

- متعرفتش بحضرتك؟

- أنا المقدم توفيق إسماعيل، معاون المباحث، وحضرتك رافي

كشيشيان صاحب المطعم، واللي ورا حضرتك ده النقيب طارق أحمد ضابط المباحث، ودول ضيوفك الأعزاء واللي واقفين ورا دول وجوة المطبخ بقية عيلتك اللي بيشتغلوا معاك هنا، أظن كدة خلصنا تعارف، ياللا بقى نشوف شغلنا عشان كل واحد يروح بيته قبل النهار ما يطلع.

ثم أشار لطارق بيده، فتحرك ناحية باب المطعم ووضع مقعدًا خشبيًا صغيرًا أمام الباب، جلس فوقه باب آخر له شارب كث ويرتدي سترة شتوية ضخمة.

أشار رافي نحو الجالس أمام الباب وهو يلتفت ناحية توفيق:

ـ حضرتك بتحبسني في مطعمي.

ـ الله ينور عليك، مش محتاجة نباهة يعني.

ـ حضرتك معاك إذن نيابة؟

ـ لا طبعًا معييش.

الابتسامة الساخرة العريضة لا تفارق وجه توفيق، بينما الاستنكار والسخط على وجه رافي يتصاعد طرديًا مع اتساع ابتسامة توفيق، حتى أخرج رافي هاتفه من جيبه وهو يبحث عن رقم ما.

ـ ما تتعبش نفسك يا مستر رافي، وزير الداخلية لسه قافل معايا وبيسلم عليك جدًا، وبيقولك هو داخل ينام وهيقفل تليفونه، أما بقى المحامي العام فبيقضي إجازة شم النسيم في الغردقة وزمانه قاعد على البحر، أما لو كنت هتطلب حد من رياسة الجمهورية، فالريس في السعودية، ثم إن في قانون طوارئ وقانون إرهاب وفي قوانين كتير أوي تخليني أحتجزكم لو اشتبهت فيكم، ما تقوله يا أستاذ بدير.

ـ هو الريس فالسعودية فعلًا أنا قريت ده في الجرنان الصبح.

قالها بدير في هدوء وهو يشرب من كأس نبيذ جديد لا يعرف من ملأه له، وهو يسحب أنفاسا عميقة من سيجارته السوبر.

ـ ما تقول حاجة يا متر.

ـ متتعبش نفسك يا رافي، في حاجات كتير ممكن تتقال بس يوم الأحد الصبح واحنا في مكتب النائب العام، لكن دلوقتي مفيش حاجة تتقال.

هز بهاء رأسه موافقًا، بينما فوزي يخلع نظارته ويعود برأسه إلى ظهر المقعد وهو ينظر في اتجاه توفيق.

بينما مال توفيق بجسده على الطاولة، وقال ضاغطًا على حروف كلماته

ـ ودلوقتي بعد ما اتفقنا على كل حاجة، ياريت نفضي ترابيزة حلوة كده الناحية التانية، ونحط قدامها كرسين بس، عشان عايز اتكلم كلمتين مع كل واحد من الموجودين على انفراد، متفقين..

ثم راح يبحث عن منفضة يلقي فيها ببواقي سيجارته المنتهية، وهو يحرك يده بالسيجارة باحثًا، فناوله فوزي منفضة السجائر النائمة على الطاولة بلا أعقاب منذ أن رحلت ميريت، حتى أنه ميّز آخر عقب سيجارة دخنتها قبل أن تدخل الحمام وتختفي، ملطخًا بصبغة شفتيها الوردية.

أطفأ توفيق سيجارته، بينما ارتفع صوت طارق من طرف المطعم الآخر:

ـ جاهزين يا توفيق باشا.

نهض توفيق حاملًا سجائره وهاتفه المحمول، ومرَّ على رافي في طريقه، الذي لا زال واقفًا على رأس المائدة.

- ممكن استأذنك في حاجة؟

- أكيد طبعًا إنت ضيفي يا حضرة الضابط.

قالها رافي بهدوء مستفز ساخر، هدوء لم يستفز توفيق بل زاد نبرة صوته سخرية:

- ممكن قهوة ع الريحة، بس ياريت في كوباية عشان مبعرفش اشربها في فنجانين، كوباية اللي هي الصغيرة دي، الكستبانة، تعرف الكستبانة يا مستر رافي؟

اتسعت ابتسامة رافي وهو يومئ برأسه، ثم رفع صوته مخاطبًا إخوته القابعين يراقبون خلف رخامة المطبخ قائلا بالأرمنية:

- احضروا القهوة للثور البدين.

إلا أن لفظة (شارب تسول) أو الثور البدين في نهاية جملته لفتت انتباه توفيق فقال وعلى وجهه علامات جادة:

- شارب تسول دي يعني عالريحة صح؟

- أكيد.

قالها رافي مبتسما، بينما توفيق يشير ناحية شانت العجوز الواقف بجوار الباب

- يبقى الظاهر الريحة مش حلوة، عشان الأخ الفاضل اللي هناك ده ضحك أوي يعني.

- لا هو شانت بيحب الضحك شوية حتى في المواقف البايخة.

- برافو، يبقى يحصلني على الترابيزة هناك عشان هستفتح بيه كدة، واهو بالمرة نضحك شوية عشان نحسن المود.

ثم مشى ناحية الطاولة القصية، بينما جلس رافي فوق مقعده وهو يشعل سيجاره الفاخر، وعيناه تحدقان في اللوحة من خلف سحب الدخان.

والمقعد المقلوب لا يزال معتدلًا بزاوية مائلة متأثرًا بحركة توفيق المفاجاة في النهوض من عليه، فنهض رافي في هدوء وتحت نظرات المتبقين من ضيوفه، نهض من مكانه وأمسك المقعد ووضعه في مكانه القديم أمام الطاولة.

في نفس الوضع المقلوب، ولوحة العشاء الأخير فوقه مباشرة.

* * *

• د •

القاهرة

الثلاثون من أكتوبر ١٩٧٣ .. الثامنة والنصف مساءً

تتراقص سني العمر نحو الستين

مثلما تتراقص الأضواء في الشارع الكبير، أضواء تكسو كل المحلات، أضواء تغرق وجهه وتنعكس على عينيه الخضروان اللتين كستهما السنوات بلون رمادي، وغيب الحزن على لوسين أحدهما بالماء الأبيض.

لماذا يسمونه الماء الأبيض؟ كان يظن أن الأبيض لون خير، لون جميل، سحاب أبيض، ثلج أبيض، زهر أبيض.

بشرة بيضاء نقية مثل تلك الملاك منتفخ البطن الذي يعيش معه الآن تحت سقف واحد.

يذكر يوم أن رأى زاغي!، أو زهرة كما يسميها أقرانها في شوارع الحلمية.

زهرة هي أول نتاج التزاوج المثالي بين رجل أرمني حازم، وسيم الطلعة، يتحدث ثلاث لغات بطلاقة تحدثه للأرمنية والعربية، وبين امرأة مصرية كانت رائدة من رائدات الحركة النسوية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى.

تقابلا، تحابا، هاما في عشق بعضهما البعض.

تزوجا، وأنجبا تلك الملاك الأبيض الجميل، ثم رحل الأب الى عالم الأرواح، وبقيت الأم.

كبرت الزهرة الجميلة، وترعرعت، وأثمرت، وتزوجت، ثم ذبلت وتطلقت وعادت إلى بيت أمها.

ووصمت طوال حياتها بالأرض البور التي لا تنتج ثمارًا، هي فقط زهرة جميلة، لكنها لا تنتج حبوب لقاح يمكنها أن تتلقف حبوب لقاح أخرى لتنتج زهرات أخرى.

يوم أن قابلها، كانت تبتاع الجبن والسمن من بقالته الجديدة الفخمة في شارع بورسعيد، وفي يدها كيس ورقي جميل به أرغفة من الخبز الإفرنجي الطازج.

نهض من خلف مكتبه، وعينه السليمة تتسع من فرط ما يراه من جمال، صوت لوسين الحنونة يدوي في أذنه.

- هذه هي يا يعقوب، هذه من ستكون رفيقة لك في أيامك الأخيرة، قبل أن تعود لي في الملكوت.

فيهمس هو مخاطبًا الروح الجميلة التي يشعر بها طول الوقت:

ـ لا يوجد ملكوت يا امرأة، هذا ما تحدثنا فيه مرات ومرات، لا شيء سوى العدم، وإن كنت سأذهب للعدم، فربما كانت هذه من ستسلي وحدتي من بعدك.

يقترب في هدوء من المرأة الجميلة، رائحة الخبز الطازج تغزو أنفه، ورائحة عطر ياسمين غريب تأتي من لا مكان.

ـ هات للهانم من الصفيحة الجديدة يا جمعة، ونقيلها حاجة كويسة لو سمحت.

ـ أمرك يا أستاذ يعقوب.

التفتت الجميلة إلى يعقوب، فطار صوابه، عينان عسليتان صافيتان، وعطر ياسمين يفوح من كل سنتيمتر مربع منها.

ـ شكرًا يا مسيو يعقوب.

ـ تحت أمرك يا هانم، شرفتينا.

لم يلقبه أحد بمسيو من قبل، بل لم يسمع مسيو تنطق بهذه الروعة، هو يحب اللغة الفرنسية، لكن فرنسيته وفرنسية ابنه المراهق أشبه بأرمنية أبيه الخشنة، طلقات رصاص من مسدس صدئ.

بحث عنها، وكثف البحث، ثم خطبها، وتزوجها، وبعد شهور قليلة انتفخت بطنها، لتمشي فخورة في شوارع الحلمية، تنظر من عليائها إلى من وصموها بالبور، كأنه تقول لهم «كنت أنتظر فقط من يلقي بالبذرة الصحيحة».

جاءت بالفتاة الأولى، جميلة مثل أمها، حازمة مثل أبيها حتى وهي

بعد طفلة تلعب على الأرض بعرائسها البسيطة المصنوعة من القماش والمحشوة بالقش.

ثم جاءت بالفتاة الثانية، ملكة متوجة زاهية، شقراء خضراء العيون مثل جدتها الراحلة.

ثم انتفخت بطنها للمرة الثالثة، وانقشعت غيامات الأرض البور من فوق رأس الزهرة البيضاء الحانية، وتفجرت مياه الخير في طرق يعقوب، ازداد نشاطه واتسعت تجارته، وأصبح يملك عائلة كبيرة كما كان يحلم دائمًا.

أرتين، ننار، ماريان و الرابع قادم في الطريق.

وهي أوشكت على الولادة، وفي أيام فرح وسعادة.

فمنذ السادس من أكتوبر، ومصر كلها تحيا في فرح مستمر، فرح لا يعكره إلا سيارة الشرطة العسكرية التي تدخل الشارع من حين إلى آخر، لتسلم خطابًا رسميًا قبيحًا، ثم تسمع الزغاريد تصدح من نافذة منزل ما، فيعرف الجميع أن البيت به شهيد.

كان كلما تعجب من زغاريد الفرح بفقد الابن أو الأخ، تنظر له زاغيًا في حنان، وتمسح شعره الأشيب الناعم.

- أصلك متعرفش المصريين كويس يا حبيبي.

لم تتعلم الأرمنية ولم تجدها يومًا، مهما حاول أن يعلمها، إلا أنها بقيت تتحدثها كالأجانب، وتفضل لغة أمها وأجداد أمها.

- إحنا عدينا المرحلة دي من زمان يا حبيبتي، إنتي ناسية إن أرتي هناك على الجبهة، أنا مصري مولود في البلد دي ومعايا باسبورها.

- بس انت أرمني بالدم يا أبو أرتين.

- ولو.

- متغلبنيش معاك بقى، أحسن وربنا أولدلك دلوقتي ويقولوا إيه الولية اللي ولدت في التامن دي.

ابتسم مربتًا على بطنها المنتفخة وراح يتذكر شيئًا أضحكه ثم تابع:

- هتعمليلي زي البت مراة أرتي، ولدت عيل ابن سبعة رذل وبيعيط بصوت يجيب آخر الشارع، الواد عنده أربع سنين بحالهم وقرب يبقى طولي، ولسه بيعيط زي ما يكون ابن أربعين يوم، ده ابوه قبل ما يسلم نفسه جالي عينه منفخة وقالي أمانة عليك لو حصلي حاجة في الحرب متدفنوش الواد ده جنبي، أنا مش ناقص دوشة في تربتي كمان.

ثم ضحك مجلجلًا، بينما ابتسمت هي من جديد، ومسحت على بطنها وهي تنظر إلى صورة أبيها المعلقة بجوار صورة هاروت على حائط غرفة الجلوس.

- المصريين يا حبيبي عاطفيين وميالين ناحية الدين أوي، وبالنسبة ليهم قمة الهرم في الدين هي الشهادة، عشان كدة لما بيطلع منهم شهيد للسما، مسلم ولا مسيحي، بيفرحوا بيه كأنه لسه بيتولد من أول وجديد، فاهمني.

- عمري ما فهمت حد غيرك يا زهرتي.

احمرت وجنتاها الناعمتان فزاد جمالها درجتين وفوت قلب يعقوب دقتين، حتى كاد يجن، بينما عوى جرس الباب قاطعًا لحظة الحب والوله.

- قوم افتح الباب يا راجل.

ثم تقلص وجهها الجميل، وانتفضت بطنها المنتفخة.

- مالك، في إيه؟

- نغزة كدة بقالها ساعة، الواد بيلعب كورة في بطني.

ربت على كتفها وقبل رأسها في حنان، ثم نهض مسرعًا، وأغلق باب الحجرة خلفه، وتقدم يخطو بخطوات بطيئة من آثار خشونة الركبة.

إلا أن صوتًا داخله راح يهمس له، صوت لوسين الذي لازمه بعدما رحلت:

- قلبي ليس مطمئنًا يا يعقوب.

- ولا أنا يا أم أرتين.

- إذن لا تفتح الباب أرجوك.

- كفي عن هذا الهراء يا امرأة، لن يمنع القدر إذا لم أفتح الباب له.

ثم تنحنح بصوت مرتفع، وفتح الباب الخشبي ذا الشراعة الزجاجية.

ليجد ضابطًا يحمل نجمة واحدة على كتفه، وبجواره رجل يرتدي ملابس مدنية أنيقة

- مساء الخير.

- مساء النور.

الدم يهرب من رأس يعقوب، وعيناه أصبحا كطفلين عابثين يتبادلان الصعود والهبوط على أرجوحة الميزان.

الضابط يقرأ من ورقة صغيرة في يده، ورقة حكومية سخيفة كريهة المنظر والرائحة

ـ ده منزل هاروتين كشيشيان الشهير بأرتين؟

الطفلان العابثان يتواليان الصعود والهبوط، بينما الدماء تتجمع في محيط القلب العجوز المتعب، و الصوت الرسمي يأتي من بئر عميقة لا قرار لها ولا ضوء يدخلها.

ومن داخل الغرفة تصاعد صراخ زاغي، معلنًا أن المولود قرر أن يصل في نفس اليوم.

اليوم الذي شهد خبر وفاة أخيه.

وبينما تخور قواه، وهو يستند على الباب سمع صوت لوسين يأتي كأنه من يأتي من عالم الملكوت.

ـ طلبت منك ألا تفتح الباب، لماذا فتحته يا يعقوب؟

* * *

• ١١ •

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الثانية و النصف صباحًا

رئيس مباحث العاصمة ليست بالوظيفة السهلة أو الهينة كما يبدو من تعريفها.

ربما لو أضفنا لها إمكانية تلقيه لمكالمات في الثانية والثالثة صباحًا، يوم الجمعة، وهو جالس في سهرة لطيفة مع زوجته سيدة المجتمع الصبورة الطيبة، وزوج ابنته المحاسب الناجح في أحد البنوك الخاصة المشهورة، يشاهد مسرحية كوميدية لطيفة من بطولة الأستاذ فؤاد المهندس والفاتنة شويكار تتهادى فوق المسرح في ثوبها الواسع المهلهل، قبل أن يحولها أستاذ الإتيكيت إلى فاتنة ونجمة مجتمع، وأمامه فوق الطاولة تقبع أطباق من مختلف أنواع المكسرات و المقبلات الخفيفة.

سهرة عائلية لطيفة، لا يعكرها سوى صوت الهاتف الأرضي الذي

راح يعوي في جنون طالبًا رفع ثقل سماعته.

- تليفون يا شكري.

- مين يا حاجة؟

- واحد بيقول إنه اللوا عبد العظيم.

قفز العميد شكري من مقعده الوثير بخفة شاب في العشرينات، وهو يمشي في خفه الصوفي المنزلي ناحية الهاتف الذي تمسكه الحاجة زوجته وقال هامسًا في سخط.

- واحد بيقول اللوا عبد العظيم، ده مساعد وزير الداخلية يا ماما.

- أنا إيش عرفني يا سيدي، هو كان من بقية عيلتي.

ثم رفعت كفها من فوق السماعة وهي تناولها لشكري، فتنحنح وخرج صوته مترددًا متلاحق الأنفاس.

- صباح الخير معالي الباشا، لا يا فندم أنا صاحي، لا أزعجتني إيه يا فندم تحت أمر معاليك، أؤمرني حضرتك.

راح يستمع وأنفاسه تتصاعد وهو يحدق في صورته المعلقة على الحائط وهو يتسلم نيشانًا ما من وزير الداخلية الأسبق، بينما مساعد الوزير يصب المعلومات في أذنه كصب عصير القصب.

- تمام سعادتك، لا متقلقش حضرتك، أنا مكلف واحد من كبار الضباط عندي بالموضوع، المقدم توفيق إسماعيل يا فندم، أيوة هو توفيق ده.

ارتفع صوت مساعد الوزير وازداد حزمًا، فتابع العميد شكري بأنفاس متلاحقة:

- يا فندم إحنا مسيطرين على الموقف، وانت عارف حضرتك إن السوشيال ميديا ما بتصدق تلاقي خبر وتمسك في ديله وتكر، والله يا فندم كانت المفروض تتمنع خالص ونخلص منها ومن قرفها.

قاطعه مساعد الوزير بكلمات غير مفهومة تتصاعد من الموجات الاستاتيكية الصارخة.

- يا فندم اعتبره حصل، بالكتير على الفجر هيكون توفيق فض الاشتباك ده، ده من أكفأ الضباط عندي سعادتك، أوامر معاليك، اتفضل يا فندم اتفضل.

ثم وضع السماعة فوق الهاتف، ونظر ناحية صورته المعلقة من جديد، وهو يقول رافعًا صوته:

- هاتيلي المحمول يا حاجة.

أجابه صمت مطبق، فرفع صوته مكررًا النداء، إلا أن الصمت لم تنقشع غيومه، فدخل إلى حجرة نومه، ليجد الحاجة زوجته متلحفة بغطاء خفيف و هي تغط في صوت مرتفع.

- إنتي لحقتي تنامي وتشخري كمان.

قالها هامسًا، وراح يتحسس طريقه حتى وجد هاتفه المحمول، فأخذه وخرج إلى الصالة حيث زوج ابنته غافيًا أمام الشاشة، ونظارته الطبية مائلة على وجهه.

- وانت كمان ادلقت، ده باينها ليلة طويلة على دماغك يا شكري.

ثم جلس في هدوء فوق مقعده الأثير، وراح يبعث برسالة قصيرة إلى

رقم توفيق، وملامح وجهه تكسوها الجدية بينما صوت فؤاد المهندس المستنكر يخرج من سماعات الشاشة.

«القميص فيه ست زراير.. وكرافتة مربوطة.. وصديري.. وجاكتة مقفولة.. ومع ذلك نشلت الفانلة.. إزاي.. معرفش؟!!»

* * *

• ١٢ •

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الثانية وأربعين دقيقة صباحًا

ـ اسم الكريم إيه؟

ـ شانت كشيشيان.

ـ تشرفنا يا مستر، بتدخن.

ثم أشار له بسيجارة فرفع شانت يده شاكرًا، فأشعلها توفيق لنفسه وراح ينفث دخانها في هدوء.

ـ إيه بقى اللي حصل النهاردة؟

ـ حضرتك عايز تعرف إيه اللي حصل فين وإمتى؟

ـ جميل، أنا كمان بحب الدقة، خلينا نقول مثلًا من الساعة ١٢ ونص صباحًا، مش برضه الممثلة اختفت في الوقت ده.

- مكنتش مركز الصراحة.

- وبعدين بقى؟

ثم راح توفيق ينقر فوق الطاولة بأصابعه وهو ينفث دخان السيجارة وعيناه تمسح وجه شانت العجوز الذي حفرته التجاعيد.

بينما على الطاولة الرئيسية، كان رافي ينفث دخان سيجاره بلا انقطاع، بينما بهاء سنجر محمر الوجه يتابع بلهجة غاضبة:

- إنت عارف كويس إن أنا معنديش مشكلة مع كل اللي انت بتقوله، بس انت كمان عارف إنكم مكنتوش ملايكة أوي كدة يا رافي.

- وإيه في اللي احنا عملناه في الفترة دي يستدعي إنهم يتصرفوا معانا كدة.

- تقدر تنكر إن حصل تعاون ما بين زعماء العائلات وما بين الروس، حط نفسك بقى مكاني أنا كقائد تركي واقف بحارب ولقيت ناس أنا معتبرهم حلفائي بيسربوا أسراري للروس، أعمل معاهم إيه أنا.

انتفض بدير من مقعده وصرخ رافعًا صوته الأجش:

- إحنا في إيه ولا في إيه إنت وهو، هو ده وقت سياسة وتاريخ وبلا أزرق على دماغتنا كلنا.

ينظر رافي وبهاء ناحيته في سخط، قاطعين حوارهما المحتدم بينما فوزي جميل لا زال سارحًا يحدق في اللوحة المعلقة.

على الناحية الأخرى، جلست السيدة الأنيقة الشبيهة بملكات العصور الوسطى أمام توفيق، فابتسم لها ابتسامة عريضة مرحبة.

- تحياتي يا هانم، أنا مش هاخد من وقتك كتير.

ابتسمت ماريان كشيشيان في هدوء ورفعت كفي يديها بأداء يليق بملكة تخاطب أحد وزرائها وتعطيه الإذن بالكلام.

- حضرتك كنتي فين وقت ما خرجت السيدة ميريت جميل من الحمام؟

- كنت في المطبخ طبعًا، أنا هنا رئيسة فريق الطبخ يا حضرة الضابط، دوري كله المطبخ وبس.

- مفهوم طبعًا.

ثم نفث دخان سيجارته، ليجد ملامح وجهها تتقلص من الدخان الكثيف، في رسالة استوعبها جيدًا، فأطفأ السيجارة في قلب المنفضة الخزفية الأنيقة، وراح يتفحص النقوش فوق المنفضة.

- حسب ما شفت، الحمام الحريمى جنب باب المطبخ تقريبًا.

- بينهم وبين بعض حوالي مترين تلاتة.

- دقة حضرتك بتبهرني يا هانم.

ابتسمت ماريان وهي تنظر بعينيها إلى الطاولة خجلًا، فتابع توفيق:

- معنى كدة إن تقريبا الحيطة بتاعت الحمام تقريبا هي حيطة من حيطان المطبخ.

- تقدر تقول كدة.

- بس برضه لا حضرتك ولا مدام أمينة ولا الأمورة الصغيرة سمعتوا أي حاجة جاية من الحمام.

تنحنحت ماريان واضعة كف يدها في أناقة أمام فمها ثم قالت متابعة:

- أولًا مش من آدابنا إننا نتصنت على الناس وهم في الحمام، وثانيًا لو فكرنا نعمل كده مش هنعرف.

- تفتكري ليه يا فندم؟

على الناحية الأخرى، أمام باب المطعم قال ڤيكن في نفاد صبر لطارق الواقف بينه وبين الباب الذي يسده المخبر ذو الشوارب الكثيفة:

- كل حيطان المطعم عازلة للصوت، أنا بكررها لحضرتك لرابع مرة.

- تمام مفهوم.

ثم نظر إلى عيني ڤيكن الخضروا ين متابعًا وهو لا يزيح عينيه عنهما:

- بس انت كنت موجود ساعتها برة المطعم حسب مانا فاهم.

- لا يا فندم، أنا شغلي بيخلص بعد ما بيوصل آخر المدعوين، إنت عارف إننا بنشتغل بقايمة حجوزات ومدعوينا عددهم محدد ومعروف، وبعد ما بركن عربية آخر ضيف، بخش المطعم أساعد انط ماريان في المطبخ.

- مفهوم مفهوم.

ثم راح طارق يدون كلمات ما في مفكرته وقال متابعًا:

- قلتلي من شوية إنك شفت العربية السودا اللي خبطت ليلى حسني وهو بتضرب نار على عاصم خورشيد بعد ما عاصم ضربك بالبوكس في وشك وخرج جري من الباب ده.

- شبهها، شوفت عربية شبهها، ثم هو مضربنيش هو كان بيتطوح وإيده يادوب..

- مفهوم مفهوم، وإنك وقفت متسمر مكانك مش مصدق إن اللي حصل حصل.

- وإن بعد ثواني العربية جريت بسرعة.

- وإنك معرفتش تشوف نمر العربية ولا تعرف حاجة من مواصفاتها غير إنها فورد.

أومأ ڤيكن برأسه موافقًا فتابع طارق:

- والعربية اللي خبطت ليلى حسني كانت فورد برضه؟

- مش فاكر.

- لا يا ڤيكي أنا مبحبش الكلمة دي خالص، كانت فورد ولا لا؟

- مش فاكر.

بينما توفيق يبتسم ابتسامته العريضة التي شعرت مدام أمينة بسخافتها وعدم منطقيتها مع الحدث، إلا أن تعبير وجهها الصارم الجامد لم يتزحزح.

- حضرتك مضايقة مني أو حاجة؟

- لا خالص.

- في حاجة في منظري أو شكلي مقرفين أو مخلينك قرفانة مني؟

- لا خالص.. ليه حضرتك بتقول كده؟

تغيرت تعبيرات وجه توفيق إلى النقيض، وارتسمت على تقاسيم وجهه ملامح الغضب.

- أصل انا شايف حضرتك بتبصيلي بطريقة غريبة أوي، والحقيقة أنا مش لاقيلها تفسير تاني.

ـ مش جايز أنا وشي ربنا خلقه كدة.

أومأ توفيق برأسه موافقًا، ثم عادت لوجهه الابتسامة السخيفة المستفزة، وهو يتناول بطاقة رقم قومي بلاستيكية موضوعة أمامه على الطاولة وتابع وهو لا يرفع عينيه عن البطاقة.

ـ حضرتك اسمك في البطاقة الشخصية نانر يعقوب هاروت كشيشيان، صح؟

ـ ننار، اسمي في البطاقة ننار.

تابع توفيق وكأنه لم يلاحظ كلماتها لتصحيح نطق اسمها الأرميني الأصيل:

ـ أمال إيه أمينة الشريف ده؟

ـ ده الاسم اللي سماهولي المرحوم أحمد الشريف، جوزي، بعد ما غيرت ديني، بعد جوازنا بسنة.

ـ هو حضرتك غيرتي دينك عشان خاطره ولا عشان خاطر إنتي عايزة تغيري دينك؟

ـ تفرق مع حضرتك في حاجة ؟

هز توفيق رأسه في تعبير صريح باللامبالاة، ثم وضع البطاقة فوق الطاولة متابعًا:

ـ والمرحوم كان بيشتغل إيه؟

ـ ضابط في القوات المسلحة، المخابرات الحربية.

ـ الله يرحمه، أنا دلوقتي فهمت التعبير اللي على وش حضرتك ده جاي منين.

- تقصد إيه مش فاهمة؟

نظر توفيق لها متابعًا متجاهلًا كلامها من جديد.

- حضرتك كنتي فين بعد الساعة ١ ونص صباحًا.

- في المطبخ، مشغولة مع بنت اختي في تحضير المين كورس لضيوف رافي.

- ومجتش أي فرصة إنك تبصي بصة على ترابيزة الضيوف أو تاخدي فكرة عنهم.

- مش مهتمة، أنا كل اهتمامي بشغلي جوة المطبخ بس.

بينما على طاولة الضيوف الرئيسية، وبينما احتدم النقاش الثلاثي بين رافي وبهاء وبدير، اعتدل بدير وهو يهز رأسه متابعًا:

- يعني الموضوع كله بدأ بالقبض على العيال المثقفين والأعيان.

- ما هو عشان تشل حركة البني آدم، لازم تشل عقله وتفكيره، فهيفقد السيطرة على بقية أطرافه ويبقى سهل إنك تتسلى على تقطيعها بهدوء.

ضيق بدير عينيه بعد كلمات رافي، ونظر ناحية بهاء الذي ارتسم على وجهه تعبير معارض لكلمات رافي، وما إن صدم ذلك التعبير وجه رافي حتى قال وهو ينفض رماد سيجاره في المنفضة الخزفية.

- الظاهر إن صديقنا بهاء مش متفق معايا برضه في النقطة دي.

- بالعكس يا رافي، أنا متفق معاك في النقطة دي شكلًا، عشان تشل الحركة لازم تقطع الراس، بس انت مش شايف إن ده برضه كان رد على تخطيط الراس دي.

التفت رافي من جديد ناحية بهاء الذي تنحنح كأنه على وشك إلقاء خطبة في مجلس النواب:

ـ لما اكتشف إن عرق معين أو طائفة معينة كان ليها يد في أكبر هزيمة عسكرية حصلتلي في تاريخي الحديث، وإنهم ساعدوا عدوي سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وإنهم كمان بيخططوا لانقلاب علي عشان يدمروا الدولة بالكامل.

ـ ده كلام قيادات الاتحاد والترقي يا صديقي، لكن على أرض الواقع اللي حصل كان محاولة إنك ترمي إخفاقك وفشلك على مجموعة مدنيين عزل كل مشكلتهم إنهم مختلفين معاك في الدين أو في العرق، رمي بَلَا يعني زي ما بيسموها.

أزاح بهاء بوجهه من جديد بينما قال بدير وهو يشعل سيجارته السوبر الأربعين ربما في تلك الساعات القليلة:

ـ لما كنت شغال محامي ابتدائي، ويجيلي حد من العيال المسجلين يقولي إن واحد من رجالته اتمسك، كنت أخليه يسرب له كلمتين جوة التخشيبة، يقوله ببساطة كده يعور نفسه بموس ولا يخبط راسه في الحيط يفتحها، ولما يطلع عالنيابة يقول للوكيل أن الضابط عدمه العافية عشان يلبسه الضبطية، يرمي بَلَاه عليه من الآخر، بس في مرة من المرات عرض النيابة اتلغى، والواد اللي عور نفسه كان غشيم، قعد يسح في دم لحد ما ضغطه نزل ونقلوه عالمستشفى، وفي ظرف ساعتين تلاتة كان مات عالسرير.

ثم رفع عينيه ناحية بهاء ورافي، ليجد تعابير عدم الفهم ترتسم على وجه بهاء بينما انعقد حاجبا رافي وهو يحدق في وجه بدير.

- بمعنى؟

- هي جت عليا أنا يعني يا رافي، مانا من الصبح بسمعك انت والدكتور عمالين تقولوا كلام مجعلص مش فاهم منه حاجة، قولت أقولكم حكاية من حواديتي أنا كمان يعني.

ارتفعت ضحكات رافي في وجه بدير، الذي انتقلت له العدوى فراح يضحك عاليًا وشاربه الكث يهتز بينما ابتسم بهاء ابتسامة تتناقض مع ملامحه المتجهمة.

ومن بين بقايا ضحكاته العالية، نظر رافي ناحية فوزي الذي لا زال بصره زائغًا في الفراغ.

- فوزي، إنت رحت فين يا صديقي؟

- ها، أنا هنا معاكم.

- إنت مش معانا خالص يا صديقي.

- يجوز.. مش عارف.

تعالت ضحكات بدير من جديد، في إعلان واضح أن المحامي القدير قد سكر تمامًا، ربما بعد زجاجة النبيذ العتيقة التي شربها تقريبًا بمفرده، بينما في وسط ضحكاته تعالى صوت طارق العميق الرجولي.

- دكتور بهاء سنجر، بعد إذنك إتفضل معايا.

رفع بهاء بصره ناحية طارق متسائلًا:

- إتفضل معاك فين؟

- كلمتين صغيرين مع توفيق باشا وبعدين حضرتك ترجع الترابيزة تاني.

هنا انتفض رافي من مقعده، وراح ينظر إلى طارق في تحدٍ.

- أظن كفاية كدة بقى يا حضرة الضابط، المفروض إن اللي حصل ده حصل برة مطعمي، والمفروض إن حضراتكم تشوفوا شغلكم وتدوروا على اللي خبط المسكينة ليلى وخطف المسكينة ميريت وحاول يغتال صديقي عاصم، مش تزعجوني أنا وضيوفي وتبوظوا سهرتنا.

ارتفع صوت توفيق قادمًا من الناحية الأخرى من المطعم:

- متخلص يا طارق، إحنا هنقضي الليل كله، قلتلك الدكتور بهاء سنجر يجي هنا.

ابتسم طارق وهو ينظر في عيني رافي مبادلًا التحدي، وقال هامسًا بصوت تعمد جعله مسموعًا لرافي وصديقه طبيب النساء الشهير:

- بص حضرتك، أنا بشتغل مع المقدم توفيق من حوالي سنتين، ومشوفتش في حياتي حد خلقه ضيق والأذية عنده سهلة زيه، وطالما فهمك في بداية التحقيق إن كل الدنيا عارفة إننا هنا، يبقى كل الدنيا عارفة إننا هنا، اللي بتعمله حضرتك ده اسمه حرق ملوش لازمة، وصدقني آخر حاجة ممكن يحبها المقدم توفيق هي الحرق اللي ملوش لازمة، إنت مش شايفه عامل إزاي.

ثم ربت في هدوء على كتف بهاء، وقال:

- ودلوقتي حضرتك هتتفضل معايا في هدوء، وزي ما قولت لحضرتك هم كلمتين وهترجع لكرسيك تاني معزز مكرم.

نظر بهاء ناحية رافي ثم نهض من المقعد متوجهًا ناحية توفيق بصحبة طارق، بينما جلس رافي على المقعد ونظر ناحية بدير الغارق في كأس نبيذ جديدة.

- ما كفاية شرب بقى يا بدير واعمل حاجة.

- أعمل إيه يا رافي يا حبيبي، إنت مسمعتش الضابط الصغير قالك إيه، بص يا ابن عمي، طالما الضابط اللي هناك ده بيتكلم بثقة كدة وهو متوكد من نفسه، يبقى الناس دي جاية من الباب العالي، وجايين عارفين هيعملوا إيه، وزي ما المثل بيقولك يا رافي يا خويا..

ثم اعتدل في جلسته وقال من بين دخان سيجارته السوبر

- إن صاحت الريح، وطيلها.

بينما على الطاولة الأخرى، جلس بهاء سنجر متوترًا متصلب الجسد، بينما توفيق ينظر في جواز سفره النائم بين يديه، مفتوحًا على صفحته الأولى التي تزينها صورة أنيقة لبهاء.

- وانت متعود تمشي بالباسبور على طول يا دكتور.

- أنا سفرياتي كتير يا فندم، وأحيانًا ممكن أسافر في أي وقت.

- وده عشان الشغل ولا دي من هواياتك يعني؟

نظر بهاء إلى توفيق ومن عينيه تخرج نظرات استنكار ممزوجة بالدهشة.

- هو إيه فايدة اللي بيحصل ده يا فندم؟

- يعني إيه؟

- يعني إيه فايدة القعدة اللي احنا قاعدينها دي والأسئلة اللي حضرتك بتسألها؟

انتقلت الدهشة إلى عيني توفيق هذه المرة.

- كويس، حضرتك بدأت تستغرب أهو من أسئلتي، خليني أسألك أنا بقى بصراحة، إحنا قاعدين هنا بنعمل إيه؟

- همشي معاك للآخر، أنا قاعد بحقق معاك.

- بخصوص إيه؟

- بخصوص التلت حوادث اللي حصلوا النهاردة.

- خلينا نمشي واحدة واحدة، أول حادثة كانت حادثة سير ممكن تحصل لأي حد، الأستاذة الممثلة شربت زيادة شوية ومزاجها مكنش رايق، جالها خبر مش لطيف وخرجت من الباب بسرعة بتجري، وتصادف إن واحد تاني بيجري بعربية خبطها، وزي أي حد بيخبط حد في بلدنا هرب وسابها في الشارع، ثم جت الإسعاف بسرعة برضه ونقلتها المستشفى.

صدر صوت من فم توفيق يوحي بوجبة عشاء ثقيلة شرب بعدها نصف لتر من الصودا، ثم أشعل توفيق سيجارته مسرعًا ونفث دخانها وهو يشير إلى بهاء كي يكمل كلامه.

أكمل بهاء وعلى وجهه علامات تقزز واضحة:

- الحادثة الثانية حادثة خطف، مهندسة الديكور مرات الأخ المهندس اللي قاعد هناك على الترابيزة، وواضح من البودي لانجويج بتاعتهم.

- الإيه يا دكتور؟!!

- لغة الجسد يا فندم، لغة جسدهم بتقول إنهم مش متفقين مع بعض خالص، وفي بينهم وبين بعض مشاكل كبيرة أوي، فطبيعي جدًا إن أول واحد يكون مشتبه فيه في تدبير حادثة زي دي وأول واحد يتحقق معاه هو جوز المخطوفة.

ـ حضرتك متجوز يا دكتور بهاء؟

قطع سؤال توفيق المفاجئ ـ وهو يحشر خلة أسنان خشبية بين ضروسه ـ استرسال بهاء، وصدم السؤال وجه بهاء كأنه كوب ماء ألقاه أحدهم في وجهه، ربما لحساسيته المفرطة تحديدًا لهذا السؤال.

ـ لا مش متجوز.

ـ ولا سبقلك الجواز؟

ـ وإيه علاقة ده بكلامنا برضه؟

ـ عشان ببساطة يا دكتور، نص اجواز مصر بينهم وبين بعض خلافات ومشاكل ومعارك وأحيانا قواضي ومحاكم، لكن عندنا هنا في مصر مبندبرش إحنا خطط خطف وعربيات سودا والكلام ده، عندنا يا الراجل بيقتل مراته يا الست بتقتل جوزها، يا بيسبوا بعض للزمن وربنا هو اللي يخلص، لكن خطف وعربيات سودا وجو فيلم Gone Girl ده مش عندنا.

مد بهاء يده في جيب سترته باحثًا عن سجائره، إلا أنه تذكر أن كل أغراضه، سجائره وقداحته وحتى هاتفه المحمول فوق الطاولة التي كان جالسًا عليه منذ لحظات.

ـ طب وعاصم؟

ـ إيه يا فندم؟

ـ الحادثة الثالثة يا دكتور، تصورك عنها إيه؟

تجاهل بهاء النبرة الساخرة في حروف كلمة (تصورك) وقال متابعًا:

- حضرتك أكيد ما تعرفش حاجة عن الفضيحة اللي حاصلة في كذا بنك خاص، واللي ممكن يطير فيها رقاب ناس كتير، من ضمنهم عاصم خورشيد.

- طب وده يخلي في عداوات بينه وبين حد توصل إنه يضربه بالنار؟ المفروض إن عاصم هو اللي يمسك مسدس ويروح يدور الضرب في خلق ربنا عشان ينقذ سمعته.

- أو جايز حد من الناس اللي هيفضحهم لو رجله جت، بيحاول يعمل نفس اللي حضرتك مفترض إن عاصم يعمله.

- تصور وجيه جدًا ومنطقي برضه، بس عالعموم الرصاصة جت في كتفه، وكلها كم ساعة ويفوق وبقولنا في إيه، منطقي جدا والله.

كرر توفيق نبرته الساخرة في نهاية الكلمات، ثم رفع صورة ليلى حسني أمام وجه بهاء.

- حضرتك عارف صورة مين دي؟

- ليلى حسني.

- اللي كانت ضيفة هنا معاكم على نفس الترابيزة.

- مضبوط هي.

- حضرتك تعرفها كويس يا دكتور؟

- أول مرة أقابلها كانت النهاردة.

انعقد حاجبا توفيق ونظر إلى وجه بهاء محاولًا وزن رده السريع

المقتضب المختصر، راقب عيني بهاء وأرنبة أنفه وحلمة أذنه، وزوايا شفتيه، لا علامات، الإجابة جاءت سريعة ومنطقية وصادقة.

- طب و عاصم وميريت؟

- برضه أول مرة أقابلهم، أنا معرفش حد من كل اللي على الترابيزة غير رافي كشيشيان، إحنا اصدقاء من زمان وطبيعي إن لما صديق يعزمني في مطعمه إني ألبي الدعوة عادي، ثم إن الدعوة جاتلنا على جروب الواتس آب اللي عامله رافي لزباينه المتميزين.

- جروب واتس آب.

كرر توفيق الكلمة، ثم مد يده ناحية بهاء.

- ممكن حضرتك توريني الجروب كدة؟

- معنديش مشاكل، بس حضرتك خليني أجيب موبايلي من على الترابيزة هناك.

ثم نهض بهاء وهو عازم على الاتجاه ناحية الطاولة، لكن حاجبيه انعقدا فجأة وتجمد مكانه قائلًا في خفوت:

- إيه ده؟

التفت توفيق مسرعًا ناحية الباب ليجد فوزي جميل يعدو ناحية الباب الخشبي، ثم يدفعه بيده خارجًا من باب المطعم، بينما يعدو طارق وڤيكن في أثره، ليصطدما بذلك المخبر كثيف الشارب الذي دخل من الباب لتوه، فدفعه طارق مزيحًا إيّاه من طريقه وخرج في أثر فوزي، بينما استند ڤيكن على الباب وهو يكاد يسقط على وجهه.

انتفض توفيق من مكانه، وذهب مسرعًا نحو طاولة العشاء الكبيرة، ليجد رافي واضعًا وجهه بين كفيه، بينما بدير المحامي ينظر في شاشة هاتفه المحمول.

- إيه اللي حصل؟

صمت عميق أجابه من قبل رافي وبدير، فدار بجسده البدين حول الطاولة وانتزع الهاتف من يدي بدير المرتخيتين، ليجد فيديو من على أحد مواقع التواصل، يكرر نفسه بطريقة ال Loop Playing المميزة لمقاطع فيديو فيسبوك وتويتر.

وعلى الشاشة صورة لسيدة في أربعينيتها، عيناها معصوبتان وشفتاها مبيضتان يسيل الزبد من طرفهما بينما يكتب على شاشة الفيديو جملة واحدة.

«ميريت جميل بين يدي الرب، أنقذوها «

- ممكن حد يفهمني إيه ده؟

رفع توفيق الهاتف ناحيتهم، بينما جاء طارق من الخارج وهو يلهث وفي عقبه المخبر كثيف الشارب منكس الرأس محني الظهر، في مشهد يليق بمسرحية كوميدية رخيصة.

- البيه ساب الباب وراح يشرب سيجارة.

- ما شاء الله، دي حاجة عظيمة جدًا.

رفع المخبر بصره ناحية توفيق.

- كنت خرمان يا باشا ونفسي في عامود دخان، وانا مبعدتش عن الباب سعادتك ده أنا يادوب..

ـ طارق، خد الشوال ده من قدامي دلوقتي، واقفل الباب ده بالمفتاح من جوة، محدش هيخرج من هنا إلا لما نشوف أخرتها.

أومأ طارق برأسه وهو يدفع المخبر الضخم المنكسر أمامه، ثم توقف فجأة وكأنما تذكر شيئًا.

ـ حضرتك مسألتنيش عن فوزي؟

ـ مش محتاجة سؤال يا طارق، يا اتخطف يا اتضرب عليه نار يا هتلاقي عربية سودا معدية نزل منها حد حطه في العربية وجري.

ـ إنت كنت معانا ولا إيه يا باشا؟

ـ لا.. بس بدأت أفهم إن اللي بيحصل هنا مش طبيعي، في حد بيصفي حسابه مع الناس دي، حد استغل اللمة دي وقرر إنه يضرب ضربته، أو جايز..

صمت توفيق وهو يرفع رأسه من شاشة الهاتف، بعد أن شاهد ذلك الفيديو الغريب للمرة الخامسة، ثم نظر ناحية رافي بطرف عينه.

ـ أنا عايز أشوف تفريغ الكاميرات هنا ضروري.

رفع رافي وجهه ناحية توفيق.

ـ كاميرات؟!

ـ إيه يا مستر رافي، ده مطعم كبير ومشهور، مبتخافش عليه يتسرق أو تحصل فيه مصيبة زي اللي احنا فيها دي؟ فين الكاميرات؟

ـ أنا مش محتاج كاميرات تضايق ضيوفي وتقتحم خصوصياتهم يا توفيق باشا.

ـ عظيم ، هايل ، ممتاز.

ثم ألقى بهاتف بدير من يده فوق الطاولة بينما جاء صوت بهاء من طرف الطاولة، فالتفت الجميع ناحيته وهو يقول:

ـ رافي ، إنت شفت الفيديو اللي باعته صديقك ڤيرا على الجروب؟

اقترب توفيق من رافي وقال متسائلًا:

ـ مين ڤيرا ده؟ مدعو هنا برضه؟

ـ كان مدعو بس الظاهر حصلتله ظروف واعتذر.

نظر توفيق إلى رافي نظرة متشككة مطولة، ثم نظر إلى المقعد الذي كان يحتله فوزي منذ قليل وسار بجسده الممتلئ إلى المقعد الموضوع معكوسًا، وجلس عليه وهو يولي ظهره للطاولة ووجه للحائط، ثم رفع عينيه ناحية اللوحة المعلقة على الحائط بينما صوت طارق يأتيه من آخر الطاولة:

ـ موبايل فوزي يا فندم، لقيناه واقع عند باب المطعم.

أشار توفيق بيده دون أن يلتفت إلى طارق وتابع:

ـ حطه هنا يا طارق جنب موبايلي، محدش يخش ومحدش يخرج، وهاتلي ڤيكن ده، عايز أكلمه كلمتين بنفسي.

ثم نظر إلى اللوحة من جديد، وضيق عينيه وهو يحدق في اللون الأبيض النقي الذي يتوسط اللوحة فوق جسد لا تظهر تفاصيله.

ـ دي باينها ليلة مش معدية.

* * *

• هـ •

القاهرة

العاشر من مارس ١٩٩٢ .. التاسعة والنصف مساءً

يبدو أن الأجل قد حان ودقت ساعته.

يعقوب كشيشيان، رجل الأعمال المحنك، إمبراطور تجارة الغذاء في مصر، وأحد من عاصروا ملكين وأربعة رؤساء، أصبح على وشك ترك العالم المتشابك المعقد.

لم يتحمل جسده أكثر من سبعين عامًا وقليل، برغم أنه كان حريصًا طوال عمره على صحته، لم يدخن ولم يفرط في شرب الكحوليات، لم يأكل الطعام الدهني المسبك الذي كانت تصنعه بحرفية شديدة زوجته النصف مصرية زاغي!، لم تقتله صدمة فقدان ابنه البكر في حرب أكتوبر المجيدة، ابنه الذي كذب عليه وخبأ سره الخاص، ابنه الذي كان يسافر

إلى اليونان وقبرص ولبنان، لم يكن يلهو أو يعبث، بل كان ينفذ مهمة شديدة الخصوصية، مهمة جعلته عضوًا في فريق خاص، عبر القناة من إحدى النقاط الهامة قبل العبور الرسمي ببضع ساعات، وسيطر على النقطة الخاصة ثم أعطى إشارة بسيطة من كلمتين:

«أريوتسي دينم»

الأسد في العرين.

ها هو يعقوب العجوز، ممدد في فراش وثير بمنزله، وظهره مستند على وسادة طبية ناعمة، يمسك في يده بالورقة الصفراء التي لا زالت تحتفظ برائحتها الكريهة، الورقة التي أتاه بها رجل يرتدي ثيابًا مدنية أنيقة، تخفي وظيفته السابقة في الجيش المصري، وتفصح عن وظيفته الجديدة في أحد الأجهزة الحساسة في الدولة، الرجل الذي أصبح ذات مساء، زوجًا لابنته الكبرى ننار، والتي تحولت إلى أمينة بعد عامين من الزواج، بمباركة أبيها وسط معارضة أمها وأشقائها.

يذكر يومها عندما نهض من على مقعده على رأس طاولة الطعام، وقال بأرمنية حازمة وقاطعة:

- فلتكن ننار أو أمينة أو راشيل، فلتكن ما تكنه، أما تخاريفكم وأوهامكم التي تتناولونها، فقد توقفت عن تناولها منذ زمن، كما سأتوقف عن تناول هذا الطعام الماسخ الآن.

- فلتباركك السماء وتنعم عليك بالإيمان يا أبي.

تذكر عندما أشاح بيده غير مهتم في وجه ابنته ماريان، وترك طاولة الطعام والمنزل بأكمله، وراح يتمشى في شوارع المعادي الوليدة، المعادي

الحاوية الهادئة الرقيقة الحالمة.

عاد بعقله المريض المثقل بالأفكار إلى الورقة البنية القديمة، ثم داهمته نوبة السعال، فراح يسعل بلا توقف حتى كاد السر الإلهي أن يغادره، وتناثرت بعض قطرات الدم فوق الورقة، بينما اقتحمت ماريان الغرفة في جزع.

ـ بابا، ماذا بك؟

راح يجاهد ليعب الهواء من سماء الغرفة، بينما اقتربت ماريان منه وتناولت قناع الأوكسجين محاولة أن تثبته فوق وجهه، إلا أنه من بين أسنانه وبصوت أنهكه السعال الدامي:

ـ رافي وزاكار، أريد رافي وزاكار الآن.

ثم استسلم لها لتضع القناع فوق وجهه المنهك، وشاهدها من بين جفونه المثقلة تومئ برأسها ثم تهب لتأتي بالوريث.

رافي، الولد الذي ولد يوم أن جاءه خبر بكره أرتين، هاروتين كما تنص شهادة ميلاده الورقية، كما ينص الخط الرصين الجميل الذي كتب به موظف الصحة اسم الصبي.

بينما زاكار، الحفيد الأول، الولد الذي ولد قبل عمه بأربعة أعوام، الولد الذي كان صورة من أبيه الراحل، في كل شيء، الذي اقتفى أثر أبيه في كل شيء، ربما منح الرب يعقوب تعويضًا عن فقد البكر بابنه، قالت له ننار/ أمينة ذلك في أحد الأيام، فأشاح بوجهه وقال ساخطًا:

ـ لم أتفق معه على التعويض، كان اتفاقنا فقط ألا يفجعني في محبوب، ولم يلتزم باتفاقه معي.

دق الباب في هدوء، ثم اقتحمه شاب وسيم يرتدي قميص كاروهات وبنطال جينز، واقترب منه راكعًا بجوار الفراش، فأشار له أن يقرب وجهه.

ثم بيده المرتعشة، رفع قناع الأوكسجين من على وجهه وهمس:

ـ أين زاكار؟

فأجابه رافي، الشاب الذي أوشك على مغادرة أعوام المراهقة، ووريثه الصغير

ـ زوجته تضع مولودها، ستصبح جدًا للمرة الثالثة أيها العجوز.

ضحك يعقوب، ثم التحمت ضحكته المكتومة بنوبة سعال جديدة، وعندما حاول رافي إعادة القناع إلى وجهه منعه برفق بيده المرتعشة، ثم أشار له ليقترب من جديد وتابع:

ـ أعتقد أن النهار لن يأتي يا بني، لذا فلا بد أن أحكي.

ـ لا وقت للحكي الآن يا أبي، إنه وقت الراحة، قسط من الراحة، وفي الصباح سوف أستمع إلى حكايتك كلها.

ـ اصمت يا ابن لوسين، لقد كبرت كفاية لأعرف أن يومي قد جاء، والآن استمع لي جيدًا، في ذلك الدرج العلوي ستجد مظروفًا صغيرًا به بعض الأوراق، هذه تقسيمة تركتي، قسمتها عليكم كما رأيت، ومع هذا الظرف ستجد ورقة أخرى..

ثم راح يسعل وهو يجاهد للكلام، بينما بدأت ملامح القلق تتصاعد على وجه الشاب:

- في هذه الورقة، ستجد بعض السطور القليلة، ستحفظها جيدًا، ولن تخبر بها أحدًا إلا ابن شقيقك زاكار، وعندما أموت، ستبحثون عن سيمون بابويان، سيخبرك ماذا ستفعل بهذه السطور جيدًا، وسيخبرك عما هو مطلوب منك، تذكر هذا الاسم جيدًا، سيمون بابويان.

راح رافي يردد الاسم وهو يومئ برأسه، فربت العجوز على وجهه الحليق وهو يبتسم في حنان، ثم قال وهو يغمض عينيه المرهقتين:

- والآن ارحل.. ودعني أموت في سلام.

دمعة حارة هربت من عين رافي وحفرت طريقها في خده الحليق، الخد الذي ربتت اليد المجعدة المرهقة عليه منذ لحظات، فتناول الظرف من الدرج، وألقى نظرة على والده الصامت المستكين، ثم خرج من الغرفة.

بينما ذلك الصوت يدوي في رأس يعقوب.

- تأخرت كثيرًا يا حبيبي.

فابتسم يعقوب، وهو يرى وجه لوسين الضاحك يملأ عينيه، ويدها الرفيعة الحنونة تشير له:

ولبّى يعقوب النداء.

* * *

• ١٣ •

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الثالثة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا

تتناثر الأطباق نصف الفارغة على طاولة الطعام الخشبية، الكثير من السلطات التي جف ماؤها وفقدت رونقها، والكثير من الأكواب الفارغة، والكثير من قطع الخبز المتكسرة بجوار أطباق صغيرة ملئت بأنواع مختلفة من الصلصات.

توفيق يجلس على المقعد في نهاية الطاولة، أسفل اللوحة المعلقة على الحائط، يقلب في شاشة هاتفه المحمول، داخل ذلك الشيطان السماوي الذي يحمل رمز العصفور، مئات الآلاف من التغريدات تتحدث عن مطعم البيت وما يحدث فيه الآن، عن حادث الممثلة المشهورة، وخطف مهندسة الديكور ذائعة الصيت، وإطلاق النار على مدير بنك شهير،

واختفاء مهندس برمجيات مخضرم.

وعن تقصير الشرطة في وسط كل هذا.

كان مزاج توفيق شديد التعكر، وتصاعد الدم إلى رأسه غضبًا.

- لو سمحتلي يا سيادة المقدم.

- شششششششش.

خرجت حروف الشين الساخطة الحامية من بين شفتي توفيق، لتبدو كرشة ماء من كوب ألقي في وجه بهاء سنجر، فاحمرت أذناه سخطًا.

بينما طارق يقترب من توفيق.

- اللوا شكري على التليفون يا فندم.

- قوله في الحمام، أنا مش ناقص تليفونات يا طارق، سيبني أشوف آخرة الخرا ده إيه.

أومأ طارق برأسه ثم انصرف وهو يلقي نظرة مطولة على الطاولة، بينما رافي لا زال جالسًا يدخن سيجاره الفاخر في هدوء، وبدير يحاول أن يفيق من سكره بكوب قهوة بلا سكر مضاعف الجرعة.

حول توفيق شاشته من العصفور السماوي إلى العملاق الأخضر، وراح يشاهد فيديو ميريت المخطوفة، ويقرأ التعليقات الغاضبة الساخطة.

- طارق، يا طارق.

رفع توفيق عقيرته، فجاء طارق من جديد.

- أيوة يا باشا.

ـ عرفت تفتح التليفون بتاع فوزي.

ـ جربت مرتين بتاريخ ميلاده وتاريخ ميلاد مراته، ولما لقيت إن اللوك غلط خُفت التليفون يتقفل خالص ومنعرفش نوصل لأي حاجة.

اعتدل توفيق وهو يلقي بهاتفه فوق الطاولة.

ـ طب ما يتقفل يا طارق ولا يتنيل، إنت هتجنني، ما هو كدة مقفول وكدة مقفول، جرب تالت مرة ولو متفتحش اتصل هات علاء يشوفلنا صرفة.

ـ طب حضرتك عندك فكرة إيه الرقم اللي ممكن نجربه؟

جاء صوت رافي هذه المرة هادئًا من آخر الطاولة:

ـ جرب ٢٥١١٠٨، تاريخ تأسيس شركته بتاعت البرمجيات، هو كان بيحب التاريخ ده أوي.

أومأ طارق برأسه إلى رافي، وكأن المعلومة قد نقلت مركز القيادة إلى الناحية الأخرى من الطاولة، وما إن أتم كتابة الأرقام حتى وجد أمامه صورة خلفية الشاشة.

ابتسم طارق وهو ينظر إلى رافي، فرفع الأخير يديه بمعنى ـ لا شكر على واجب ـ بينما راح طارق يقلب في الهاتف.

ـ شوف سجل المكالمات بتاع النهاردة.

ـ أول حاجة ببص عليها يا باشا، في مكالمات من رافي ومن مراته ومكالمات كتير أوي من رقم مسجله بـ LM.

ـ دي تلاقيها نمرة كشك السجاير.

جاءت الجملة الأخيرة خافتة من ناحية بدير، الذي دس أنفه في كوب القهوة مع فمه وهو يجرع جرعة كبيرة منه، وعلى وجهه ابتسامة عريضة تعطي انطباعًا واضحًا أنَّ الكحول لم يغادر المكان بعد.

- وفي مكالمات من رقم متسجل باسم دكتور موريس.

- كل ده في سجل المكالمات؟

- ده يوم واحد بس يا باشا.

انعقد حاجبا توفيق ثم دار بوجهه ناحية الجانب الآخر من الطاولة، ليجد رافي ينظر إليه في هدوء، ينظر إليه بشكل خاص، ليس إلى الفراغ ولم تقع عيناه صدفة على عيني توفيق، هو ينظر إليه هو، وكأنه يوصل رسالة ما، فقال توفيق بلا أن يحول بصره.

- شوفلي الواتس آب بتاعه.

راح طارق يقلب في الهاتف، ثم صدر صوت ضحكة نسائية رقيعة، فتلعثم طارق وداس على شاشة الهاتف المحمول.

- واضح إن الباشمهندس كان بيتشاقى يا باشا.

- فيديوهات عادية دي يا طارق بتتبعت في أي جروب رجالة، خش عالمفيد متتعبنيش معاك.

نزل طارق إلى المحادثة الثالثة في الترتيب، ليجد رسالة من شخص يدعى ڤيرا.

- في محادثة بينه وبين شخص ما، الرقم مش متسجل بس باين إن اسمه فيرج أو تقريبا..

- ڤير▯؟

قالها بهاء مندهشًا، بصوت أعلى من اللازم في الحقيقة، ونظر إلى رافي مستنكرًا، إلا أن الأخير لم يحول بصره عن توفيق:

- فيها إيه المحادثة دي مع فيرج ولا ڤير▯ ده؟

- فيها فيديو.

- طب شغله وهات التليفون.

داس طارق بطرف إصبعه على الشاشة ثم ناول الهاتف المحمول لتوفيق، وعلى الشاشة رأى توفيق ذلك الفيديو.

فوزي جميل، يجلس على طاولة في مطعم أو كافيتريا مزدحمة بشباب صغير، حتى بدا مظهره غريبًا وسط هذا الحشد، ثم بعد ثوانٍ قليلة تصل سيدة ترتدي معطفًا جلديًا أسود فوق بنطال رمادي، تصافحه وتطلب منه عدم النهوض، ثم تجلس في المقعد المقابل له، فيخرج فوزي من جيب سترته مظروفًا منتفخًا ويضعه على الطاولة أمامها، فتأخذه السيدة وتدسه في جيب معطفها، وترفع يدها ناحية النادل، الذي أتى متكاسلًا نحوهم، فتنظر إلى فوزي الذي هز رأسه رافضًا، فتطلب من النادل شيئًا ما يدونه ثم ينطلق.

وينتهي الفيديو.

- إيه شغل الأفلام الأجنبي ده؟

همس بها توفيق لنفسه، إلا أن صوته كان واضحًا بشكلٍ كافٍ حتى يسمعه طارق، الذي طلب منه الهاتف وراح يشاهد الفيديو، بينما بدير

يشرئب برأسه وسيجارته السوبر تتدلى من زاوية فمه.

- في إيه الفيديو ده يا باشا؟

نظر طارق ناحية بدير، دون أن ينطق بحرف، ثم عاد إلى مشاهدة الفيديو.

بينما توفيق ينهض من على المقعد ويعدل من وضع قميصه، ويرفع بنطاله المتدلي تحت كرشه، ثم يشعل سيجارة وهو يتجه إلى طرف الطاولة الآخر.

- مستر رافي، أنا محتاج أتكلم معاك كلمتين.

- خير يا حضرة الضابط؟

قالها رافي بهدوء ودون أن يتحرك.

- عايز أعرف مين الأخ ڤيرا ده.

- صديق.

- أيوة صديق من أي نوع.

- هم الأصدقاء أنواع؟

مد توفيق يده في حركة مفاجئة ونزع السيجار من يد رافي، وتابع وهو يطفؤه في المنفضة الخزفية:

- طبعًا، في أصدقاء بيقفوا جنبك في وقت الشدة، وفي أصدقاء السوء، وأصدقاء فوق بيظهروا وقت ما تحتاجهم، وفي أصدقاء بيدخلوا السجن، والنوع الأخير ده هو النوع اللي أنا مهتم بيه بشكل مخصوص.

- إنت عايز تدخلني السجن يا توفيق بيه، طب بتهمة إيه، مصادقة صحفي بيبعت فيديوهات للناس؟

- أهي بدأت تندع أهي، عرفنا إنه صحفي، وعرفنا إنه بيبعت فيديوهات مخصوصة، نعرف بقى كمان كام حاجة عنه، إتفضل معايا بعد إذنك.

تململ رافي في مقعده رافضًا للنهوض بينما كرر توفيق كلامه وهو يضغط أسنانه على كل حرف من الكلمات قبل أن يخرج من شفتيه الغليظتين:

- بعد إذنك.

وتحت ضغط توفيق، نهض رافي من المقعد، فأشار له توفيق أن يتقدمه إلى الناحية الأخرى من المطعم، عندما نهض بهاء فجأة من مقعده، شاحب الوجه وعيناه زائغتان، ويده ترتجف وهي تحمل الهاتف المحمول.

- رايح فين يا دكتور؟

نظر بهاء ناحية طارق، وبدا وكأنه يراه للمرة الأولى، ثم تمالك نفسه وهو يرد على سؤاله الحازم:

- رايح التواليت.

- مفيش تواليت.

- ليه هي أحكام عرفية، عايز أروح التواليت.

ثم همَّ بالذهاب ناحية الحمام، فدار طارق مسرعًا حول الطاولة محاولًا منعه، إلا أن صوت توفيق الجهوري ارتفع.

ـ سيبه يا طارق، ما هو أكيد مش هيعملها على روحه هنا، مش عايزين نبوظ الأرضية الباركيه الجميلة.

توقف طارق في منتصف الطريق، بينما أكمل بهاء طريقه ناحية الحمام، فالتفت طارق ناحية توفيق الذي يصطحب رافي إلى طاولة التحقيقات المرتجلة.

ـ بتشتغل معاه بقالك كتير.

جفل طارق، ثم التفت ناحية مصدر الصوت.

كان بدير يشرب ثمالة القهوة، مصدرًا صوتًا مرتفعًا صاخبًا، ثم سحب نفسًا عميقًا من سيجارته السوبر.

ـ هو مين؟

ـ هيكون مين يعني يا طارق بيه، المقدم توفيق إسماعيل.

ـ ماله؟

ـ بتشتغل معاه بقالك كتير؟

ـ من سنتين، من ساعة ما اتنقلت المباحث.

ـ أنا اعرفه من خمس سنين، من ساعة ما فتحت مكتبي في المعادي في شارع الزهور، تعرفه طبعًا.

سحب طارق المقعد الذي كانت تحتله مؤخرة بهاء سنجر منذ لحظات، وجلس متجاهلًا العرق الغزير الذي خلفته على المقعد الخشبي.

ـ طبعا، وهل يخفى القمر.

صدرت الجملة محملة بكل سخرية استطاعها طارق، لكن بدير تجاهلها متابعًا:

ـ أول مرة اتقابلنا كان قابض على عيل مسجل بلدياتي، فضل يعصلج معايا ويأتم علي وكان متربس راسه، كل ما أقوله طب أشوفه.. طب أتكلم معاه كلمتين.. يقولي بكرة لما نرحله عالنيابة إعمل اللي انت عايزه، بصراحة تعبني، وقلت أيامك مع الراجل ده كالحة يا بدير، لحد ما جه يوم ولقيته بيكلمني في التليفون..

اعتدل طارق في جلسته منتبهًا، يبدو أن بدير سوف يحكي قصة مسلية قد تضيع بعض الوقت الذي لا ينقضي في هذا الحبس الإلزامي الذي فرضه المقدم توفيق إسماعيل.

ـ أول ما طلع صوته من التليفون مصدقتش نفسي، توفيق إسماعيل بيكلمني آني، أيامها كان رائد لسه، قالي تعالى المكتب نشرب مع بعض القهوة وندردش في موضوع مهم، مكدبتش خبر، بعدها بربع ساعة كنت بشرب القهوة في مكتبه في القسم، ويومها طلب مني أول خدمة، الخدمة اللي فتحت حنفية الخدمات الرايحة جاية، لحد ما جه اليوم اللي زهجت فيه من الجنايات والجنح والمرمطة في المحاكم، وقلت شغل التعويضات والشركات أنضف وأروق، بس الود فضل موصول، والحنفية وإن ضاقت بس لسه مفتوحة، على ذكر الحنفية والود يا طارق باشا، عرفتوا مين اللي دب السكينة في كاوتش التمساحة النهاردة، أقصد إمبارح... هي الساعة كام صحيح؟

ابتسم طارق، ونظر في ساعة يده الضخمة المعدنية.

ـ الساعة أربعة وربع.

ـ ده أذان الفجر قرب بقى.

ـ صحيح يا متر، مش بيقولولك يا متر برضه.

ـ متر، أستاذ، ريس، كله واحد يا بيه، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، في الآخر كله للتراب.

ـ ده انت متدين بقى.

ابتسم بدير وأشار لبقايا كأس النبيذ جانبه، فاتسعت ابتسامة طارق متفهمًا الإجابة البليغة.

ـ شايفك عارف معاد الأذان، انت بتصلي يا متر؟

ـ ساعات، آخر مرة كانت الجمعة اللي عدت، بس ساعات كدة يجيلى الخاطر فاقوم أصلي ركعتين.

ـ مفهوم.

أخرج بدير سيجارة أخرى من علبته الورقية، ثم كور العلبة وألقاها بإهمال فوق الطاولة، وأشعل واحدة أخرى وهو يشير إلى ناحية أهل رافي، أو طاقم مطعمه، المتجمعين جالسين أمام باب مطبخ الإعداد، فجاءه شانت في هدوء بعينين حمراوين.

ـ بالله ممكن تجيبلي قهوة تاني.

ـ سادة برضه يا أستاذ؟

ـ الله ينعم عليك بحسنات سادة من غير سيئات.

ثم ضحك كاشفًا عن أسنان مصفرة الوسط بنية الحواف، فانصرف شانت بينما نظر هو من جديد إلى طارق، الذي بدا وكأنه يراقبه.

ـ عينك فيها سؤال يا باشا، اسأل متتكسفش.

ـ لا هو مش سؤال أوي، هو أنا مستغرب، أنا اعرف عنك إنك راجل..

انقطعت كلمات طارق مع صوت صرخة فزع مرتفعة، جاءت من ناحية الحمام، فانتفض طارق مسرعًا شاهرًا طبنجته الميري، وانطلق مسرعًا ناحية الحمام بينما قطع توفيق جلسة استجوابه مع رافي، ولحق بطارق إلى الحمام، ليجد طارق في وضعية ركل مستمر لباب الحمام الخشبي، حتى استجاب الباب كاشفًا عن حمام أنيق، كسيت حوائطه وأرضياته بالحجر ويتوسطه حوض نحاسي بصنبور كالصنابير القديمة من خمسينيات القرن العشرين، يعلوه نافذة صغيرة لا تتعدى حجم كتاب متوسط، وبجوارها مروحة شفط صغيرة، بينما على يمين الحوض قاعدة حمام أغلقت صديريتها البلاستيكية.

كل شيء كان هادئًا طبيعيًا في الحمام، فقط لو استثنينا أن بهاء سنجر لم يكن هناك.

فقط هاتفه المحمول موضوعًا فوق صيدرية القاعدة البلاستيكية.

ـ هو راح فين؟

ـ مش عارف يا باشا.

ـ يعني إيه مش عارف يا طارق؟ هيكون داب ولا هرب من البلاعة ولا اتحول لخفاش وخرج من الشباك.

ـ مش عارف يا فندم، إنت شوفتني بعينك وانا بكسر الباب، الباب كان مقفول من جوة ومفيش أُكرة ولا مفتاح من برة.

زفر توفيق غاضبًا، وخطا داخل الحمام مستكشفا، بينما تجمع بدير ورافي وباقي عائلته في الممر المؤدي إلى الحمام، حتى أصبح مزدحمًا كحافلة قاهرية في ساعة ذروة.

ـ فضيلي السيرك ده من هنا يا طارق، وكل الرجالة تقعد على ترابيزة العشا الرئيسية، وشوفلي المحمول ده بيتفتح إزاى.

طارق راح ينفذ الأوامر مسرعًا، بينما يحمل هاتف بهاء في يده، وتوفيق ينظر حائرًا وغاضبًا وساخطًا إلى النافذة الخشبية الصغيرة أعلى الحوض، ثم استقرت عيناه على المرآة الكلاسيكية الصغيرة الموضوعة فوق الحوض.

سرح توفيق في وجهه الناظر له من الجانب الآخر، وتذكر أول يوم نظر فيه في مرآة منزله.

كانت مرآة كلاسيكية عملاقة، تحتل نصف حائط في الممر المؤدي لباب الشقة، مرآة إطارها مليء بالنقوش ـ داليا زوجته تحب النقوش والتفاصيل ـ تظهر المرأ من قمة رأسه لأخمص قدميه، وتعطي انطباعًا مسبقًا لما سوف يراه الناس منك لاحقًا، كانت زوجته تمنحها مصطلحًا إنجليزيا سمعته في إحدى قنوات الموضة أو الطبخ، مصطلح Pre-confrontation detector أو كاشف ما قبل المواجهة، وعندما ضحك ساخرًا منها، زامت كما تفعل أثناء مساعدة الأولاد في المذاكرة وقالت موضحة

ـ ببساطة كدة، المراية دي بتكشف تفاصيل التفاصيل، وبتديك صورة للمظهر العام بتاعك قبل ما تنزل تواجه الناس، لو كان مظهرك العام حلو وعاجبك وانت راضي عنه، يبقى هتواجه الناس وانت مرتاح

ومبسوط، لو مظهرك العام ملخفن ومش مظبوط، يبقى الأحسن إنك يا تعدله يا متنزلش خالص، لإن المواجهة هنا مش هتكون في مصلحتك.

- ياريت كان عندي الرفاهية دي يا اختي، ياريت.

قلبت شفتيها ازدراءً أو عن عدم اقتناع ربما، بينما واصل هو رسم ابتسامته الساخرة على وجهه.

من المرآة يطل وجهه، منتفخ الجفون، جاحظ العينين من أثر فناجين القهوة التسعة، شفتاه جافتان منتفختان، وشعره القصير المنحسر عن مقدمة رأسه هائش على الأطراف، منظر لا يصلح حتى لمواجهة نملة، لكن، منذ متى وهو يهتم بالمرآة أو منظره فيها.

- ياريت كان عندي الرفاهية دي.

همس بها لنفسه، ثم أخرج نفسه عنوة من مواجهة المرآة، وانطلق خارجًا إلى السيرك المنصوب في المطعم، ليجد طارق أمامه يحاول أن يتعامل مع هاتف بهاء المحمول

- فتحته ولا لسه؟

- بالبصمة سعادتك، ومش عامل Secondary unlock option.

- مش عامل إيه يا خويا؟

راح طارق يهز رأسه بحثًا عن تعبير مناسب.

- مش عامل اختيار تاني لفتح التليفون، بالبصمة بس.

- عظيم، دي حاجة في منتهى الروعة.

ثم خرج من الممر نحو المطعم، ووقف بين الجانبين كالقائد العسكري

رافعًا عقيرته بالتعليمات.

- اسمعوني كدة كلكم، كل اللي قاعدين يسلموا تليفوناتهم للنقيب طارق، أيوة اللي واقف جنبي ده، محدش هيحتفظ بتليفونه، محدش هيبقى مسموح له يخرج من المكان ده لحد ما نشوف أخرتها، طارق، بعد ما تلم التليفونات تحطها على الترابيزة هناك، وتتصل بعلاء تصحيه من النوم وتجيبه على هنا، ولو مصحيش تبعتله قوة تجيبه على هنا، وبكرر كلامي تاني، اللي أنا قولته ده غير قابل للمناقشة، وأي حد ناوي يعترض أو بيفكر يعترض هكلبشه في الكرسي اللي هو قاعد عليه.

- هي أحكام عرفية ولا إيه يا حضرة المقدم؟

جاءت هذه الجملة الأخيرة من أمينة الشريف، وهي تقف منتصبة أمام عائلة رافي وعيناها مليئتان بالتحدي، فابتسم توفيق ساخرًا ثم أدار وجهه ناحية رافي.

- حضرتك سمعتني كويس يا مستر رافي، دلوقتي بلغ الكلام ده لجماعتك بالطريقة اللي تريحك، ورحمة أبويا لو حد عارض أو خالف الكلام ده لكون مكلبشه في الكرسي وملبسه تهمة عرقلة العدالة والانتماء لتنظيم سري، واخليه يقضيله شهر ولا اتنين احتياطي في القناطر لحد ما يبان له صاحب، أنا مش ناقص جنان هنا.

ثم نظر بطرف عينه لطارق، الذي دار على الموجودين ليجمع هواتفهم المحمولة، بينما مشى هو ببطء متجهًا إلى الطاولة الخشبية الكبيرة، واتخذ مقعده أسفل اللوحة، بينما طارق يضع الهواتف أمامه.

رافي يجلس على جانب الطاولة الآخر، يدخن سيجاره من جديد،

بينما بدير قد زالت آثار الكحول من رأسه، وحل محلها آثار التوتر، حتى إن جسده راح يهتز بصورة منتظمة.

ـ أستأذنك يا مستر رافي، عايز قهوة.

ـ نعم؟!

ـ قهوة، سادة، دوبل.

ابتسم رافي ثم دار بنصف رأسه للخلف مناديًا على شانت، الذي اقترب منه فقال له جملتين بالأرمنية، ثم انطلق ناحية المطبخ.

بينما توفيق ينظر في هدوء إلى الهواتف الموضوعة على الطاولة، هواتف من كافة الأحجام والموديلات، هاتف ذو شاشة كبيرة تضيء بتنبيهات لعبة كاندي كراش، وهاتف ذو شاشة صغيرة مشروخة من المنتصف، وهاتف له مصباح صغير يضيء بلون سماوي أعلى الكاميرا الأمامية.

راح يعد الهواتف بعينيه وهو ينفث دخان سيجارته، ثم صاح دون أن يرفع عينيه عن الطاولة:

ـ طارق، في تليفون ناقص، شوفلي مين ده وتجيبلي التليفون بدل ما اقوم أجيبه بنفسي.

لم يتم عبارته، حتى تدحرج هاتف محمول صغير الحجم على الطاولة، فرفع رأسه ونظر ناحية الهاتف، ثم نظر إلى بدير.

ـ ليه كدة يا متر؟

ـ أنا قولت ده تليفون طفش، مفيهوش لا واتس ولا فايس ولا أي حاجة من دي.

ـ أنا قولت كل التليفونات يا متر، كلها.

ثم هز رأسه في أسف ساخر مصطنع، وسحب الهاتف بيده وضمه إلى المجموعة، فبدا وكأنه حارس عقار مسكين يحرس عقارًا من عقارات الزمالك الفاخرة.

طارق يقترب من توفيق، ينظر إلى رأسه اللامعة في الإضاءة، وإلى العرق الذي بدأ يسيل على مقدمتها، وعينا توفيق المليئتان بالتحدي، حدقته الضيقة وخده المكتنز الذي ضيق عينه قليلًا من فرط التركيز، وجه توفيق إسماعيل عندما تدبر رأسه شيئًا.

جاب ذلك الخاطر رأسه، وهو يتذكر أول أيامه بعد نقله للمباحث، يتذكر خطواته وهو يقترب من باب المكتب الخشبي، وذلك الجندي المسكين ينتفض مؤديًا التحية للضابط ابن الناس ملون الوجه والشعر الذي يدلف إلى مكتب معاون المباحث.

دق الباب في هدوء، ثم انتظر خمس ثوان، وعندما لم يجبه أحد، فتح الباب في هدوء ودلف إلى حجرة المكتب.

دخان السجائر منعقد في الجو كأنه سحب يوم رطب، والمصباح الموفر الأبيض يغيب وسطها كما تختفي شمس ذلك اليوم، بينما توفيق يجلس فوق مقعد جلدي متوسط الحجم، يلف جسده والمقعد وينظر إلى لوحة ورقية موضوعة على الحائط أمامه.

ما إن دلف حتى خرج صوت توفيق العميق الصاخب، قبل ذلك اليوم لم يعِ طارق يومًا كيف لصوت أن يكون عميقًا رخيمًا وصاخبًا في الوقت نفسه!

- الخبطة دي جديدة عليًا، خبطة محترمة وبنت ناس.

وقف طارق لثانية، ولم يعرف ما يقوله:

- صباح الخير.

- صباح الخير، كنت بقول إنها خبطة محترمة وبنت ناس، يعني غالبًا إنت طارق أحمد، النقيب طارق أحمد.

ثم دار توفيق بجسده وبالمقعد، الذي أصدر صوت أنين شبيه بسيارة رمسيس عتيقة يركبها خمسة عمالقة تنوء بحملهم.

- لا متتخضش، ده الكرسي بعافية بس، إتفضل تعالى.

ثم أشار له أن يتقدم، فاقترب طارق من الكتب الخشبي، الذي تزينه لوحة تعريف مخروطية حفر عليها اسم توفيق.

صافحه، لا زال يتذكر تلك المصافحة جيدًا، برغم أن يد توفيق ممتلئة كجسده، مترهلة كبطنه التي تظهر بوضوح من القميص القطني قصير الأكمام، إلا أن يده كانت حازمة قوية وهي تصافح يد طارق، كأنما يرسل له رسالة تخبره بلا كلمات، أنا المسيطر هنا أيها الغر المبتدئ، وعليك أن تعرف ذلك.

الأسد العجوز يخبر الشبل المراهق أن المملكة لها سيد واحد، فلا تغرنك نفسك

- في إيه يا طارق، هو ده وقت سرحان؟!

قطعت جملة توفيق الساخطة سيل ذكرياته، فنظر له قليلًا وكأنه يحاول أن يعي المكان الذي يحتله جسده الآن، يبدو أن السهر لعب برأسه هو الآخر.

- إنت متنح كده ليه يابني، كلمت علاء؟

- آه يا باشا كلمته، جاي في الطريق، صحيح كان العماص بينط من صوته بس هيفوق ويجي.

- كويس أوي.

ثم أشعل توفيق سيجارة جديدة، بينما طارق يمسك هاتفه في يده محاولًا أن يقول شيئًا ما، شيء عندما رآه، جلبه سريعًا إلى توفيق، إلا أن هاتف توفيق راح يهتز فوق الطاولة مصدرًا صوتًا مزعجًا شبيهًا بصنفرة الأخشاب، فاقشعر بدن طارق بينما نظر توفيق إلى الهاتف، ثم نهض وابتعد إلى الباب.

وعلى الباب، أجاب توفيق المكالمة التي اهتز لها هاتفه.

- مساء الخير معاليك.

- قول صباح الخير يا بيه، جرى إيه يا توفيق، أنا بقالي ساعة بحاول أوصلك، إنت فين؟

- هكون فين معاليك، في المطعم بتاع رافي.

- طب مانا عارف إنك في الزفت المطعم، أمال مبتردش على تليفوناتي ليه؟

تعبيرات من السخط والضيق ارتسمت على وجه توفيق.

سيادة اللواء مستيقظ من نومه، ساخط وغاضب، أو يحاول أن يكون ساخطًا وغاضبًا، هو يعرف جيدًا أن اللواء شكري على وشك الرحيل وارتداء البيجامة -كما يقولون في الوزارة - ليس بسبب قضية تافهة

كتلك أو كقضية ذلك الفتى الهارب، بل إن سيادته قد كبر وأصابته الخشونة في ركبتيه وفي عقله أيضًا.

ـ لازم أفضل مفتح عيني يا فندم، ده أنا عامل التليفون على الفيبريشن عشان أعرف أركز.

ـ وعملت إيه بتركيزك ده؟

ـ لسه بنحقق في الموضوع وبنحاول نوصل..

ـ بتحقق في إيه يا توفيق، إنت داخل المطعم ده والمجني عليهم كانوا تلاتة، دلوقتي ما شاء الله ربنا وفقك وبقوا خمسة، نجاح منقطع النظير الحقيقة.

ابتلع السخرية والإهانة، وابتلع ريقه مع نفس عميق من سيجارته.

ـ أنا لميت التليفونات حاليًا سعادتك، وهحاول أوقف موضوع السوشيال ميديا ده لحد ما نلقط طرف خيط، وطلبنا حد من بتوع التكنولوجيا في الإدارة يجيلنا عشان نفهم مين بيسرب المعلومات دي.

ـ خطوة متأخرة أوي يا سيادة المقدم.

ـ بنحاول والله يا فندم على قد المتاح، المتاح هو..

ثم صمت توفيق، هناك شيء ما خاطئ في هذه المكالمة.

بهاء سنجر ـ المجني عليه الخامس ـ اختفى منذ عشر دقائق أو ربع ساعة لا أكثر، فكيف عرف اللواء شكري أنه اختفى، كيف وصلته المعلومة بأن هناك مجني عليه خامس؟!

ـ اللي حصل حصل يا توفيق وحسابنا عليه بعدين، لكن من دلوقتي

مش عايز خبر واحد يتسرب على السوشيال ميديا، كفاية الخبر الأخراني، بهاء سنجر دكتور أمراض نسا مشهور وناشط حقوقي كمان، ولما يطلعله فيديو وهو معصوب العين ومحطوط في عربية محدش هيسكت، واحنا مش ناقصين هيجان، كفاية اللي احنا فيه.

عن ماذا يتحدث اللواء شكري؟ أي فيديو وأي....

- هكلم حضرتك تاني مع السلامة.

ثم أغلق الخط دون أن ينتظر ردًا من اللواء، ودار بجسده من مواجهة الباب إلى المطعم، فقط ليجد شانت العجوز يقف أمامه حاملًا صينية خزفية عليها كوب قهوة كبير.

جفل توفيق، وكاد أن يصدم الصينية بيده، فنبتت ابتسامة ساخرة على وجه شانت، إلا أن توفيق تمالك نفسه بسرعة تضاهي سرعة اختفاء تلك الابتسامة الساخرة، وتناول كوب القهوة واتجه ناحية الطاولة.

فقط ليجد طارق أمامه.

- في حاجة غلط حضرتك، الفيديو اللي نزل على تويتر وانستجرام ده نزل بسرعة أكتر من...

- طارق، سبني لوحدي شوية بعد إذنك، وخلي عينك على السيرك ده.

ثم اجتاز طارق وهو يرشف من كوب القهوة ويتجه إلى المقعد.

وما إن جلس حتى رفع بصره ناحية رافي، الذي ينفث دخان سيجاره في الهواء الفاصل بينهما، ومن بين سحب الدخان يرى توفيق عينيه الملونتين وهما تنظران فوق رأس توفيق.

فالتفت توفيق إلى الحائط خلفه بنصف رقبة، ليجد تلك اللوحة الغريبة، لوحة سريالية أو تشكيلية أو أيًا كان اسمها، هذا ما فكر به توفيق، تبدو قريبة لشيء رآه في مكان ما، كل اللوحات تتشابه بالنسبة له، وهو لم يكن يومًا محبًا للرسم أو للرسامين.

لذا، فقد التفت توفيق ناحية رافي وبدير من جديد، ورماهما بنظرة مطولة متفحصة، ثم أشعل سيجارة وراح يرشف من قهوته، وعقله لا زال يدور كتربينة رياح في صحراء.

* * *

١٤

القاهرة

الرابع والعشرون من أبريل ٢٠١٥.. الرابعة وخمسين دقيقة صباحًا

التصق توفيق بالمقعد الذي يحتله جسده منذ أن جمع الهواتف ورصها أمامه كأنه أخصائي صيانة محمول في أحد المراكز، حتى أنه استخدم المناديل الورقية كلوحات تعريفية للهواتف، ووضع أسفل كل هاتف منديلًا ورقيًا، كتب عليه اسم صاحب الهاتف بخط سيئ كعادته.

على الطرف الآخر من الطاولة الخشبية، يجلس رافي كشيشيان، مستمر في تدخين سيجاره الضخم الفاخر، حتى قد يظن من يتابع تلك الليلة أن رافي ينوي قتل نفسه بالالتهاب الرئوي، بينما على يسار رافي يجلس بدير، وأمامه على يمين رافي، يجلس النقيب طارق أحمد، يرسم على وجهه تعابير الصرامة والانضباط، كما علمه توفيق طوال مدة خدمته المقربة منه في المباحث.

بينما على الجانب الآخر، يجلس فوق مقعد خشبي قديم، مخبر المباحث ذو الشوارب العملاقة، رأسه مائلة على صدره وفمه مفتوح يسيل منه اللعاب مع غطيط مرتفع، وخلفه تجلس عائلة كشيشيان، شانت وأمينة ومارايان وڤيكن الشاب الوسيم أو ڤيكي كما تلقبه عمته ماريان، والفتاتان الشابتان الجميلتان، نارية ونارين.

الساعة القديمة يتحرك بندولها مصدرًا صوتًا مرتفعًا، بدا رنانًا مرتفعًا وسط الصمت المخيم على المكان.

المقدم توفيق، لا زال محدقًا في الهواتف المحمولة، يقرأ الأسماء عليها، ثم مد يده وأعاد ترتيب الهواتف في وضع جديد.

أزاح هواتف عائلة كشيشيان جانبًا، عدا هاتف رافي، ثم رتبها على وضع الطاولة كما يجلسون.

ثم أخرج هاتفه من جيب سترته، ووضعه في المكان المقابل لهاتف رافي، حتى يبدو المنظر إذا رأيته من منظور علوي، كأنه تمثيل لوضع الطاولة التي يجلسون عليها.

رافي في المنتصف، على يمينه بهاء سنجر وليلى حسني وعاصم خورشيد، وعلى يساره بدير شاكر وفوزي جميل وميريت جميل.

ثم راح يزيل الهواتف واحدا تلو الآخر، حتى وصل إلى الشكل الذي تمثله الطاولة الآن.

هاتف رافي الأي فون الفخم في المنتصف، يقابله هاتفه السامسونج المتوسط الحجم والسعر، وبينهما هاتف بدير الفقير الصغير عديم التكنولوجيا.

- علاء بيرنلي يا فندم، تقريبًا وصل برة.

- طب اطلع هاته، وابقى اكرت البغل اللي نايم ده على قفاه، وروحه، إحنا مش ناقصين عاهات.

نهض طارق وذهب لتنفيذ التعليمات كما تعود، بينما أشعل توفيق سيجارة وهو يراقب الهواتف.

لم يرن أي هاتف من هواتف الضحايا الخمسة منذ وقت، الهواتف موضوعة أمامه صامتة هامدة كأنها جثث، فقط بعض التنبيهات التي تضيء الشاشة أو تضيء مصباحًا فوق الكاميرا الأمامية أو تضيء تلك اللعبة الصغيرة المتدلية من طرف هاتف ليلى.

ألا يوجد من يهتم بهم أو يسأل عنهم، ألا توجد زوجة أو صديق أو أخ أو عمة أو خالة؟! هو يتفهم كيف يكون المرء وحيدًا بلا أصدقاء، لا طالما كان كذلك، لديه العديد من المعارف و العديد من أصحاب المقهى أو المصيف، لكنه لم يكن صاحب صديق عزيز مقرب، كان هناك مقربون أيام الشباب، لكنه الآن لا يملك ذلك الصديق، وعلى الرغم من ذلك، فهناك زوجته وأولاده وأمه، الكل يتصل والكل يرسل برسائل وصور وباقات وورود الواتس آب السخيفة، لكن هؤلاء، فراغ، لا شيء.

دلف طارق ومعه علاء، شاب نحيف مصفف الشعر بعناية، يرتدي نظارة طبية أنيقة وثيابه مكوية منمقة.

- إنت متأكد إنك كنت صاحي من النوم ساعة ما طارق كان بيكلمك؟

- آه والله سعادتك.

- طب تعالى اقعد، تعالى.

أشار له فجلس على المقعد الذي كانت تحتله ميريت جميل في أول السهرة.

ـ أهو علاء ده بقى بنسميه الطالب النجيب، ما شاء الله عليه، دايمًا حالق، دايما شعره متسرح و يلمع، دايمًا هدومه مكوية، تحسه دخل شرطة غلط بعد هندسة، بس متفوق ما شاء الله، تخيل يا مستر رافي إن علاء أصغر نقيب في الداخلية كلها.

ابتسم رافي وهو يهز رأسه لعلاء، الذي بدا عليه الدهشة والإحراج في نفس الوقت، مما جعله يتنحنح ويقرب وجهه من توفيق.

ـ خير يا باشا، إنت مصحيني من أحلاها نومة عشان تتسلى عليًا.

جاوبه توفيق هامسًا:

ـ اتسلى على مين يا حمار إنت، أنا عايزك تمسك التليفونات دي كلها وتروح على الترابيزة اللي في آخر المطعم هناك.. أيوة اللي هناك دي، وعايز كل التليفونات دي مفتوحة ومفكوك شفرتها، عايز أشوف كل حاجة فيها وأي حاجة فيها، عايز أعرف كل حاجة عن أصحابها.

ـ بس سعادتك الموضوع ده محتاج وقت ومعدات، وأنا...

ـ ششششششش، إنت تعمل اللى بقولك عليه وتخلص، مش معاك اللاب توب بتاعك؟

ـ آه معايا.

ـ يبقى اسحب ياللا وخلَّص اللي بقولك عليه.

نهض الشاب وفتح حقيبته، ثم أخرج منها قفازًا مطاطيًا لبسه في

يده اليمنى، وكأنه طبيب على وشك فحص مريض، ثم أخرج كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا، وراح يتناول الهواتف واحدًا تلو الآخر، ويلفها في المنديل المستخدم كبطاقة تعريف، ويضعهم في الكيس الكبير، ثم حمل الكيس في يده واتجه إلى الطاولة التي أشار لها توفيق.

- منظم الولد، تلميذ نجيب بقولكم.

- توفيق باشا، أنا محتاج منك خدمة.

نظر توفيق ببطء إلى بدير، صاحب الجملة الأخيرة.

- خير يا متر؟

- الصراحة أنا محصور وعايز أخش الحمام.

- إتفضل، الحمام هناك آخر الطرقة.

نظر بدير يمينًا ويسارًا، وتعابير الإحراج تملأ وجهه فيميل شاربه على شفتيه.

- ما هو أنا محتاج منك خدمة في الموضوع ده.

- خدمة إيه يا متر؟ بسرعة قبل ما افهمك غلط.

قالها توفيق ساخرًا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، فنهض بدير واقترب منه، ومال برأسه ليهمس في أذنه ببضع كلمات، اتسعت لها ابتسامة توفيق.

- مش تقول كدة يا راجل، أكيد طبعا، نقيب طارق، يا طارق.

اقترب طارق من الطاولة من جديد.

- أؤمر يا باشا.

- المخبر فين؟

- روحته زي ما حضرتك قولتلي.

- مممم، طيب معلش حضرتك هتروح مع الأستاذ بدير لحد الحمام، وهتخليه يسيب الباب موارب وهتستناه في الممر.

كست نظرة استنكار على وجه طارق وهو يشير بيديه بإشارات استنكارية غير مفهومة، بينما توفيق يومئ برأسه له، فانخفض كتفا طارق، وأشار بيده إلى بدير، الذي هرول مسرعًا نحوه، بينما توفيق يضحك ضحكاته الساخرة المكتومة وجسده يهتز مع كل نفس في ضحكته.

وما إن وصل بدير إلى أول الممر، حتى توقف فجأة، ولف بجسده ناحية الطاولة، ثم راح يحدق في توفيق و طارق، ووضع يده على فمه، ثم حدث ما حدث.

شعر بدير بشيء ما يدير رأسه، في البداية كان جالسًا على الطاولة وشك في سكره الشديد وفرط تعاطيه للكحول، ثم بدأ ذلك الشيء ينمو في رأسه على الرغم من أكواب القهوة وكثرة شرب الماء، وأطباق المقبلات واللحوم التي التهمها، ثم بدأ الجفاف في حلقه، الجفاف الذي عب له خمسة أكواب من الماء، ثم ذلك الشعور الملح بالتبول وصداع مقدمة الرأس، والرعشة التي بدأت تغزو جسده.

كل ذلك تجمع في تلك اللحظة، وضغط على معدته الممتلئة، فارتفع الطعام عائدًا إلى المريء، ثم إلى البلعوم، ثم منفجرًا من فمه في هذه اللحظة.

راح يتقيأ بصوت مرتفع، فالتفت رافي ناحيته، بينما ارتسمت معالم التقزز على وجه طارق، الذي ابتعد خطوة إلى الوراء، بينما نهض توفيق من مكانه واتجه ناحيتهما مسرعًا.

وما إن وصل توفيق، حتى كان بدير قد أفرغ معدته، ملوثًا ثيابه والأرضية الخشبية و الحائط المقابل، ثم نظر من جديد إلى طارق، وأصدر سبة بذيئة من بين شفتيه الملوثتين بالقيء، وسقط على الأرض كجوال البصل.

ضاقت عينا توفيق وانعقد حاجباه وهو ينظر إلى الجسد الممدد وسط بحيرة القيء، بينما طارق يمسك هاتفه ويتصل برقم ما.

نزل توفيق على ركبته متحاشيًا بحيرة القيء، وحاول أن يتحسس نبض يد بدير، وسريان الدم في رقبته.

- النبض ضعيف أوي، ومفيش نفس تقريبًا.

قالها توفيق لنفسه، هامسًا بها وعيناه تضيقان أكثر، ثم حاول أن يهز الجسد الملقى بلا حراك، بينما عاد طارق من جديد إلى بركة القيء.

- أنا كلمت الإسعاف يا باشا.

- ها.

التفت توفيق ناحيته، وكأنه يسمع صوته لأول مرة.

- بقول لحضرتك كلمت الإسعاف.

- تمام، هو عايش، بس بيتهيألي ممكن ميوصلش المستشفى عايش، إنت عارف الساعة كام دلوقتي.

ـ تحب حضرتك أخده بعربيتي لحد المستشفى.

نظر توفيق إلى الجسد المسجى، لكن شيئًا ما لفت انتباهه.

هاتف محمول حديث، من أحد طرازات آيفون صغيرة الحجم، سقط على ما يبدو من جيب بدير، فانعقد حاجبا توفيق في غضب وهمس من بين أسنانه غاضبًا.

ـ يا ابن الكلب يا صايع.

ثم تناول منديلًا من جيب سترته، وأمسك به الهاتف،ثم استند بيده على يد طارق، ووقف يتفقد ثيابه من أي آثار محتملة للتلوث بذلك القيء وهو يعطي الهاتف لطارق.

ـ البيه كان معاه تليفون ومخبيه.

ـ خدت بالي يا باشا، كنت بقول لحضرتك تحب أخده المستشفى بعربيتي؟

ـ لا ، نستنى الإسعاف، هو غالبًا يا اتسمم هنا يا كان متسمم قبل ما يجي، بس الكحول الكتير هيج معدته وزود الحمض فيها فتقلصت ونطرت اللي فيها كله برة، لو كان واكل حاجة مش مظبوطة قبل ما يجي هنا يبقى طبيعي إنه يرجع دلوقتي، وماعتقدش إن حد سمه دلوقتي، هما مش أغبية للدرجة دي عشان يحطوله سم واحنا قاعدين هنا، وبعدين طالما رجَّع فا في احتمال إنه يستحمل لحد ما تيجي الإسعاف.

ـ والسؤال الأهم يا باشا، يسمُّوه ليه، أولًا سمعتهم هتبقى في الأرض والمطعم غالبًا هيقفل، ثانيًا بدير ده صديق لرافي ومستشار ليه، غالبًا مخرجه من تمن قضايا تعويضات وتأمينات وخصخصة وبلاوي زرقا.

- معاك حق.

تصاعد صوت سيارة الإسعاف يشق سكون الليل من خارج المطعم، فهب طارق ليفتح الباب للمسعفين، الذي اقتحموا المكان ناظرين إلى جسد بدير المسجى على الأرض وسط بركة القيء، فتعاون المسعفان ضخما الجسد على رفعه فوق المحفة المتحركة، وراحا يخاطبان بعضهما البعض، بينما اقترب توفيق من طارق هامسًا:

- اعرفلي هما رايحين مستشفى إيه، عايزك تطلع وراهم وتكلمني أول ما توصل المستشفى.

أومأ طارق برأسه ثم نظر حوله إلى المطعم ونظر إلى وجه توفيق، الذي أومأ برأسه له وضرب كتفه بيده المفتوحة، فانطلق طارق نحو سيارته التي أوقفها بجوار الرصيف أول الليل، وتحرك متعقبًا سيارة الإسعاف التي انطلقت تعوي مسرعة.

بينما عاد توفيق إلى داخل المكان، واتجه ناحية الطاولة التي يحتلها علاء، الذي بدا وكأنه منعزل في عالم آخر، ورآه يضع علامات على أوراق المناديل، فيما يبدو أنه تعامل مع تلك الهواتف وتمكن من فتحها.

- وصلت لإيه؟

- في خمس تليفونات فتحناها، اللي عليها أسامي غريبة دي، لكن التليفونين دول، بتوع بهاء وبتاع عاصم، معمول عليهم كذا ليفل سيكيورتي وفتحهم هياخد وقت.

- طب كمل شغل، محدش مننا هيتحرك من هنا إلا لما كل التليفونات دي تتفتح، ناولني التليفون ده، أيوة اللي مكتوب عليه رافي.

ناوله علاء هاتف رافي، فحمله واتجه إلى الطاولة، التي لا زال رافي يحتل مقعدها الرئيسي، فدار توفيق حولها وجلس على نفس المقعد، واضعًا هاتف رافي أمامه

ـ أظن كدة مفضلش غيري أنا، ناوي تخلص عليّا إزاي؟

ـ أخلَّص عليك يعني إيه يا توفيق بك؟ ما تحاسب على كلامك شوية.

ابتسم توفيق وهو يريح جسده فوق المقعد، ويده تقلب هاتف رافي.

ـ أنا مش هقولك افتحلي التليفون ووريني الرسايل، أنا عارف كويس إني مش هلاقي حاجة، بس أنا مش عايز اعرف غير حاجة واحدة، ليه؟

ـ ليه إيه يا باشا؟

ـ ليه اللي حصل ده حصل، أصله مش منطقي يعني إن يبقى عندك ست مدعوين، قاعدين فوق ترابيزة عشا، ويتصفوا واحد ورا التاني، إشي خطف وإشي ضرب نار وإشي تسمم وإشي حادثة.

ـ في حاجة بيسموها دكاترة الاقتصاد، قانون تجمع المصادفات، عارف البورصة وقعت إزاي في ٢٠٠٨ والبنوك فلست يا سيادة المقدم؟

ـ لا والله مش متابع.

قالها توفيق ساخرًا، فابتسم رافي وتابع:

ـ مجموعة مصايب حصلت في وقت قريب، اتجمعت مع بعضها في فترة قصيرة، فعملت مجموعة من التفاعلات، اللي مبتحصلش في وقت واحد أبدًا، لو كل حادثة منهم حصلت لوحدها كانت تبقى طبيعية

جدًا ومنطقية جدًا، لكن لما حصلت كلها مع بعضها في وقت واحد، الكل حس إنها مدبرة و مترتبة، برغم إنها بانت كده عشان الصدفة بس جمعتهم مع بعض في نفس اللحظة.

- تفسير مش بطال برضه، بس ما يملاش دماغ زينة بنتي.

هز رافي رأسه في عدم اهتمام، ثم نفث دخان سيجارته ونهض من مقعده وهو يغلق أزرار سترته.

- أعتقد كدة يا توفيق باشا إن النهار طلع، وإني محتاج أنام وأهلي الغلابة دول محتاجين يناموا، وإن حضرتك كمان محتاج تنام.

- محدش هيتحرك من هنا قبل ما اعرف اللي حصل.

- توفيق باشا، خليك واقعي، قعدتنا هنا كلها ملهاش لازمة، المطعم تحت أمرك، أرفع منه بصمات وفتشه من فوقه لتحته، أو حتى خلع خشبه وأرضياته لو حبيت، والموبايلات كلها معاك، بس احنا مش هنقعد هنا دقيقة كمان، أظن كدة كفاية بقى.

نهض توفيق عازمًا على الاعتراض، لكن هاتفه اهتز برقم اللواء شكري، فرفع يده ناحية رافي وأجاب:

- أيوة معالي الباشا.

- إيه التهريج ده يا توفيق، ست بني آدمين يتسمموا ويتخطفوا ويضرب عليهم نار وتخبطهم عربيات وانت قاعد بتتفرج، وكمان تهيج علينا الوزارة والسوشيال ميديا والاقي الوزير بيكلمني يسمعني كلام زي السم ساعة فجرية، هي دي ثقتي اللي...

- معاليك انتظرني بس أنا بحاول....

ـ مفيش معاليك وزفت، الناس اللي عندك دي تروحها على بيوتها بدون تأخير، السوشيال ميديا ملهاش كلام غير على الضابط الكبير اللى حاجز مجموعة بني أدمين غلابة جوة مطعم مشهور، ومعالي الوزير هددني إنه لو متصرفناش هيقعدنا كلنا في البيت قبل الشمس ما تطلع.

ـ يا فندم ما هو الموضوع مش هيتحل بين....

ـ توفيق، الكلام اللي بقول عليه يتسمع، تطلع الناس دي حالًا، وانا بعتلك فريق البحث الجنائي ومعاهم قوة من مباحث العاصمة، هم هيتولوا الموضوع ده، وانت تاخد بعضك دلوقتي وتروح بيتكم، واشوفك يوم الحد في مكتبي في المديرية.

الدم يهرب من جسد توفيق ويتجمع في أذنيه، والغضب يحتل ملامح وجهه والشرر يتطاير من عينيه.

ـ يا سيادة اللوا أنا مش هتحرك من مكاني قبل ما افهم إيه اللي بيحصل.

ـ إنت بتتحداني يا أفندي، ابلي قلته يتسمع بالحرف، ومش عايز مناقشة، إتفضل.

ثم أغلق اللواء شكري الخط، فشعر توفيق كأنما لطمته يد مصارع محترف، فأزداد احمرار أذنيه، ورفع عينيه اللتين تنثران شرر الغضب في وجه رافي، لتقابله الابتسامة الساخرة الهادئة من وسط دخان السيجار.

ـ عملتها إزاي من غير تليفونات؟!!

ـ إيه اللي أنا عملتها يا باشا؟

ـ الوزير والسوشيال ميديا.

- توفيق باشا أنا بحب الفير بلاي جدًا، ماليش في الأساليب الملتوية، أقسم لك بشرفي إني متصلتش بحد ولا كلمت حد، أنا سيبتك تعمل اللي انت عايزه فينا، بس انت مشكلتك إنك مش عايز تصدقني، دي حالة من حالات تجميع المصادفات ليس إلا.

ثم تقدم رافي من توفيق، ومد يده واضعًا إياها في يد توفيق اليمنى، وكأنه يرغمه على مصافحته، فسحب توفيق يده كأنما لمست ثعبانًا.

- فرصة سعيدة يا توفيق باشا، خلينا نشوفك.

- هتشوفني، متستعجلش على رزقك.

ثم خطا توفيق في هدوء ناحية باب المطعم، ووقف يشعل سيجارة في هواء الفجر، الشمس تبدأ ولادة صباح جديد، والشارع هادئ غاف في صباح الجمعة، وتوفيق يقف مضيقًا عينيه، ينفث دخان سيجارته، ينظر إلى هاتفه منتظرًا مكالمة طارق.

وفجأة رن الهاتف، أو اهتز، اهتز برقم غريب لا ينتمي إلى ارقام مصر بصلة، رقم يبدأ ب (+٩٦١) وتظهر تحته كلمة لبنان بالإنجليزية كعادة الهواتف الذكية.

نظر توفيق إلى الهاتف، وراح يقلب الأمر في رأسه لبضع ثوان، ثم أجاب المكالمة.

ظل توفيق صامتًا، ينتظر الفعل كي يكون رد فعل، فجاء الصوت واضحًا نقيًا صافيًا

- صباح الخير يا حضرة المقدم، طبعا انت ما بتعرفني.

- محصليش الشرف.

ـ غريبة، مع إنك كنت جالس على كرسي.

ـ إنت الضيف الغايب بقى، الصحفي بتاع السوشيال ميديا.

صوت ضحكة هادئة أتى عبر الأثير.

ـ ليش شاعر إنك مستعجب، ما كنت متوقع مكالمتي.

ـ كنت متوقع مكالمة تفسر لي حاجات كتير أنا مش عارفها، بس الصراحة مكنتش متوقع الصوت.

الضحكة ترتفع عاليًا في الهاتف وتحرق ما تبقى حيًا من خلايا مخ توفيق.

ـ كنت متوقع صوت ميكانيكي وحكي فاضي، هي الإشيا بتحصل بالأفلام يا مسيو توفيق.

ـ ما علينا، سيبك من اللي كنت متوقعه، حاول تكلمني عن اللي مكنتش متوقعه.

نظر توفيق حوله فلم يجد أحدًا، إلا أنه ابتعد قدر المستطاع عن بوابة المطعم، وراح يتقدم باتجاه الواجهة الخشبية الجانبية.

ـ شو بدك تعرف؟

ـ عايز اعرف إيه اللي حصل، ومين اللي دبره ومين اللي نفذه.

ـ هيدي أسئلة ما أملك كل إجاباتها، بس في عندي بعض الإجابات على أسئلة تانية.

ـ زي إيه؟

- متل سيارات الإسعاف مثلًا، بتعتقد أن بلادنا صارت بين يوم وليلة متقدمة ومتطورة منشان توصلك سيارات الإسعاف بعد عشر دقائق.

انعقد حاجبا توفيق، وأزاح الهاتف من على أذنه وراح يتطلع ساهمًا في الشاشة المضيئة بالرقم اللبناني.

- الدنيا في المعادي بتكون هادية شوية وقت الفجرية.

- لك هي المعادي صارت بألمانيا مثلا، وسع عقلك شوي يا حضرة الضابط.

- أنا هنهي المكالمة دي حالًا.

- لك وسع خلقك شوي يا رجل، ما بدك تعرف معلومة تانية بعد؟

- مش عايز اعرف حاجة، مع السلامة.

وهم أن يغلق الخط، إلا أن صوت مكالمة أخرى واردة يرن في أذنه، صوت الـ (waiting) كما يسميه حاملوا الهواتف المحمولة.

- بعرف إنه جايلك مكالمة تانية، بس قبل ما أفل، راح أعطيك نصيحة..

ثم صمت صاحب الصوت منتظرًا ردًا من توفيق، الذي صمت كقبر، فتابع الصوت بلا تردد:

- دير بالك من الجذور، دير بالك منيح.

ثم أغلق صاحب الصوت الخط من طرفه، فراح الهاتف يهتز بالمحاولة الثانية لصاحب المكالمة.

نظر توفيق إلى الهاتف ليجد رقم واسم طارق ينيران شاشة الهاتف،

فأجاب مسرعًا:

ـ أيوة يا طارق.

ـ توفيق باشا، حضرتك مش هتصدق اللي حصل.

ـ أنا بقيت أصدق حاجات كتير اليومين دول، حصل إيه؟

خلفية صوت طارق بها زحام شديد، كأنه يقف في بهو فندق مزدحم ليلة رأس السنة، أو في بهو مدرسة وقت انصراف الطلاب.

أو في استقبال مستشفى!

ـ أنا مشيت ورا عربية الإسعاف زي ما حضرتك قولت، ولقيتهم زي ما يكونوا رايحين على المستشفى التخصصي، قلت غالبًا دي المستشفى الوحيدة اللي رضيت تستقبلهم، وانا داخل على المستشفى فجأة سمعت صوت فرقعة تحت العربية، فردتين من الأربعة ضربوا وكنت هتقلب بيها لولا إني عرفت أسيطر في آخر لحظة، ولما دخلت الاستقبال أسأل عن الحالات التي وصلت النهاردة، اكتشفت إن مفيش حالات وصلت النهاردة، ومفيش عربيات دخلت المستشفى النهاردة طول اليوم، بدير ما وصلش على المستشفى هنا.

الدهشة، الدهشة الممزوجة بالشك والريبة هي عنوان توفيق الآن، هي شخصيته التي تستمع إلى تلك الكلمات.

ـ الموضوع مريحنيش يا باشا، اتصلت بمرفق الإسعاف، جاوبني موظف نص نايم تقريبًا، وبعد زعيق وخناق فهم إني ضابط مباحث وبدأ يساعد، تخيل حضرتك اكتشفت إيه..

ـ اخلص يا طارق، أنا مبحبش جو السسبنس الرخيص ده.

- مفيش ولا عربية إسعاف اتحركت النهاردة ناحية المعادي، مفيش عربية إسعاف طلعت من مرفق الإسعاف كله راحت المعادي كلها، مفيش يا باشا.

كان صوت طارق في هذه المرحلة قد وصل إلى الصراخ، صراخ اختلط بأصوات الممرضات وأصوات المرضى وأصوات موظفي الاستقبال وأصوات سيارة إسعاف تأتي من لاشيء.

- توفيق باشا.. إنت معايا؟

لا شيء يجيب سؤال طارق، ببساطة لأن توفيق وقتها شعر بلا شيء

فجأة تلاشى شعور الغضب والسخط والدهشة، وحل محلهم ثورة شك.

- طارق انزل عالاستقبال حالًا، عايزك تعرفلي ليلى حسني فين، وتطلع لحد الأوضة اللي محجوزة فيها.

- حاضر يا باشا، اعتبره حصل.

أغلق توفيق الخط، وتصاعد الأدرينالين إلى رأسه، وغامت أمامه رؤيا الفجر الوليد، وراح يهز ساقيه غضبًا وترقبًا، يحرق السيجارة في أنفاس متعاقبة كمن يستعد لدخول مقابلة هامة، وعيناه تراقبان الأفق المختبئ خلف بنايات قصيرة وأشجار وارفة.

دقائق الانتظار حرقت أعصابه المتوترة، حتى جاءته المكالمة.

- ها يا طارق؟

- في حاجة غريبة بتحصل النهاردة يا باشا.

ـ طارق..

قالها توفيق محذرًا متوعدًا فتابع طارق وهو يلهث كمن أنهى الماراثون:

ـ ليلى حسني موصلتش عالمستشفى هنا من الأساس.

ـ ما جايز يكونوا ودوها الهلال ولا ودوها أي مستشفى تاني.

ـ يا فندم أنا كلمت العمليات تاني، مفيش عربيات إسعاف خدت ليلى حسني، موظف الإسعاف كان بيكلمني وسنانه بتخبط في بعضها من الرعب، الإسعاف مشالتش حد يا توفيق باشا.

صوت طارق يأتي كأنه لهاث متصاعد من مكبرات صوت رخيصة في عرس شعبي صامت، على خلفية صفير أذن انفجرت بجوارها قنبلة، صفير متواصل وصوت يأتي على خلفية الصفير.

وتوفيق يكاد يضرب الحائط بالهاتف.

ـ روَّح يا طارق.

ـ حضرتك بتقول إيه، طب أحاول اتصل تاني واسأل على عاصم خورشيد.

ـ بقولك روَّح بيتكم، محدش شالته الإسعاف النهاردة من هنا، أو الإسعاف اللي جت هنا مكانتش إسعاف من الأساس.

ـ بس يا فندم..

زمجر توفيق غاضبًا، وأصدر أصواتا تشبه دبًا عبثت السناجب بعرينه.

ـ روح ارتاح و نام واشوفك بعدين.

ـ طب والحدوتة اللي حاصلة دي والناس المختفية والـ..

ـ مبقتش مشكلتنا يا طارق، بقت مشكلة ناس تانية غيرنا دلوقتي، سلام يا طارق.

ثم أغلق الخط دون انتظار الرد، وضغط على ذلك الزر في جانب الهاتف، حتى صمت الهاتف.

ثم أشعل سيجارة، ونفث دخانها رافعًا رأسه للأعلى كقطار قديم، وهو يتجه ناحية سيارته النائمة بجوار موقف السيارات.

وراح يمشي مشية من لا يهتم كثيرًا، مشية من كان يلعب مباراة شطرنج أمام جماهير عريضة، جماهير تعرف أنه لن يخسر المباراة بسهولة.

حتى عندما راحت قطعه تتساقط واحدة تلو الأخرى، ظلت الجماهير تهتف له، والقطع تتساقط واحدة تلو الأخرى، حتى أصبح الملك عاريًا في الهواء الطلق، لا يملك إلا الوزير المحاصر بقطع عديدة توشك أن تلتهمه، بينما الملك نفسه في مواجهة قطع توشك أن تحاصره.

والآن انفضت الجماهير من حوله، وسكتت الأصوات التي تهتف له، وعرف الجميع أنه على وشك الهزيمة، وبدأت جماهيره تنقلب عليه وتهتف لغريمه، غريمه الذي شغله بحماية ملكه، بينما يلتهم قطعه الواحدة تلو الأخرى.

لذا فسيرحل الآن، سيرحل دون أن ينظر خلفه، دون النظر للملك الذي أوشك على الموت ولا للوزير المحاصر في ركن اللوح.

جلس توفيق خلف المقود، ولأدار محرك سيارته

ورحل...

* * *

الفصل الثالث

هامغ ڤيرج

في أواخر ليلة خريفية

وسط عواء الريح المتذمر

ورذاذ المطر الرقيق

طفل بائس يتحسس الطريق

يخطو على الأرض الرطبة

رأسه طأطأها الأسى

وفي أعماق روحه المظلمة

موجة حزن تضرب قلبه

كالمطرقة

أندرانيج تساروكيان

١٥

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. العاشرة والنصف صباحًا

لا يعرف توفيق حقيقة منذ تزوج، ما هو الفارق بين يوم الجمعة والأيام الأخرى.

بالذات عندما يستيقظ المنزل بأكمله منذ الثامنة صباحًا، يبدأ الأمر بالأولاد، الذين تعودوا على الاستيقاظ مبكرًا بسبب المدرسة، ثم زوجته التي تستيقظ مع سماع أول صوت لسقوط كوب بلاستيكي في حوض الغسيل بالمطبخ، لتلعن وتسب للأطفال الذين لا يتركون المواعين على حالها ليوم واحد، ثم تندب حظها واليوم الذي صارت فيه أمًا، ثم تحتضن الطفلين وتصنع لهم فطورًا سخيفًا مما يحبه أطفال هذه الأيام، ثم تصرخ فيهم لأنهم صبوا الحليب بالشيكولاتة على الطاولة الخشبية أو فوق السجادة الحمراء، وتلعن اليوم الذي صارت فيه أمًا من جديد،

ثم تجلس معهم تشاهد الكرتون على التلفاز بنصف عين.

ويصحو توفيق بعدها، على وجهه علامات قلة الراحة، جفنان منتفخان وهالات سوداء، يمر بحجرة الجلوس في طريقه لباب الشقة، يتناول عدد الجمعة من جريدة الأهرام، ثم يلقي بكلمتين على رأس زوجته نصف الغافية في طريقه للحمام.

ـ إعمليلي القهوة.

ينعزل في الحمام قرابة الربع ساعة، يقرأ الجريدة بنصف عين، يتفقد صفحة الوفيات وصفحة الحوادث، ويقرأ خبرين أو ثلاثة من أخبار الصفحة الأولى، ثم يخرج ليشرب قهوته في المطبخ ـ إذا كان الوقت صيفًا ـ أو في الشرفة المطلة على شارع ضيق مزدحم بالسيارات ـ إذا كان الوقت غير ذلك ـ ويدخن سجائره وهو يستمتع بالقهوة وبقراءة الجريدة، حتى يكون إفطار الجمعة جاهزًا فوق الطاولة.

فقط في هذا اليوم، لم يتناول توفيق الجريدة، لم يطلب من زوجته أن تصنع القهوة، بل استيقظ من السابعة صباحًا، صنع قهوته بنفسه، خرج للشرفة بعلبة سجائره.

ببساطة، هذا ما أصبح روتينه اليومي منذ أن استلم كتاب الإيقاف عن العمل والتحويل للتحقيق.

صبيحة الاثنين السادس والعشرين من أبريل.

استلم الكتاب بيده في مكتب اللواء شكري، الذي أصر أن يسلمه هو الكتاب وليس السكرتارية أو شؤون الضباط أو أية جهة أخرى، حتى لا يذاع الأمر في الوزارة، وحتى لا يتلطخ اسم توفيق.

يا لرقة المشاعر!!

- مرهف أوي يا سيادة اللوا وبتخاف على شعور رجالتك صحيح.

يردد الجملة كما يرددها كل صباح، منذ صباح السابع والعشرين من أبريل، يرددها وهو يتذكر ذلك اليوم ويفتح الجريدة والسيجارة تتدلى من ركن فمه، يقلب الجريدة ويتجه إلى صفحات الرياضة والفن، وأي شيء إلا الوفيات والحوادث.

يرن هاتفه الملقى فوق الكومود بجوار فراشه، الهاتف الذي وضعه هناك على وضع الصامت منذ ذلك اليوم، يوم أن خرج من المديرية وهو موقوف عن العمل، لماذا أوقفوه عن العمل؟

- مخالفة القانون، واحتجاز مواطنين بلا أمر ضبط وإحضار، والإهمال مما يعرض حياة المواطنين للخطر.

- طب ما تضيفوا ليها يا فندم شوية تحابيش كده، زي الشروع في قتل أو اختطاف، لا نخليها اختطاف أحسن، اختطاف ستة مواطنين أو اختفاءهم قسريًا، صح قسريًا أحلى، أهو برضه نرضي الناس اللي عمالة تجعجع على تويتر من أول امبارح.

- إنت بتهرج يا أفندي، ده جزاتي إني خايف على سمعتك وصممت إني أسلمهولك بنفسي من غير ماحد يعرف.

- والله يا فندم أنا مبقتش عارف مين اللي بيهرج.

- لم لسانك يا توفيق، متخليش عصبيتك وعنادك يخلوك تقول كلام يخلي موقفك مش تمام.

يبتسم ساخرًا، كلما تذكر كلمات اللواء شكري، وكلما تذكر كلمات مثل (يخلوك) و(يخلي) التي امتلأت بها جملته، ويتذكر وجهه المنتفخ وعينيه التي توشك على البكاء.

ـ توفيق يا ابني، إنت عارف أنا بحبك وبثق فيك قد إيه، بس انا قعدتي هنا عرفتني حاجات كتير، لما الريح تشد، يبقى الوقوف قصادها انتحار، لازم نوطي دماغنا للريح شوية، روح بيتك، وآعتبر نفسك في إجازة، لحد ما الريح تعدي، وساعتها أنا بنفسي اللي هكلمك واقولك تعالى إرجع شغلك.

يجتر كلمات اللواء شكري، بينما يفتح باب الشرفة وتطل داليا برأسها منكوش الشعر، منتفخ الجفون، وهي تفرك عينيها كالأطفال.

ـ صباح الخير يا تيفا.

ـ صباح الخير.

ـ فطرت؟

ـ لا يا حبيبتي افطروا إنتوا.

ثم يدير وجهه إلى الجريدة من جديد، فتلتقط داليا الرسالة، لتعود إلى حجرة الجلوس، تحزم الروب حول قميص النوم، وتذهب إلى المطبخ، وتلقي بعينيها على الساعة المعلقة أمام باب المطبخ.

العاشرة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا.

لا بدَّ أن تأثير رحلة الأمس ـ التي صحبت فيها الأولاد إلى دريم بارك ـ قد جعلهم في حالة إرهاق تجعلهم ينامون حتى الظهيرة للمرة

الأولى منذ أنجبت الفتى الصغير المشاكس، سوف تفكر في أن تصحبهم إلى دريم بارك كل نهاية أسبوع.

وربما تأخذ توفيق معهم، ربما تلح عليه كي يترك كرسي الشرفة الخوص، والطاولة البنية المتقشر طلائها، وجريدة الأهرام، وعلبة السجائر ذات الفلتر الأحمر، وكوب القهوة الذي لا يفرغ حتى يمتلئ، والبيجامة الرياضية الرمادية التي رسم عليها شعار أديداس بالمقلوب على الصدر، والخف المنزلي.

ربما استطاعت أن تقنعه كي يخرج من شرنقته، كي يتحرك قليلًا بعد ثمانية عشر يومًا من العزلة.

جرس الباب يرن، وهو حدث عظيم لا يتكرر كثيرًا صبيحة يوم الجمعة في منزل المقدم توفيق إسماعيل.

في الواقع هو لا يتكرر كثيرًا في أي صباح.

تقف داليا على باب المطبخ، منتظرة أن ترى توفيق يتجه ناحية الباب، لكنه لا يتحرك، ربما لا يسمع.

تمشي بهدوء وهي تزيد من أحكام الروب فوق ثياب النوم، وتتنحنح ناظرة في العين السحرية.

ترى بتلك الصورة المحدبة، شابًا وسيمًا حليق الوجه، يرتدي سترة من القطيفة ـ كما تعرف عينيها الخبيرتين ـ وقميصًا أبيض، وينظر بتلك النظرة التي يجيدها أولاد الناس، عين نصف مكسورة الى الأرض ولكنها كذلك تنظر إليك بشكل ما.

ـ مين حضرتك؟

ـ صباح الخير، يا ترى المقدم توفيق موجود؟

ـ نقوله مين؟

ـ النقيب طارق الشريف، بشتغل معاه في المباحث.

لماذا لم يقل لها توفيق إنه عاد للعمل، أو أنه ينتظر ضيوفًا في هذا الوقت من صباحية يوم الجمعة؟

تمشي مسرعة نحو الشرفة وتطل برأسها من جديد.

ـ توفيق.

ـ خير يا ماما؟

ـ إنت رجعت الشغل إمتى؟

ـ النهاردة الصبح، بس كنت عاملهالك مفاجأة.

زامت شفتاها وارتفعت ملامح الاستنكار على وجهها.

ـ إنت بتتريق عليا!!

ـ أعملك إيه يعني يا داليا، مانتي شايفاني متنيل قاعد في البيت بقالي أسبوعين.

ـ تمنتاشر يوم.

ـ تمنتاشر زفت، أيًا كان، روحي ياللا شوفي اللي وراكي وسيبني أشرب القهوة، أقولك، إعمليلى قهوة تانية.

دخلت إلى الشرفة بنصف جسدها وهي تشير إلى كوب القهوة الممتلئ إلى نصفه.

- وماله دي؟

- بردت.

- مانت بتحب تشربها باردة.

- وغيرت رأيي وبطلت أحبها باردة، بقيت بشربها مولعة، يلا إعمليلك قفلة وإعمليلي قهوة.

أشاحت داليا بعينيها بعيدًا عنه، وراحت تتبرم بصوت منخفض، وهي تحمل كوب القهوة وتنوي الخروج من الشرفة.

- من غير برطمة وحياة أبوكي.

وقفت في منتصف الطريق ونظرت له في استنكار، وبدا من ملامح وجهها أنها تنوي التصعيد، لولا أن الجانب الطيب بها أمرها أن تصمت، وأن تكمل دور الزوجة الوفية الصامتة التي - تستحمل جوزها في وقت الشدة قبل وقت الانبساط - وبينما هي على باب الشرفة تذكرت الواقف بالباب، فرمت الكلمات على مسمعه بلامبالاة.

- في ضيف مستنيك على الباب برة، نقيب في المباحث اسمه طارق الشريف.

* * *

• و •

القاهرة

الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠٥ .. الثامنة وعشرون دقيقة مسَاء

يحب رافي هذا المطعم الأنيق المبني على واجهة نيلية في الزمالك.

ليس فقط بسبب المنظر البديع للنيل، خاصة في الليل عندما تنعكس الإضاءات صفحة الماء الساكنة، ليس بسبب جودة الطعام ولا طريقة تقديمه المبتكرة، بل بسبب الرقي.

الرقي هو ما يأسره، الرقي في كل شيء، الرقي من أول طريقة الاستقبال على باب المكان، لطريقة تنظيم الكراسي والطاولات، حتى طريقة تقديم الطعام، وطريقة رفع الأطباق و حتى طريقة تقديم فاتورة الحساب.

لكنه في ذلك اليوم، كان متوترًا قليلًا، ظهر ذلك في تلعثمه عند طلب طبقه المفضل، أو في طريقة حمله لكأس النبيذ الذي كاد يسقطه

فوق سترته الكريمية الفاخرة، أو حتى في طريقة تقطيعه لقطعة اللحم النصف مطهية، medium well كما ينطقها.

منذ ثلاثة عشر عامًا وهو ينتظر هذه اللحظة.

منذ أن قال والده، الملياردير الأرمني الأصل يعقوب كشيشيان، كلماته الأخيرة، وهو ينتظر هذه الليلة.

ستبحثون عن سيمون بابويان

ثلاثة عشر عامًا مرت، منذ أن قرأ ما وجده في المظروف الذي منحه أبوه له في لحظاته الأخيرة.

ثلاثة عشر عامًا مرت، وهو يبحث عن ذلك الرجل، هو وابن شقيقه، وصديق عمره، زاكار، يبحث عن صاحب الاسم، سيمون بابويان.

سافر إلى أرمينيا، فلم يجد له أثرًا، ثم سافر إلى فرنسا وأمريكا ودار حول العالم، طوال عشرة أعوام راح يقتفي أثره.

حتى عثر عليه زاكار أخيرًا، بعد ثلاثة عشر عامًا من البحث، عثر عليه في آخر مكان توقعه الباحثين.

في مصر.

في الواقع هو لم يعثر على المسيو سيمون بابويان بنفسه، لكنه عثر على سيمون آخر

في أحد فنادق شرم الشيخ، يجلس مستر سيمون بابويان الابن، خلف مكتب فخم في جناح فندقي فاخر يطل على البحر الأحمر.

رجل عجوز مجعد الوجه، في السبعين من عمره، يضم شفتيه فوق

سيجار كوبي فاخر، ويمتلك جواز سفر فرنسي وثروة لا بأس بها، وزوجة فرنسية حسناء تصغره بثلاثين عامًا، ومجموعة فنادق تنتشر في خمسين دولة على مستوى العالم.

وحدث الاتصال بين رافي وبين رجل الأعمال مختلط الجنسية، الأرمني المصري الفرنسي.

وبعد أن القى عليه رافي بالكلمات التي وجدها في المظروف، وبعد أن أخبره بالأسماء السبعة، صمت الرجل الوقور ثم قال بأرمنية ضعيفة مختلطة بالفرنسية:

ـ لنتقابل بعد ثلاثة أيام في مطعم الأنتيك بالزمالك، نعم، المطعم المفضل لك، في الثامنة والنصف مساءً.

وها هو رافي ينتظر اللقاء المرتقب.

* * *

١٦

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. الحادية عشرة وعشر دقائق صباحًا

بعد العديد من كلمات الترحيب، والسلامات، ثم كلمات الترحيب، ثم الدعوات للجلوس في الشرفة بدعوى أنها أكثر راحة وخصوصية، يجلس طارق على مقعد من الخوص أمام توفيق وبينهما الطاولة الخشبية التي تقشر طلائها.

- إزيك يا طارق؟ منورني والله.

- ده نورك يا باشا، والله ليك وحشة.

يبتسم توفيق في هدوء، ويشعل سيجارة جديدة بدلًا من التي أطفأها منذ ثوانٍ.

- أمال إيه طارق الشريف دي، إنت يا ابني مش اسمك طارق أحمد مصطفى عبد العظيم.

ـ ده انت حافظ اسمي كويس بقى يا باشا، ده ولا كأنك هتطلعلي بطاقة.

ضحك توفيق ضحكته الطويلة المرتفعة، الضحكة التي لم تخرج من بين شفتيه منذ أن جلس في المنزل، لبس البيجامة كما يقولونها في الوزارة.

ـ هو عمومًا أنا اسمي طارق أحمد مصطفى عبد العظيم أحمد، الشريف ده اسم العيلة حضرتك، بس مبيتكتبش في البطاقة غير الخماسي زي ما حضرتك عارف.

اومأ توفيق برأسه ثم حشر السيجارة من جديد بين شفتيه.

بينما طارق يتفحص ملامح وجهه.

ذقن غير حليقة غير مهذبة، والشعر المنحسر عن مقدمة رأسه هائش بلا نظام، يرتدي منامة رياضية عليها علامة أديداس معكوسة تملأ صدره المترهل، وبقعتان من القهوة وبقايا طعام ما تزينان الخليط فوق ذراعه وصدره.

مثال حي للفوضى والكسل، وكل هذا بعد أسبوعين فقط من الإيقاف عن العمل

ـ تمنتاشر يوم.

ـ نعم يا فندم.

أخرجته جملة توفيق من تركيزه، ذلك البدين ذو العينين الضيقتين يبدو وكأنه يقرأ أفكاره.

ـ بقولك بقالي تمنتاشر يوم قاعد زي خيبتها، طبيعي إنك تلاقيني بالمنظر ده.

- معلش يا فندم، إنت عارف إنها فترة مؤقتة وهتعدي.

- يا سيدي ولو معدتش، هيحصل إيه يعني.

قالها توفيق وهو يرشف من كوب القهوة بصوت مرتفع، ويمسح شفتيه بلسانه بالعًا ثمالة البن المتجمعة في قعر الكوب.

- أعملك قهوة؟

ينظر طارق إلى الكوب نصف الممتلئ أمامه، يبدو أن عقل توفيق ليس متوقدًا كما يظن.

- لما أخلص دي طيب.

- آه إنت قدامك قهوة أساسًا، معلش العتب عالنظر بقى.

صوت دقات خفيفة فوق زجاج باب الشرفة، يتبعها نحنحة نسائية لا تخطئها أذن توفيق، فينهض بلا أن يعدل ثيابه.

- ثواني يا طارق وراجعلك.

يجتاز باب الشرفة، ليجد داليا في كامل ثيابها مستعدة للخروج، بينما الفتاة والصبي يقفان في نصف حالة بين النوم والصحو، يفركان عينيهما المليئتين بعماص النوم، ويتثابان كأفراس النهر.

- إنتي رايحة فين إنتي والولاد بدري كدة؟

- ولا حاجة، أنا قولت آخد الأولاد عند بابا يقضوا اليوم النهاردة هناك، أهم يقابلوا ولاد خالاتهم وولاد خلانهم، ونسيبك براحتك برضه.

قالت جملتها بالكامل وهي تشيح وجهها ناحية باب الشقة.

- وانتي غضبانة وسيبالي البيت وكدة؟

- إخص عليك يا توفيق، ألا ما عملتهاش لما مديت إيدك عليًّا، هعلمها وانت في الحالة دي.

- إنتي لسه فاكرة؟

تلتفت نحوه، وتنظر في عينيه اللامعتين وعلى شفتيه شبح ابتسامة خافتة.

- أنا ما بنساش حاجة حصلت بينا لا حلوة ولا وحشة.

- طب يا ستي، ما تتأخروش عليًّا.

- هو انت مش هتيجي تاخدنا بالليل؟

قالتها باستنكار شديد، وعيناها مليئتان بالتحدي.

- خلاص خلاص، هعدي آخدكم بالليل، يلا اسحبي بقى عشان أشوف الضيف اللي عندي.

- إيه اسحبي دي، هو أنا أمين شرطة عندك في القسم.

أطلق ضحكة عالية لم تسمعها منذ عشرين يومًا على الأقل، ثم طوقها بذراعه وقبل رأسها.

- طب يلا شوفي طريقك، وأنا هكلمك وأنا جاي، سلام يا ولاد.

نظر الطفلان له في غباء وقلة تركيز، من بين جفون منتفخة، ثم أشارا له بيديهما وتحرك الجمع ناحية باب الشقة.

وما إن دخل من باب الشرفة، حتى وجد طارق يعبث في هاتفه

المحمول بتركيز جعله لم ينتبه لغلق باب الشرفة.

ـ يا ابني كفاية بقى البتاع ده هيجيبلك أتب من كتر حنية راسك عليه.

ـ لا والله يا باشا ده أنا كنت بسلي نفسي بس على ما تيجي.

ـ أخبار السوشيال ميديا إيه؟

اعتدل طارق ووضع الهاتف فوق الطاولة.

ـ الموضوع لسه مبردش، الكلام داير على إن اللي حصل ده كان عمل إرهابي، وناس تانية تقول إن عليهم تار بسبب إن أغلبهم ليهم أصول صعيدية، واللي يقول إن الحكومة خطفتهم عشان تداري على اختفاء بهاء سنجر، عشان هو ناشط وكده يعني.

ـ لا تمام، حاجة عظيمة، الحمد لله إن ربنا رحمني من السيرك ده.

ثم أشعل سيجارة جديدة، ورفع ساقه اليسرى مجاهدًا أن يضعها فوق اليمنى، ثم نظر إلى طارق نظرة (هات ما عندك) فبالتأكيد لم يأت طارق بعد غياب ثمانية عشر يومًا ليطمئن عليه فقط.

صحيح أن طارق كان لفترة لا بأس بها ذراعه اليمين، وواحد من أفضل الضباط الذين عمل معهم، لكنهم لم يكونوا أصدقاء ولن يكونوا، فتوفيق لا يعرف عن طارق أبسط المعلومات الأولية، يعرف أنه ضابط كان يعمل في مكافحة الشغب أو مكافحة الإرهاب، ونقل إلى المباحث وكانت قرعته في العمل مع توفيق، وربما يكون هو المرشح الجديد للجلوس على مقعد توفيق.

ـ الصراحة يا باشا أنا كنت جاي أسلم عليك.

ـ ليه، هم نقلوني السلوم، ولا رفدوني من الخدمة؟

ـ لا الموضوع ملوش علاقة بحضرتك، حضرتك عارف أكتر مني إن اللي حصل ده مجرد وسيلة معتادة عشان امتصاص غضب القيادات، حضرتك أدرى مننا باللوا شكري وطريقته.

ـ أمال نقلوك انت السلوم؟

ابتسم طارق وصوت ضحكة مكتومة يخرج من حنجرته.

ـ حضرتك عارف إني مش مرتاح في شغل المباحث.

ـ يعني حاجة زي كدة.

ـ وعارف إني بقالي فترة بحرجم على نقل لأي حاجة مريحة.

رفع توفيق كوب القهوة من جديد نحو فمه ليرشف الثمالة المتجمعة.

ـ مفيش حاجة في الداخلية مريحة غير إنك تسيبها.

ـ وهو ده اللي انا عملته.

توقف يد توفيق التي تحمل الكوب على طرف شفتيه، ثم أزاحت الكوب ووضعته فوق الطاولة.

ـ يعني إيه؟

ـ أنا كنت طلبت إعفائي من الخدمة خالص، يعني استقلت بالبلدي كدة.

ـ مانت عارف إن محدش بيستقيل في الداخلية، إنت تطلب والداخلية تفكر.

ـ واهي فكرت يا فندم و قررت والقرار هيصدر بعد بكرة الصبح.

نفث توفيق دخان سيجارته عاليًا، وهز رأسه وهو يقلب شفتيه في عدم رضا

ـ قرار مش موفَّق يا طارق.

ـ بالعكس يا فندم، أنا شايف إنه قرار متأخر كمان، الحمد لله أنا والدي سايبلي قرشين كويسين من أيام خدمته، ومعاشه كمان مكفيني وفايض، ووالدتي كمان بقت لوحدها بعد ما اختي سافرت، فقولت اريح شوية، وبعدين أشوفلي مشروع كويس استثمر فيه.

ـ ولحد ما تشوف المشروع وتستثمر، هتقعد قعدة زي قعدتي دي واكل شارب نايم يومك مقلوب ونومك مش منتظم وعايش عالة على فلوس أبوك، متزعلش مني أنا طول عمري صريح معاك.

ابتسم طارق وبدل من وضع ساقيه ثم رفع عينيه نحو توفيق من جديد.

ـ والله بفكر أسافر، إنت عارف حضرتك إن ليَّا قرايب في اليونان، ولاد خال ماما.

ـ لا والله اول مرة أعرف، هي ماما يونانية ؟

ـ لا جدها هو اللي يوناني، لكن جدي وماما مصريين قلبًا وقالبًا، بس خال ماما رجع اليونان من زمان واستقر هناك.

ربت توفيق بكف يده على ركبة طارق، وعاد بجسده للخلف مريحًا ظهره على ظهر المقعد شبه البالي.

- ربنا يعينك، واتمنالك كل خير في قرارك، انت ابن ناس ومحترم وتستاهل كل خير.

- أشكرك يا باشا.

ثم نهض من المقعد وأغلق أزرار سترته.

- ودلوقتي اسمحلي استأذن، عشان هبدأ أجهز نفسي.

- عالحامي كدة؟ ماشي يا سيدي.

ثم نهض توفيق وصافح طارق شادًا على يده، ومنحه ابتسامة مشجعة صادقة، ابتسامة جمع فيها كل ما شعر به يومًا من تقدير أو احترام لذلك الشاب، وخبأت كل مشاعر الغبطة والحسد الذي يشعر بها توفيق.

فلو كان القرار قراره لكان ترك الشرطة منذ أعوام عديدة.

لكنه لا يملك تلك الرفاهية.

- صحيح يا باشا، أخبار بحث الأرمن إيه؟

- بحث الأرمن بتاع إيه؟

- بتاع الأمورة الصغيرة، اللي كان مطلوب منها في المدرسة.

جاهد توفيق كثيرًا كي يتذكر، ثم ضرب جبهته بكف يده وهو يضحك ساخرًا من ذاكرته الرمادية.

- آه البحث، أهو عدى زي ما أي حاجة عندهم في المدرسة بتعدي، حياة بسيطة ولطيفة.

- على رأيك، أنا بس كنت حابب أساعد.

- لا مانت ساعدت بموضوع جوجل ده، تسلم.

مد طارق يده في جيب سترته الأنيقة، وأخرج أسطوانة مدمجة ناولها لتوفيق.

- إيه ده يا طارق، إنت صغير عالحاجات دي يا ابني.

صمت طارق للحظات، ثم ابتسم ساخرًا ما إن التقط تلميح توفيق.

- لا يا باشا، ده فيلم وثائقي عن الأرمن، لقيته صدفة على النت من كام يوم، قولت ممكن يساعد لو كان البحث لسه متسلمش يعني.

- يا سيدي شكرًا لذوقك، مقبول منك برضه.

ثم ألقى توفيق الأسطوانة فوق الطاولة، وصحب طارق إلى باب الشقة.

وقبل أن يخرج طارق من الباب المفتوح، تنحنح توفيق وسأله بلهجة متوسلة:

- طارق إنت متأكد إن الباب كان مقفول من جوة.

- باب إيه يا باشا؟

تفاجأ طارق من السؤال، وراح ينظر إلى باب الشقة مضطربًا وإلى وجه توفيق، الذي أطلق ضحكة ساخرة عالية ثم ربت على كتف طارق:

- لا ولا يهمك، متشغلش دماغك إنت، أشوف وشك بخير.

ابتسم طارق مرتبكًا، وهو يحمد الله في سره ألف مرة أنه لن يعمل تحت إمرة هذا الرجل من جديد، ثم انطلق يهبط درجات السلم.

بينما توفيق ينظر إلى السلم، وهو يتذكر تلك الليلة الغامضة السوداء، ثم تنهد وأغلق الباب في هدوء.

وما إن التفت، حتى وجد الساعة تقابله معلنة أنها تقترب بشدة من الثانية عشرة مساءً.

- نتوضى بقى وننزل نصلي الجمعة، وبعدين نبقى نجيب رغيفين طعمية ناكلهم.

قالها لنفسه، ثم التفت ناحية الأسطوانة الملقاة على الطاولة في حجرة الجلوس.

* * *

• ز •

القاهرة

الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠٥ .. الثامنة وخمسة وثلاثون دقيقة.

اخترق صوت السعال أذن رافي، فالتفت في توتر ناحية مصدر الصوت، ليجد عجوزًا أنيقًا، يرتدي حلة سوداء كاملة يعلوها معطف جلدي فاخر، ويضع كفيه في قفازين جلديين، بينما وشاح صوفي ملون بثلاثة ألوان، الأحمر والأزرق والبرتقالي، يلتف حول رقبته.

ابتسم رافي ونهض مغلقًا أزرار سترته مرحبًا، إن لم يكن هذا سيمون بابويان، فمن سيكون إذن.

- إنت رافي كشيشيان، صح؟

- هو بشحمه ولحمه.

تبادلا الجملتين بعربية مصرية خالصة، ثم تصافحا، ليترك الملمس

الجلدي لقفاز سيمون الفاخر أثرًا باردًا في كف رافي، بينما ناول سيمون المعطف الجلدي للنادل الذي حمله في تأدب وحرص واختفى كأنه لم يوجد.

- اعذرني لو اتأخرت عليك خمس دقايق، بس دي القاهرة للأسف.

- مفيش مشكلة، خمس دقايق مش كتير.

- لو اتأخرت عليًا خمس دقايق في باريس ممكن تيجي متلاقينيش، وده أول درس لازم تتعلمه مسيو كشيشيان.

ثم راح يخلع قفازه بهدوء وهو يقول بفرنسية راقية.

- le temps c'est de l'argent.

- مفهوم طبعًا.

ابتسم رافي، متذكرًا دروس أبيه الراحل له عندما كان في مقتبل مراهقته، بينما وضع سيمون القفازات جانبًا، والنادل الراقي يصب قليلًا من النبيذ في كأسه، بينما أشار رافي بكف يده في هدوء معلنًا اكتفائه من الشراب.

- CHÂTEAU DE LACROUX اختيار مش وحش.

- ممكن أطلب منك طلب.

- متتعودش تطلب كتير، أنا اختياراتي محدودة.

نظر رافي يمينًا ويسارًا بعينيه ثم تغيرت طبقات صوته وخرجت الحروف الأرمنية من فمه.

- هل من الممكن أن نتحدث بالأرمنية؟

- ولو اني أفضل الفرنسية أو العربية، لكن لا مانع، فأرمنيتي ليست على ما يرام، إنها الممارسة يا عزيزي.

- يمكنني أن أفهمك جيدًا، ولكني سأرتاح أكثر مع الأرمنية، فالموضوع الذي ستتحدث فيه يحتاج لبعض الخصوصية.

ابتسم سيمون وجرع جرعة أخرى من كأس النبيذ متابعًا:

- ومن قال لك إن الأرمنية لن تجد من يفهمها حولنا؟

- حسب قوانين الإحصاء، الاحتمالية هي واحد لكل عشرة ملايين.

- تبًا لقوانين الإحصاء، قوانين ميرفي تقول إن هذا النادل ربما يكون أرمنيا، أو ربما كبيرهم قد يكون أرمنيًا، أنت يا هذا..

راح ينادي بالأرمنية على النادل الشاب، فلم يلتفت له أحدهم، فتابع بالعربية مناديًا:

- أؤمرني يا فندم.

- هلا أتيتني بحساء هيليوم مع الكريمة.

قالها بأرمنية سليمة، فارتسمت ملامح عدم فهم لمدة ثوانٍ معدودة على وجه النادل المسكين، ثم اعتدل وهو يسأل:

- متأسف، ممكن حضرتك تكرر طلبك تاني، الظاهر إني مسمعتش حضرتك كويس.

- ولا يهمك يا ابني، عايز شوربة هيليوم بالمشروم، وياريت من غير ملح.

- تحت أمرك يا فندم.

ثم انصرف الشاب ملبيًا الطلب.

- تعجبني طريقة برهنتك على وجهة نظرك يا مسيو سيمون.

- أحب أن اتأكد بنفسي، والآن لندخل في الموضوع مباشرة، ماذا يمكنني أن اقدم لك؟

ثم أخرج من جيبه سيجارًا فاخرًا موضوعًا في أسطوانة معدنية، وأشار ناحية النادل الشاب، الذي أتى بطبق صغير به مقص سيجار معدني وقداحة كبيرة.

- لريف ڤير.

وما إن نطق رافي الكلمتين بالأرمنية، حتى بدا وكأن العالم كله قد توقف.

كأن الحياة أصبحت مشهدًا بالتصوير البطيء بالنسبة له ولسيمون بابويان الابن، فالبنسبة لرافي، تذكر يوم أن فضَّ المظروف الذي سلمه له أبوه وهو على فراش المرض، فتح المظروف فوجد به أربع ورقات:

ورقتان تحملان وصية يعقوب القانونية، توزيع أملاكه وثروته على أفراد عائلته، كتبت بعربية فصيحة على الآلة الكاتبة.

وورقة بها سبعة أسماء، كتبت بخط اليد المنمق بأرمنية سليمة، استنتج رافي أنها لا تخص أبيه، لانه يعرف خطه جيدًا ويعرف أنه أبعد ما يكون عن الكتابة بخط منمق.

و الورقة الرابعة بها جملة من كلمتين تعلو الورقة كأنها عنوان، بينما بقية الورقة خالية تمامًا.

وكانت هذه الجملة ببساطة هي (لريف ڤير) أو كما ترجمها بالعربية (الانتقام الكامل).

بينما بالنسبة لسيمون، فقد أعادته الجملة إلى العام ١٩٨٥.

في ذلك الوقت، كان سيمون يستعد ليحمل على عاتقه حفظ تركة أبيه الموشك على الرحيل، التسعيني الغائب عن الوعي سيمون بابويان الأب، وبصفته الولد الوحيد، فلم يكن هناك من يدير هذه التركة سواه.

يتذكر جيدًا ذلك اليوم الشتوي الممطر في أواسط يناير، يوم أن جلس على المقعد الجلدي الفاخر في جناح أبيه بأحد مستشفيات سويسرا، حيث راح العجوز التسعيني يشير بإصبعه في الهواء، كاتبًا كلمات لم يرها سوى سيمون الابن، الابن الذي تعود على هذه الطريقة في التواصل مع أبيه العجوز منذ فقدان النطق وهو في أوائل تسعيناته.

يذكر جيدًا أن كلمات أبيه المكتوبة على ورقة الهواء الوهمية لم تحمل سوى جملتين

ابحث عن المؤسسين السبعة

و الجملة التي نطقها رافي كشيشيان منذ دقيقة

الانتقام الكامل

رفع سيمون عينيه الرمادتين نحو رافي، وراحت أصابعه المجعدة تقص طرف السيجار في هدوء، ثم رفع السيجار إلى شفتيه، وأشعله بضربتين من القداحة الكبيرة، بينما أخرج رافي علبة سجائره المعدنية، وأشعل سيجارة أمريكية ذات فلتر أبيض وشريط فضي:

- ما علاقتك بهاروت كشيشيان؟

ـ أنا حفيده، ابن....

ـ يعقوب كشيشيان، بالتأكيد أنت كذلك.

ـ هل رنت الكلمات أية أجراس في رأسك؟

ابتسم سيمون، ونفث دخان سيجارته في هدوء، ثم أشار بطرف السيجار إلى يد رافي.

ـ لا بد أن تتوقف عن شرب السجائر، وتبدأ في تدخين السيجار.

ـ لكل منا مزاجه الخاص يا سيدي.

ـ منذ اليوم، لا شيء خاص يا عزيزي، لقد اخترت بإرادتك الحرة أن تنفذ وصية جدك هاروت كشيشيان، ووصية أبيك يعقوب، لذا فلا شيء خاص من الآن.

ـ ماذا تعني، أنا لا أفهم شيئًا؟

ابتسم سيمون وهو ينظر إلى النادل القادم في اتجاههم، وترك له المجال حتى يضع الحساء والمعالق بجواره، ثم انحنى النادل نصف انحناءة ورحل عن الطاولة.

ـ ستفهم، سأخبرك بكل شيء، ولكن عليك أن تتذكر، كل شيء قبل الليلة لن يكون كما هو بعدها.

❋ ❋ ❋

• ١٧ •

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. الواحدة ظهرًا

جلس توفيق يلهث على الأريكة في حجرة الجلوس، بعد صعوده السلم لأربعة طوابق متتالية، لأن المصعد معطل، معطل في صبيحة يوم جمعة، حيث لا أحد يعمل ولا أحد يجيب استغاثات السكان.

ـ يلعن أبوكو ولاد كلب، على آخر الزمن أطلع أنا تمانين سلمة، ليه لاقي صحتي في الشارع؟

ثم مد يده وتناول سيجارة من علبته القابعة أمامه بجوار المنفضة الزجاجية النظيفة، والتي تضعها داليا فقط كديكور على الطاولة، حيث لا تسمح لسيادة المقدم بالتدخين في حجرة المعيشة.

ـ مش عايزة الأولاد يلقطوا منك الأتيتيود ده.

كرر الجملة على لسانه مقلدًا طريقتها، ثم ضحك ساخرًا وهو يشعل السيجارة ويسحب دخانها في تلذذ.

وعندما انخفض بصره وانقشع الدخان، وقع بصره على الأسطوانة التي تركها له طارق، نائمة بجوار الكمبيوتر اللوحي، أول جهاز إلكتروني اشتراه لنفسه، ثم استولت عليه قوى العدوان الغاشمة، زينة ومحمود.

- لا يا توفيق، مش طالبة خالص أفلام تسجيلية، خلينا نشوف في إيه في البتاع ده.

تناول أحد أجهزة التحكم من جانبه، ليجده جهاز تحكم مشغل الأقراص أو «الدي في دي»، فألقاه على الأريكة بجواره وبحث عن جهاز التحكم في التلفاز فلم يجده، فنهض من مكانه متثاقلًا ليفتح التلفاز يدويًا، ثم عاد إلى الأريكة وطوح بحذائه الخفيف الذي يستخدمه في التحركات القريبة، وبدأ يقلب في قنوات جهاز الاستقبال.

راح المؤشر يتعالى ويتزايد، فمن مباراة كرة قدم معادة بين المقاولون والأوليمبي، لماذا بحق السماء قد يهتم أحدهم بمباراة المقاولون والأوليمبي؟!! إلى فيلم من بطولة كمال الشناوي وصباح، وهو يمقت كمال الشناوي ويكره صوت صباح، إلى مسلسل من بطولة فريد شوقي، ينطق فيه بحكم ومواعظ معلبة عن الحلال والحرام والذمة والضمير، إلى فيديو لراقصة ما من شرق أوروبا تتلوى في حركات ميكانيكية صماء أبعد ما تكون عن الرقص.

إلى إعادة لحلقة من برنامج ما يتحدث عن سر اختفاء نجوم المجتمع الستة من مطعم البيت.

- إيه القرف ده؟

ببساطة، هذا أكثر ما يكرهه توفيق في التلفاز، لذا فقد ألقى بالريموت، تاركًا الغرفة نحو المطبخ، والصوت القادم من التلفاز لكمال الشناوي يعمل بجد كخلفية ليومه الممل.

ـ إحنا نشرب القهوة، و بعدين نناملنا ساعتين كده، ونقوم ننزل نجيب داليا والعيال، بلا قلبة دماغ.

راح يحضر القهوة، وصوت صباح بدأ يتصاعد بأغنية تعزفها فرقة موسيقية كاملة، لكنها تغنيها في حديقة هادئة وبجوارها كمال الشناوي يلاعب شواربه السميكة.

بينما أمام القهوة سرح بصر توفيق قليلًا.

سرح إلى العام ٢٠١٠، تحديدًا شهر فبراير.

كان وقتها نقيبًا على شفا رائد، يعمل في أحد الأقسام بحي شعبي عامر بكل أصناف البشر، وضابط المباحث في الحي الشعبي المزدحم يعمل كثيرًا وله أيضا سلطة كبيرة، فلا أحد يحب أن يغضب الباشا ولا أحد أيضًا يقدر على فعل شيء بلا موافقة الباشا ومباركته.

في تلك الأيام، كان نشيطًا متوقد الحماس، يدخل القسم في السابعة صباحًا ويتناول إفطارًا دسمًا، ويخرج من القسم قبل منتصف الليل بقليل، وبرغم أنه كان متزوجًا من فترة لا بأس بها، إلا انه كان منكبًا على عمله كالأرملة المعيلة، لا يكل ولا يمل.

إلى أن جاء ذلك اليوم..

في ذلك الصباح الذي لا ينمحي من ذاكرته، استيقظ متأخرًا متعكر المزاج، وجرح ذقنه مرتين وهو يحلقها أمام مرآة الحمام، وأطلق سبتين

بذيئتين بصوت مرتفع حينما فتق بنطاله وهو يحاول ارتداء حذائه، ثم رفع عقيرته الصاخبة بالصراخ الهيستيري في وجه زوجته الشابة لأنها مدللة مترفة، لم تتعلم في بيت أبيها كيف تخيط أزرار قمصان زوجها، وشرب كوبين من القهوة على معدة خاوية، وحرق نصف علبة سجائر في طريقه من المعادي إلى الحي الشعبي الكائن في أطراف شمال القاهرة، وصدم سيارة كانت تقف بجوار باب القسم اتضح أنها سيارة وكيل نيابة، وكادا يشتبكان أمام أعين الأمناء والجنود لولا المأمور الذي فض الاشتباك واعتذر لسعادة المستشار عن تعكر مزاج ضابطه الصغير، وعزا الأمر إلى الضغوط والمشاكل التي يواجهها الضباط للحفاظ على أمن البلاد من المجرمين والمخربين... إلخ.. إلخ من هذه الخطب المحفوظة.

وبعد تسع أكواب من القهوة المركزة، وخمس قطع من المخبوزات شديدة الحلاوة والتركيز السكري، وبعد مرور ساعتين فقط من ولوجه من بوابة القسم، تصاعد الألم أولًا في فم معدته وظن أنه من اثر فساد المخبوزات، فأقسم أن يؤدب صاحب الفرن الآلي، ثم انتشر الألم من فم المعدة الى الصدر، فالرقبة، فالكتف الأيسر، وضاق تنفسه، وبدأت عيناه تثقل، ثم خر مغشيًا عليه محدثًا ضجيجًا لا يحدثه دولاب معدني سقط من شرفة طابق مرتفع.

وبعد ساعتين من وصوله للمستشفى، ومن المداولات والمناقشات والصراخ والبكاء والعويل، قرر الأطباء أن الدعامة القلبية قد وجبت، وأن قلب الضابط الشاب لن يعود شابًا، وأنه لا بد من بعض الراحة.

تذكر توفيق ذلك الصباح الذي يكرهه ويكره ذكراه، لكن صوت اصطدام القهوة الساخنة الفائرة بعين البوتجاز، أخرجه من ذكرياته

الأليمة إلى واقع أكثر إيلاما، إلى قهوة فائرة، وإلى عمر فارت سنينه وفسدت كالقهوة، وإلى حياة كسولة مملة تحولت إلى نصف حياة، فقط لأنه جلس عاطلًا بالمنزل لثمانية عشر يوما.

- يعني هي جت عالقهوة صحيح.

قالها لنفسه، ثم صب المتبقي من القهوة في الكوب الزجاجي، وذهب إلى الطاولة من جديد.

كمال الشناوي يقف ممسكًا بسيجارته اللاكي سترايك، يولي صباح ظهره وهو يصارحها بأنه زير نساء لم يعرفها إلا ليغرر بها.

سحب رشفة من القهوة، وأعجب بصنعة يده التي لم تخب أبدًا، ثم قرر أن الوقت قد حان لإنهاء هذا الملل.

لذا، فنهض متثاقلًا، وأخرج الأسطوانة من غلافها، ثم أدخلها في فتحة الجهاز الأسود القابع أسفل جهاز الاستقبال، وهو يلاحظ طبقة الغبار السميكة التي تجمعت فوق مشغل الأسطوانات.

- إزاي البيت ميبقاش فيه «دي في دي» يا توفيق، طب افرض حبينا نشوف فيلم.

ردد الجملة ساخرًا من طريقة زوجته، وزام بشفتيه مقلدًا طريقتها، ثم ضحك ساخرًا من نفسه وهو يرشف القهوة، ويده تضغط زر التشغيل.

- أخيرًا بقى ليك فايدة أهو.

ثم أمسك بجهاز التحكم، وحول مصدر الصورة في التلفاز إلى مشغل الأسطوانات.

بدأت الموسيقى المليئة بأصوات المزامير والقيثارات في خلفية سوداء، ثم ظهر شعار الشركة المنتجة، وبدأ الصوت الرخيم يتحدث على خلفية صورة ثابتة.

«إن جرائم التطهير العرقي والعنصري، قديمة قدم التاريخ نفسه، فعندما قتل قابيل أخاه هابيل، كان المقصد من الجريمة هو إزالة هذا العنصر الطيب المتسامح من الأرض، ثم أصبح الحل الأسهل في التعامل مع من يختلف معنا في النشأة أو اللغة أو الدين أو حتى المذهب الديني، هو القتل، القتل وبلا رحمة».

راحت الصورة تتحرك على فيديوهات قديمة وحديثة بينما الصوت يعود على خلفية الموسيقى.

«المغول ضد الطاجاك، العباسيون ضد العلويين، الكاثوليك ضد البروتستانت والعكس، العثمانيون ضد الأرمن».

ثم ارتفع صوت الموسيقى عاليًا، وظهرت كلمات توضح عنوان الفيلم

«في ذكرى المذبحة .. الرابع والعسرين من أبريل»

وهنا رن جرس صاخب مرتفع في عقل توفيق

فاعتدل في جلسته، ورفع الصوت

وغاص عقله في داخل الصورة

* * *

• ح •

القاهرة

الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠٥ .. التاسعة والربع مساءً

أشعل سيمون سيجاره المنطفئ من جديد، وراح يكمل وهو ينفث دخانه

- في العام ١٩٠٦، ولدت إلى النور ما عرفناه لاحقاً بجمعية الاتحاد والترقي العثمانية، ولدت على أنقاض جمعيات ثورية وإصلاحية وليبرالية، ولدت لتحارب استبداد السلطان العثماني، ولتطالب بدستور حر، ولدت كي تكون أملًا لكل من يعيشون تحت مظلة عبد الحميد الاستبدادية، وظلت تحارب الاستبداد والظلم حتى تحقق لها ما أرادته، في عام ١٩٠٨ وبعد العديد من المحاولات فوق الأرض وتحت الأرض، وصل الاتحاديون إلى الحكم، وأصبحت تركيا العثمانية دولة دستورية، يجلس فيها سلطان مخوخ معدوم القوة على عرش في الباب العالي، ويحكمها حزب بدأ كحركة ثورية.

تململ رافي في جلسته قليلًا، فهذا السيد العجوز يتكلم بلهجة شبيهة بلهجات الأفلام التسجيلية الوثائقية، لماذا لم يرسل له بفيلم وثائقي يشاهده في المنزل على جهاز الفيديو بدلًا من هذه الخطبة.

بينما أكمل سيمون وكأنه يخاطب جمهورًا وهميًا في مؤتمر سياسي:

ـ وبعد أن صبغت السياسة صبغتها، وحولت الطماعين الشرفاء إلى حفنة من عباد الكراسي طالبي السلطة، وبعد أن ملَّ الاتحاديون من وجود السلطان ومحاولاته زعزة ملكهم وسلطانهم، استعانوا بالعسكر وبالعصابات المرتزقة، ودبروا ما حدث عام ١٩١٣، حتى خلعوا السلطان عديم القوة ووضعوا مكانه صورة لسلطان، شيء لا غاية منه إلا أن يضيفوا شرعية زائفة على حكمهم القائم بقوة السلاح، وبدءًا من العام ١٩١٤ بدأ الاتحاديون في السيطرة على الدولة العثمانية المتفككة المريضة، وتحول الرجل العجوز إلى رجل عجوز مهلهل الثياب، متقطع الأذرع، و اصبح الوزير الأول هو السلطان الجديد.

ـ دائمًا ما تكون القصة بنفس الشكل، بالنسبة لي التاريخ ما هو إلا محاولات مستمرة لتكرار محاولات سابقة، والأغبياء فقط هم من يظنون أن النتيجة ستتغير.

ـ لم تتغير النتيجة كثيرًا، تحول الحكم الليبرالي إلى حكم ديني باسم الإسلام والسلطنة و الدستور المنتهك، لكن تحت الأرض، صنع أنور باشا، أحد ثلاثي الاتحاد والترقي المؤسس، جهازًا سريًا خطيرًا، أعضاؤه ممن يسمونهم الفدائيين، لا يتورعون عن فعل أي شيء لخدمة الدولة العثمانية، بل ولا يتورعون عن رمي نفسهم في النار لتحقيق أي انتصار، مجموعة من الشباب الحالم، مغسولي الدماغ ومنزوعي الرحمة، كان له دور كبير في الفظائع التي ارتكبت لاحقًا.

* * *

• ١٨ •

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. الواحدة والربع ظهرًا

راحت سحب الدخان تتصاعد من أنف توفيق، فبدا كقاطرة بخارية مسرعة، وهو يركز عينيه على شاشة التلفاز، وأذناه تنهلان من الصوت الخارج من السماعات المنتصبة بجواره.

«في العام ١٩١٥، تصاعدت حدة الخلافات بين النخبة الحاكمة وبين الأرمن، على خلفية هزيمة قوات أنور باشا على الجبهة الروسية، وما إن عاد أنور باشا إلى إسطنبول، حتى بدأ في استخدام مشايخ الدولة، وأعلن الحرب على المسيحين الكفار في البلقان وأرمينيا والأناضول، ثم أمر أنور باشا بتسريح الجنود الأرمن من كتائب الجيش التركي، وبرر ذلك بأن الأرمن بطبعهم ميالون ناحية الروس، وأنه لن يسمح بوجود خونة يحملون السلاح في صفوف الجيش التركي».

عاد توفيق بظهره إلى الوراء مستندًا على الأريكة الوثيرة، وقال وهو يطفئ سيجارته هامسًا:

ـ كلام أنور باشا ده منطقي برضه.

بينما تصاعد الصوت من التلفاز، على خلفية صورة بالأبيض والأسود تظهر عشرة من الرجال، ملامحهم أوروبية شرقية، ووجههم تحتلها شوارب ولحى كثيفة.

«في فجر الأحد الدامي، الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩١٥، أصدر وزير الداخلية طلعت باشا، مرسومًا بالقبض على مائتين وسبعين شخصًا من الأرمن، مثقفين وشعراء وكتاب وتجار وموظفي بنوك، وأساتذة، وقيد الجمع المقبوض عليه إلى إسطنبول، حيث أعدموا جميعًا وبلا رحمة».

بقعة دم نبتت بشكل مفاجئ على الشاشة، فطرفت عين توفيق.

«وأصدرت الحكومة التركية بيانًا، طالبت فيه الشعب التركي بالجهاد ضد الخونة المرتزقة من الأرمن، وصعدت تحركات جيوشها وكتائبها وأجهزتها السرية، ومن بين هذه التنظيمات السرية، تنظيم تركي أسسه أنور باشا عام ١٩١، وشكله من نخبة من الطلاب والمزارعين والجنود السابقين، الجهاز الذي كان نواة لتشكيل قوة استخباراتية كبيرة، عرفت باسم تركي شهير».

* * *

• ط •

القاهرة

الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠٥.. العاشرة مساءً

ـ تشكيلات مخصوصة.

قالها رافي بالتركية ـ التي يجيدها كأهلها ـ مبتسمًا في وجه سيمون، بين سحب الدخان الخارجة من سيجاره الفاخر.

ـ يبدو أن هاروت كان مدرس تاريخ بارعًا، حتى في المنزل.

ـ في الواقع لم يسعدني الحظ أن أقابله، فأنا ابن يعقوب الذي جاء في الشيب، لكن يعقوب كان أيضًا مدرس تاريخ جيدًا، ولكنه كان حرًا، فري لانسر كما يسمونهم هذه الأيام.

اتسعت ابتسامة العجوز، وكشفت عن صف أسنان صناعي ناصع البياض.

ـ إذن فأنت تعرف ما حدث بين ١٩١٥ و١٩١٧، لا داعي أن أقص عليك هذه القصة إذن.

ـ كل طفل يبلغ من العمر عشرة سنوات تربى لوالدين أرمنيين يعرف ما حدث بين العام ١٩١٥ والعام ١٩١٧.

ثم اقترب رافي بوجهه من الطاولة، حتى إن رأسه أوشك على العبور ناحية سيمون، وقال ضاغطًا على حروفه:

ـ هلا ولجت إلى صلب الموضوع يا سيدي.

ـ لك ذلك، ولكن بعد الكأس التالية.

ثم رفع يده باتجاه النادل الواقف في منطقة الطاولات التي يجلسان فيها، فتقدم منهما حاملًا زجاجة نبيذ، وملأ الكأسين، فأعطاه سيمون إشارة بالرحيل ليعود أوتوماتيكًا إلى مكان وقوفه السابق.

قال سيمون بينما يرشف من الكأس في هدوء:

ـ مثلما صعدوا مثلما انهاروا، تقول أمي إن انتقام الرب كان كبيرًا ضد هؤلاء السفاحين، وأنهم طردوا وشردوا وقتلوا وسجنوا وعاشوا حياة المنفى كما فعلوا باليونانيين والمصريين والسوريين والأرمن، أنت تعرف أنهم حوكموا على ما فعلوه أثناء حكمهم، وأنهم طردوا وسجنوا كجزاء على ما فعلوه.

ـ هنا يختلف معك يعقوب، يعقوب قال لي إنهم حوكموا وسجنوا وطردوا على تهم سياسية وكجزاء لهم على ما فعلوه بدولتهم، لكنهم لم يعاقبوا عقابًا إلهيًا كما قالت والدتك، الرب لا دخل له بما حدث معهم.

هز سيمون رأسه وقلب شفتيه في عدم اقتناع، صلب الرأس متوحد الرأي كما بدا لرافي منذ أول الجلسة.

- انحل تنظيمهم السري، وتشردت أوصاله، ولم يبقَ منهم سوى شراذم قليلة، لكن ليس كل ما يتبقى بعد الطحن يلقى للماشية، من بقي منهم، كان كافيًا كي يبدأوا من جديد.

وهنا بدأ سيمون يجذب اهتمام رافي.

* * *

١٩

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. الثانية وخمس دقائق ظهرًا

جلس توفيق على الأرض، مربع الساقين، علبة السجائر وكوب القهوة الجديد الممتلئ كثيف الرغوة يجلس بجواره، وعيناه تراقبان التلفاز، بالذات ذلك المقطع الذي يعيده للمرة الرابعة.

«وبعد أن صدر قانون التهجير، أصبح كل شيء رسميًا، وأصبح اشتراك كل تركي في عمليات تهجير الأرمن، وذبحهم، وقتلهم، واغتصاب نسائهم وفتياتهم عملًا وطنيًا، وواجبًا دينيًا كما روج له مشايخ السلطان، فقط استبدل السلطان هنا بثلاثة سلاطين، هم قادة جمعية الاتحاد والترقي، طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا».

ثم راحت الصورة تنتقل إلى مشاهد إعدامات جماعية، وجثث متكومة فوق بعضها البعض، ومسيرات بالطوابير في الصحراء يحرسها مدنييون يمسكون بأسلحة.

- زي ما تكون فلسطين بس في حتة تانية.

همس بها توفيق لنفسه، وهو يعض فلتر السيجارة النائمة بين شفتيه، بينما يتابع الصوت.

«ولعب أعضاء التنظيم السري، أو تشكيلات مخصوصة، دورًا محوريًا في هذه العمليات، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا هم رأس الحربة، والقادة الفعليين لعملية الإبادة الجماعية، والمذابح البشعة التي ارتكبت في حق مواطنين عزل، لا يملكون حتى وسيلة يدافعون بها عن نفسهم».

ثم بدأت تظهر على الشاشة صور متتابعة، أناس معلقون على أعمدة خشبية، مجردين من ثيابهم، عوراتهم مكشوفة ووجوههم ذهبت منها الحياة.

«ما بين مليون ومليون وخمسمائة ألف شخص، لقوا حتفهم، بين عمليات إبادة جماعية، وحرق، واغتصاب، وتجويع، والبقية لقوا حتفهم في الصحراء القاحلة، حتى هؤلاء الذين وصلوا إلى بر الأمان في سوريا أو في لبنان أو في مصر، لن تنمحي من كوابيسهم هذه الجرائم البشعة، التي ارتكبتها السلطة التركية العثمانية بلا رحمة، وبلا ذرة من شفقة».

بينما عينا توفيق تكاد تخرجان من محجريهما، وتدلت السيجارة من طرف فمه، بينما تصاعدت أحماض معدته إلى منتصف مريئه.

- يا ولاد الكلب، إيه ده!!

ثم مد يده نحو الطاولة وعيناه لا تفارقان الشاشة باحثًا عن الكمبيوتر اللوحي، والذي لم يستخدمه منذ عامين تقريبًا بعد استيلاء الأطفال

عليه، وما إن تناوله حتى ضغط على أيقونة البحث، وكتب جملة صغيرة:

«صور مذابح الأرمن»

ثم أطلق آلة البحث العملاقة لتجد له مبتغاه.

* * *

• ي •

القاهرة

الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠٥.. الحادية عشرة وخمسون دقيقة مساءً

يوشك المطعم أن يكون خاليًا، إلا من تلك الطاولة المنتصبة في منطقة خاصة، لكبار الشخصيات من زبائن المطعم.

الطاولة التي يحتلها رافي كشيشيان، والعجوز الأرمني الفرنسي المصري سيمون بابويان.

العجوز الذي نجح أخيرًا في جذب انتباه رافي.

- لذا، فقد اقتفينا آثار هؤلاء السبعة، خاصة بعد عملية برلين في ١٩٢١، وكلما قطع أثرهم في مكان، وقلنا لأنفسنا أنهم انتهو وأن هذا التنظيم قد اختفى للأبد، نجد عملية ما في بلد ما تشبه طابعهم، قطب أرمني كبير يموت في فراشه، أو تضيع ثروته في نزوة فاجرة، أو تختطف عائلته لتجدها الشرطة بعد سنوات جثث هامدة ملقاة في الصحراء.

ثم توقف قليلًا وأنفاسه تتلاحق من فرط الانفعال، وراح يجرع من كوب ماء أمامه حتى كاد يغرق قميصه الفاخر.

ـ كانوا كالعنقاء، يحترق ريشها كل عام لينبت لها ريش جديد أقوى وأكبر، تنظيم سري بقى على قيد الحياة رغم حرقه وتشريده، بقي يتتبع آثارنا وبقينا نحن أيضًا نتتبع أثره، إلا أن الأثر توقف منذ عشرين عامًا، ولم نستطع أن نصل للبقية الباقية منهم، المجلس الأعلى كما يسمونه.

ـ تستخدم صيغة الجمع كثيرًا، من أنتم إذن؟ هل أنتم من الاتحاد الثوري الأرمني؟

أطلق سيمون ضحكة عالية، وأعاد رأسه للوراء مقهقهًا كأنما سمع نكتة ساخرة صدرت من فم رافي.

ـ ماذا يضحك في سؤالي؟

ـ هل أنت مطلع على الوضع الداخلي في أرمينيا يا فتي؟

ـ من وقت لآخر، ليس بشكل مستديم.

مال سيمون بجسده للأمام وقال في هدوء:

ـ إذن لعرفت أن الاتحاد الثوري أصبح حزبًا سياسيًا الآن، يخوض الانتخابات ويشكل الحكومات، لم تعد أيام الجهاد كما هي.

ـ مفهوم.

ثم أخرج سيمون من جيبه مظروفًا صغيرًا منتفخًا، لا يتعدى حجم كتاب من قطع متوسط، ومرره فوق الطاولة في هدوء.

ـ هنا ستجد كل شيء عن الستة ذيول، الستة أحفاد القادمين من

نسل الستة الكبار، هؤلاء من استطعنا الوصول إليهم.

ـ وأين يعيشون حاليًا؟

ـ يمكنك أن تحزر ذلك، إن القدر كان رحيمًا بك يا ابن يعقوب.

ابتسم رافي ابتسامة واسعة ساخرة بينما تابع سيمون هامسًا:

ـ ستة أحفاد من نسل الأب أو الأم، يعيشون حولك هنا في مصر.

تناول رافي المظروف، وفك التصاق جزئه العلوي تحت نظرات سيمون المستنكرة، وكاد يخرج ما بداخله حتى قاطعته طقطقة شفاه سيمون.

ـ غير صحيح وغير مقبول.

ـ ما هو غير الصحيح وغير المقبول؟

ـ هذه المعلومات ليست للقراءة في أماكن عامة وعلى مسامع الناس، أنا جمعت المعلومات عنهم وعرفت من هم ومنحتك ما جمعته وما جئتني لأجله، وأنت عرفت من هم ولماذا طلب أبوك أن تبحث عني أنا بالذات، لذا فهذه المعلومات ليست للقراءة مع العامة.

ثم أشار لرافي بيده كي يضع المظروف في جيبه، وبضربة من قداحته أشعل سيجاره من جديد.

بينما رافي يضحك في هدوء ساخرًا من جديد.

ـ هذا التصرف الذي قمت به عندما ناولتني المظروف من فوق الطاولة أكثر إثارة للشكوك من قراءة ستة أسماء على الملأ.

ـ من سيتذكر أننا تبادلنا أظرفًا أو أوراقًا، هذا النادل المسكين الذي

ينتظر انصرافنا كي يبدأ في تنظيف الطاولات مع زملائه، ربما رآنا وقال لنفسه «ياهولاء الأغنياء المجانين، يأتون إلى المطاعم الفاخرة كي يتبادلوا الأظرف البنية المنتفخة كرجال العصابات» ثم سينسى وجوهنا وأشكالنا ووجودنا نفسه.

ارتسم تعبير عدم اقتناع على وجه رافي مع ابتسامته الهادئة، ثم نهض فجأة بلا سابق إنذار تحت بصر سيمون المندهش.

- إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟

- سمعت ما أريد أن أسمعه وحصلت على ما أريده، لذا فلا نفع من جلوسي، الوقت من ذهب كما قلت أنت بفرنسيتك الجميلة.

- ولكننا لم نناقش التفاصيل بعد، لا بد أن تكون عمليات التصفية هادئة ساكنة، لا تثير الشبهات ولا تثير الضجيج.

تنحنح رافي، وقال وهو يضع يده في جيبي بنطاله ناظرًا إلى النيل:

- في الواقع، هناك بعض التعديلات، لن يتم هذه المرة حسب تخطيطكم، أيًا كنتم أنتم.

- بمعنى؟!

- بمعنى إننا سوف نعمل بطريقة جديدة، طريقة مختلفة قليلًا، لا مكان فيها للعبوات المفخخة والطلقات النارية، لقد أديت دورك المطلوب يا مسيو بابويان، والآن حان وقت آل كشيشيان.

ثم اقترب من سيمون، وربت على كتفه ومال على أذنه هامسًا:

- نحن جيل جديد، جيل يعرف جيدًا كيف يصل إلى ما يريده

بلا ضجيج، بلا تعقيدات، ألم تعرف، لقد صنعت نوكيا هاتفًا يعمل باللمس يا سيدي.

ثم ربت على كتفه من جديد، واستدار مغادرًا المكان.

وما إن خطا لمتر واحد فوق الأرضية الخشبية الفاخرة، حتى التفت من جديد ناحية سيمون، وعلى وجهه ابتسامة هادئة واثقة، وقال بعربية مصرية خالصة:

- بالمناسبة.. ميرسي على قبولك دعوتي، الحساب مدفوع بالفعل، نورتني يا مسيو سيمون.

ثم استدار من جديد ورحل، مخلفًا حيرة و دهشة وخيبة أمل، احتلوا صدارة المشهد في رأس العجوز.

* * *

٢٠

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. الثالثة وخمس وأربعون دقيقة مساءً

«لذا، وفي الرابع والعشرين من أبريل كل عام، تحتفل جمهورية أرمينيا بعيدها الوطني، في ذكرى بداية المذبحة، ويحتفل الأرمن في كل بلاد العالم بذكرى بقاءهم أحياء، رغم الذبح والتهجير والقتل والتنكيل، كل ذلك لأنهم مختلفون عمن ذبحهم وقتلهم و شردهم،

مثل ما كان الهنود الحمر، والفلسطينيون، والطاجيك، والبوسنيون، ومثل كل ضحايا التطهير العرقي في كل مكان».

ثم نزلت موسيقى النهاية، مليئة بالمزامير والقيثارات والطبول المكتومة، وعلى الشاشة، راحت قدحتاه ترتفعان وتهبطان مع أسماء المشاركين في إعداد الفيلم وإنتاجه، ثم هبطت قائمة مكتوبة بخط سميك من أعلى الشاشة، تحمل شكرًا خاصًا لكل من ساهموا في تمويل هذا الفيلم.

وفي منتصف الشاشة، ظهر ذلك الاسم، وتوقفت عينا توفيق عليه، ثم أعاد الكادر وأوقف الصورة.

وراحت مزامير وقيثارات وطبول أخرى تدق في رأس توفيق.

لذا فقد قفز من مكانه في نشاط غريب، حتى أن ساقه آلمته معترضة على عدم اعتيادها على هذه الحركات المتهورة، وارتفعت ضربات قلبه المنهك، بينما يبحث عن الهاتف المحمول في حجرة نومه، حتى عثر عليه هناك متصلًا بقابس الشحن.

- فيكي الخير يا داليا والله، كان زمانه فاصل.

ثم سحب الهاتف من القابس، وداس زر التشغيل، وراح يتعجل الجهاز حتى يصل به إلى الشاشة الرئيسية.

الحماس يدب في أوصاله، والعرق يتصبب غزيرًا من مقدمة رأسه.

وما إن ظهرت الشاشة الرئيسية، حتى بحث عن رقم اللواء شكري الخاص، وراح يحاول الاتصال به، لكن اللواء المذكور بدا وكأنه في عالم آخر، لا مجيب ولا استجابة واحدة.

خمس محاولات، بدأ اليأس بعدها يدب في أوصال توفيق ويثبط من عزيمته، لكن المحاولة السادسة جاءت بالنتيجة.

- ألو.

- سيادة اللوا، إزي حضرتك يا فندم، معاك توفيق إسماعيل.

- عارف إن معايا توفيق إسماعيل، اسمك ظهر قدامي على التليفون، خير يا توفيق؟

أصابته لهجة اللواء الجامدة ـ المختلطة بسخرية واضحة ـ بالتقزز، وارتسمت على وجهه تعابير التقزز بالفعل وهو يتفادى سب اللواء وإغلاق الخط.

ـ معاليك فاضي النهاردة ساعة؟

ـ ليه؟

ـ محتاج أتكلم مع حضرتك شوية.

ـ بخصوص إيه؟

تماسك يا توفيق، هكذا راح يحاول أن يكبح لجام نفسه، ويمسك لسانه السليط عن سب اللواء فورًا.

ـ موضوع مهم جدًا، على قدر عالي من الأهمية يا فندم، أرجوك يا فندم، أنا ممكن أقابل حضرتك في المكتب لو حابب.

ـ مكتب إيه يوم الجمعة يا توفيق، أنا لسه واكل ملوخية كابسة على نفسي وكنت داخل أريح شوية.

ـ طب أقابل حضرتك في أي حتة إن شالله في العربية.

قابله صمت مطبق، تتخلله أنفاس اللواء شكري الثقيلة من أثر تدخين الشيشة بكثافة، ثم...

ـ الساعة ٦ في البيت.

ـ بس يا فندم أنا مش عايز أسبب أي إزعاج خصوصًا وإن...

ـ جرى إيه يا توفيق، هو أكل ولا بحلقة، يعني موضوع خطير ومهم وهري وفي الآخر تقولي إزعاج وهبل، خلاص.

ـ لا خلاص إيه أنا في عرضك، قصدي في عرض سعادتك، الساعة ٦ بالدقيقة هكون على باب شقة حضرتك، في جاردن سيتي أنا عارف العنوان كويس، إتفضل يا فندم إتفضل اتفضل.

ثم بقي على الخط حتى أغلقه اللواء من عنده، وظل ينظر إلى شاشة الهاتف، ثم فتح تطبيق الواتس آب، ليجد الكثير والكثير من المحادثات التي لا تهمه ولا يهمه أصحابها، وراح يبحث عن آخر محادثة بينه وبين زوجته، ثم كتب جملة واحدة على الشاشة وضغط زر الإرسال بلا تردد، منطلقًا بعدها إلى الحمام.

وأمام المرآة، راح يهذب الشعر المتناثر فوق رأسه نصف الاصلع، وراح يحلق ذقنه، ويضع كريم ما بعد الحلاقة، ثم ركض إلى حجرة النوم مرتديًا أفضل ثيابه، وأغرق نفسه بكمية لا بأس بها من عطره الخاص، وخرج بهيئته المهندمة أمام المرآة الكبيرة الموضوعة في ذلك الممر، متذكرًا كلمات زوجته عن جهاز ما قبل المواجهة.

راح ينظر لنفسه في المرآة، وهو يبتسم لتصوره وجه زوجته داليا وهي تبدي إعجابها بما يفعله، وهي تضحك ضحكة طفولية مليئة بالانتصار، أخيرًا يقتنع المغرور المبعثر بما تقوله المرأة البسيطة المهندمة.

وقبل أن يغادر الشقة، ألقى بنظرة سريعة على شاشة التلفاز، الذي يحتلها اسم واحد، في كادر من كادرات تتر نهاية الفيلم ثبته توفيق بنفسه، قبل أن يهرع طالبًا مقابلة اللواء شكري.

رافي كشيشيان

* * *

في ظلال الخريف الباهتة

تحت رذاذ المطر الرقيق

أصبح ليس أكثر من ارتعاشة ظل

تتأرجح تحت الضوء

من هو؟

فتى متجول

ماذا يكون؟

خشبة طافية من سفينة غارقة

ماذا لديه؟

لا أب ولا مأوى

وأدرك أنه

لم يعد طفلًا

أندرانيج تساروكيان

• ٢١ •

القاهرة

الخامس عشر من مايو ٢٠١٥.. السابعة والربع مساءً

أنهى توفيق محاضرته المطولة، وراح يلهث في عنف بعد أن تحدث ومثل بجسده بلا انقطاع، محاولًا توضيح وجهة نظره، بينما اللواء شكري جالس على مقعده الجلدي الوثير، في حجرة مكتبه الخاصة بشقته القديمة الفخمة الأنيقة بقلب جاردن سيتي، ويده أسفل ذقنه، وعيناه جامدتان ثابتتان لا تتغيران مع كلمات توفيق.

ووسط لهاث توفيق، وبعد أن جرع كوب ماء كامل، وألقى بجسده فوق الأريكة المقابلة، استمر صمت اللواء شكري، ربما كان عقله يلوك كلمات توفيق، ويستخلص منها شيئًا يمكنه أن يهضمه.

- إيه رأي حضرتك؟

قطع توفيق حالة الصمت المخيمة على المكان، فأعتدل اللواء العجوز

في كرسيه، وراح ينقر ركبتيه بأصابع يده.

بينما توفيق ينظر نحوه، عيناه تلتهمان حركات اللواء كلها، وعقله الشبيه بقدم منتفخة خرجت من حذاء ضيق، يحاول استيعاب ما يحدث.

- تفسير منطقي نوعًا ما.

- شوفت حضرتك، منطقي إزاي، وبصراحة يا فندم له مبرر قوي جدًا.

- نوعا ما يا توفيق، هو مش مبني على أي نوع من أنواع المنطق، إلا حدسك الشخصي وتسلسل الأحداث والفيلم اللي انت شوفته ده، بس إنت عارف أنا بثق فيك قد إيه، وعارف إنك زي ابني بالضبط.

قالها مؤكدًا على وجهة نظره، قالها بصدق وصراحة رفعت مستوى الأمل في مؤشر توفيق، على الرغم من الشك الذي يلوث أطراف كلمات اللواء شكري.

- يا فندم كل الوقائع والأحداث بتؤكد كلامي، الدعوة الغريبة لمجموعة ناس عمرهم ما قابلوا بعض، بداية وقائع الاختفاء من بعد الساعة ١٢ صباحًا، حالة الجدل والقلبان اللي كانت على السوشيال ميديا بعد خمس دقائق بس من كل حالة اختفاء أو خطف، وكأن اللي خطط لده قاعد مستني عشان ينشر، والحسابات اللي هو شاريها تنشر وراه، كأنه مأجر ناس عشان الموضوع يبقى متشاف أكتر واكتر.

- هو ده المنطقي في كلامك، بس مشكلة كلامك يا توفيق بسيطة جدًا.

اعتدل توفيق منتبهًا، سيبدأ اللواء في التجاوب إذن.

- ده كلام.. مجرد كلام مرسل، بلا قرائن وبلا دليل مادي واحد،

يعني لو خدنا كلامك ده ورحنا بيه النيابة، النيابة ممكن تحطنا احنا في الحبس، أو عالأقل وكيل النيابة هيهزقنا ويطردنا شر طردة.

عاد توفيق إلى وضع الجلوس، مادًا ساقيه أمامه، مغطيًا نصف وجهه بكفه في بداية لحالة يأس يعرفها جيدًا.

- طب عالأقل حضرتك خليني أجيب رافي ونحقق معاه، وأنا بطريقتي هعرف أطلع منه بمعلومات توصلنا لدليل.

- إنت بتستعبط يا توفيق، هو عيل مسجل من اللي بتجيبهم القسم تعزقهم وتطلعهم هم اللي اغتالوا رئيس وزراء النمسا، ده رافي كشيشيان يا محترم، واحد من أكبر رجال الأعمال في البلد، أصدقاؤه وزرا ومسؤولين كبار منعرفش أنا وانت نعدي من جنب مواكبهم.

ثم أنهى حالة العصبية التي اجتاحته برشفة من قهوته التي بردت، وسعل بطريقته المعتادة عندما تجتاحه نوبة العصبية، ثم عاد إلى وضعه السابق، إبهامه أسفل ذقنه، وإصبعاه الوسطى والسبابة على جانب رأسه.

فؤاد المهندس يستمع إلى سناء يونس في مسرحية سك على بناتك.

هذا أول ما جال بخاطر توفيق، فابتسم ابتسامة خاطفة ثم عاد إلى وضع التهجم من جديد.

يبدو أن اللواء المبجل قد اقتنع - ولو جزئيًا - بنظريته التي كونها بعد مشاهدة هذا الفيلم، الهدية التي تركها له طارق.

تذكر توفيق أيام الصيد على شواطئ البحر الأحمر عندما كان مراهقًا، كان المرحوم خاله - مثله الأعلى - يلقي بالصنارة وهو ممسك بها بيده، لم يضعها يومًا فوق مسند أو فوق حامل وانتظرها تهتز، يحركها بيده

حركة دورانية بسيطة لا تنتهي، وعندما يسأله عن السبب كان يرد دائمًا بأن الحركات الدائرية البسيطة يائسة وخاملة، تصدر شعورًا للسمك بأنه المسيطر هنا، وأن قطعة الجمبري الصغيرة المعلقة بالخيط الشفاف ما هي إلا فريسة حائرة تنتظر أن ينقض عليها ملتهمها المستقبلي، وعندما تقترب السمكة وتلتقط الطعم، لم يكن يتوقف عن الحركة، بل كان يبطأها قليلا، حتى يتأكد أن الخطاف قد اشتبك بخياشيم الفريسة السابحة، وأنها الآن أدركت أنها فريسة، وقد بدأ اليأس يتملك منها، وفي اللحظة المناسبة، يسحب الصنارة بحركة واحدة، لتخرج محملة بسمكة فضية لامعة.

- بس في حل للموضوع ده.

- قولي عليه يا فندم.. أنا في عرضك.

- هو حل أنا مكنتش عايز ألجأله، بس هيتطلب منك شوية صبر، وانا عارفك صبور أوي.

قالها اللواء ساخرًا، فابتلعها توفيق، ابتلعها وشرب وراءها لترًا من الماء البارد.

- في الموضوع ده بالذات، أنا أعمل أي حاجة عشان أوصل للحقيقة.

نهض اللواء شكري متثاقلًا من خلف مكتبه، وبدأت آثار النوم من غداء الجمعة الثقيل تظهر على مشيته، وأشار لتوفيق فنهض واقترب منه، ليدعوه للجلوس على المقعدين الجلديين الموضوعين أمام مكتبه الخشبي.

- بص يا توفيق، أنا صحيح مش هعرف أرجعك الخدمة دلوقتي

رسمي، بس إنت هتتعاون مع فريق تحقيق أنا مشكله بنفسي للموضوع ده، الفريق ده هيشتغل بنصائح وتوجيهات بسيطة منك، هتوجههم يتحركوا فين ويروحوا منين، وكمان هديلك دي.

ثم نهض اللواء توفيق متثاقلًا، وراح يضع يده على فمه ليخفي آثار حموضة الملوخية، وأخرج شيئًا ما من حقيبة صغيرة موضوعة فوق طاولة في ركن الحجرة، ثم تقدم ناحية توفيق وناوله إياه.

ـ الفلاشة دي عليها كل الفيديوهات اللي استخرجوها الشباب من موبايلات الضحايا، عايزك تتفرج عليها كلها، وبعدين تحافظ عالفلاشة دي زي عمرك، إنت فاهم..

ـ دي ثقة كبيرة أوي يا سيادة اللوا وأنا إن شاء الله هـ..

ـ ولا ثقة ولا نيلة، أنا هعمل كل ده بس عشان أديك فرصة أخيرة، يا تجيبلي الستة دول أو على أسوأ الفروض جثثهم، يا إما اقسم بشرفي، لقعدك في البيت تقطع فاصوليا وتفصص بسلة.

ابتسم توفيق نفس الابتسامة الخاطفة، وهو يتخيل نفسه بالفانلة الداخلية ذات الحمالات وبنطال المنامة، وهو يضم إلى صدره وعاءً بلاستيكيًا، وبجواره حقيبة من البازلاء يفصص حبوبها أمام حلقة من مسلسل تركي ممل.

ـ إن شاء الله مش هضيع الفرصة دي أبدًا يا فندم.

ـ وتخيل بقى، إني هخليك إنت اللي تحرك الفريق ده بالكامل، وكل ده هيحصل من غير ما معلومة واحدة تتسرب، إنت قدام الميديا والسوشيال زفت، إنت موقوف عن العمل وبيتحقق معاك ولابس

البيجامة في بيتكم، لكن اللي هيحصل هنا هو اللي أنا قولته من شوية.

ثم نهض اللواء شكري وفرد جسده المنهك متابعًا أثناء نهوض توفيق

- ودلوقتي شوف شغلك يا حضرة المقدم، أنا عايزك تجيبلي المتسبب.

ثم رفع إصبعه السبابة في وجه توفيق، وهزه محذرًا.

- وبالأدلة يا توفيق، بالأدلة.

- بالأدلة يا فندم.

- شرفت يا حضرة الضابط، إنت عارف الباب منين طبعًا.

أدى توفيق تحية بسيطة، والتفت بجسده الممتلئ متجها نحو الباب، حينما تذكر شيئًا فالتفت إلى اللواء شكري من جديد.

- إيه خير؟ افتكرت حاجة جديدة؟

- لا يا فندم، هو أنا عندي طلب صغير، ممكن نعتبره أول تحرك لفريق البحث.

- خير، إتحفني.

اقترب توفيق وهو يخرج من جيبه ورقة فلوسكاب مطوية، وفردها على طاولة صغيرة أمام مقعد اللواء شكري، ثم أخرج قلمه الجاف من جيب سترته، وراح يستكمل ما رسمه على هذه الورقة بخط رديء.

- دي خريطة مصر مفروض؟

- اعذرني يا فندم أنا ضعيف في الرسم.

- ده انت معندكش أي فكرة عن الرسم ولا الجغرافيا، المهم، وضحلي.

راح توفيق يرسم أسهمًا على يمين ويسار الخريطة ثم تابع:

ـ من اللي أنا فهمته، ولو طلع تصوري صح، فالضحايا الستة أو جثثهم، لازم نلاقيها في منطقة صحراوية، منطقة مفيهاش لا مورد مية ولا طريق سريع، وتكون في نفس الوقت قريبة جدًا من مكان معمور بعدد قليل من السكان، ويا سلام لو مكان كله مية، بس المفروض إن الضحايا الستة مش هيبقوا عارفين ده، المفروض إن المية والنجدة هتبقى جنبهم، بس هم مش عارفين يوصلولها، فاهمني سعادتك.

ـ يعني، مش أوي، بس بدأت أكون فكرة عن اللي انت بتقوله.

ـ عشان كدة أنا بقترح إننا نكثف البحث في المناطق اللي ممكن تكون مشابهة لمسار الرحلة، بحث شامل بعربيات فور باي فور.

أومأ اللواء شكري برأسه، يبدو أن السمكة قد التقطت الطعم، وبلعته، وقررت أن تخرج بإرادتها للصياد.

ـ المكان ده يا فندم حسب معرفتي البسيطة بجغرافيا البلد، هيبقى مكان من اتنين.

ثم أشار بإصبعه ناحية ما يبدو أنه سيناء.

ـ يا شبه جزيرة سيناء، وده احتمال مستبعد شوية، لأن ببساطة كان العربان والبدو هناك هيلاقوا الضحايا بسهولة وكان زمان خبرهم وصلنا، كمان المنطقة في سيناء أغلبها مرتفعات وجبال وده مش مطابق للسيناريو الأصلي.

ـ كلام منطقي برضه، طب والمكان التاني.

ارتفع إصبع توفيق، وعبر الخريطة بالكامل، وهو يشير إلى بقعة

قاحلة، بعيدة عن أغلب الطرق السريعة، ولكنها قريبة من عدد كبير من الواحات.

الصحراء الغربية.

* * *

٢٢

القاهرة

الثامن عشر من مايو ٢٠١٥.. الحادية عشرة وخمسون دقيقة مساءً

توفيق يكاد يركض بسرعة تعادل سرعة سيارة بورش يقودها سائق ماهر في طرقات خاوية، يقطع الخمس خطوات قفزًا في خطوة واحدة، جسده يئن من أسفل رأسه، لكنه لا يبالي، فليسترح جسده لاحقًا، بعد أن يسترح عقله.

منذ أن جاءته المكالمة، وهو يجلس في فراش ابنه الصغير يحكي له حكاية من حكايات ما قبل النوم، حكاية عن ستة أشخاص، اختطفهم عملاق كبير، لأنهم عذبوا أطفاله وقتلوهم، ثم ألقى بهم في الصحراء القاحلة، بلا ماء ولا طعام.

قصة مناسبة جدًا لطفل في الخامسة، حتى أن زوجته داليا نهرته بشدة، لكنه أصر على أن هذه القصة مسلية جدًا، بدليل أن الصبي

لم ينم في وسطها وكان جاحظ العين مستمتعًا، ثم إنها قصة مليئة بالمواعظ والحكم.

لا تعبث مع العملاق الكبير حتى لا يضرك، موعظة هامة ولابد للصبي أن يتعلمها ويستوعبها.

وصل توفيق إلى الباب وهو يلهث كالمجانين، ولعابه يتطاير في وجه كل من يستوقفه ليتكلم معه، جملة كررها خمس مرات حتى وصل إلى الطابق الخامس من تلك المستشفى على أطراف القاهرة، المستشفى التي نقلت لها الأجساد الستة في سرية تامة بعد العثور عليها على أطراف طريق الواحات.

لقد كان توفيق محقًا

في وسط اللهاث وأنهار العرق السائلة على مقدمة رأسه وأسفل إبطيه، كانت تعابير الإعجاب بما فعله تنبت على وجهه من حين لآخر.

فبعد أسبوع من المراقبة المكثفة لكل نفس يتنفسه رافي كشيشيان، وبعد أن بدأ اليأس يدب في مفاصله الخشنة، وبعد أن بدأ اليأس والشك ينبتان ويزدهران في نفس اللواء شكري، وبعد أن كان توفيق يستعد لتقديم طلب بإعفائه من الخدمة ـ فالضباط لا يستقيلون كما قالها مرة لطارق ـ جاءته المكالمة.

ـ المقدم توفيق إسماعيل معايا؟

ـ إتفضل.

ـ أنا العقيد طاهر عبد الرازق، الأمن الوطني.

لماذا بحق السماء يتصل به عقيد من الأمن الوطني في هذه الساعة، إلا إذا...

ـ أؤمرني يا فندم.

ـ المفقودين الستة، تم العثور عليهم من نص ساعة على أول طريق الواحات، وتم نقلهم للمستشفى، أنا كلمت اللوا شكري الخطيب وهو اللي طلب مني أتصل بيك.

انتفض توفيق ساعتها من الفراش، حتى أنه أفزع الصبي الموشك على النوم، وراح يتحدث بلهجة متعجلة في الهاتف طالبًا عنوان المستشفى، ثم أقسم للعقيد المتشكك أنه لن يفصح لأحد عن المكان ولا حتى لزوجته، وارتدى ثيابه على عجل وانطلق مسرعًا.

وما إن وصل إلى الطابق الخامس، حتى استقبله اللواء شكري، بثياب بسيطة وعيون منتفخة ومزاج متعكر، كأنهم حملوه من فراشه حملًا إلى المستشفى.

لكن ذلك لم يمنعه أن يرسم ابتسامة تشجيع على وجهه المتعكر، ويصافح توفيق شادًا على يده.

ـ برافو يا توفيق، أنا مبسوط منك، فكرتك كانت أول الطريق عشان نوصلهم.

ـ تلامذتك يا فندم، فين المجني عليهم.

أشار له اللواء شكري حتى يهدأ من ركضه المستمر، ولهاثه، وتداعي ساقيه الواضح في وقفته المنحنية.

ـ حالتهم صعبة جدًا، دلوقتي هيجي الدكتور المشرف وهيبلغنا نقدر إمتى نتكلم مع اللي فاضل منهم.

- اللي فاضل منهم؟! تقصد إيه سعادتك؟

- في حالة منهم وصلت جثتها بس، الممثلة دي اللي كانت متجوزة الوزير الهربان.

- ليلى حسني.

أشاح اللواء بيده كعلامة على - أيًا كان اسمها - ثم تابع:

- و الواد بتاع البنك مات وهو في الطريق، جرحه كان تقيح واتلوث وقعد يخطرف، لحد ما وصل هنا ومات قبل ما يخش الرعاية.

- حد سجل خطرفته دي يا فندم؟

نظر له اللواء شكري في استنكار، فبلع توفيق لسانه وتعابير وجهه المستنكرة، وآثر السلامة، فربما لن يقدر اللواء شكري على استيعاب غرض سؤال توفيق، وربما لطمه على وجهه، أو طرده من المستشفى وأسند القضية لغيره.

لكنه قد عزم أمره، سيفعل توفيق أي شيء وسيقدم أية تنازلات حتى يكمل هذه القضية إلى النهاية.

رفع عينيه إلى الممر المؤدي لغرف الرعاية الخاصة، ليجد رجلًا خمسينيًا وقورًا، يرتدي معطفًا أبيض ونظارات طبية فاخرة يضاهي سعرها راتب توفيق في شهرين.

- فين اللواء شكري يا ابني؟

- أهلًا يا دكتور، أنا اللوا شكري الخطيب.

تقدم اللواء شكري منه وتصافحًا في هدوء، ثم أشار اللواء بطرف يده لتوفيق كي يتقدم منهم.

بينما الطبيب الوقور يلقي بكلماته على مسامعه في هدوء:

- زي ما حضرتك عارف، في حالتين توفوا، واحدة نتيجة هبوط حاد في الدورة الدموية، وكان عندها كسر مضاعف في أحد ضلوعها، و إصابات في أعضائها التناسلية.

- اغتصاب؟

- لا حضرتك مش فيزيكال أبيوز، تقدر تقول إنه باستخدام آلة حادة أدت نفس الغرض.

- مفهوم مفهوم.

ثم نظر بطرف عينيه لتوفيق، الذي كان منتبهًا متوقد الذهن، يسجل كل كلمة يقولها الطبيب في مقدمة رأسه:

- الحالة التانية كان عنده رصاصة في كتفه، ونزف دم كتير جدًا، والزيادة إن الجرح ده تقيح ومتمش التعامل معاه بكل طبي صحيح، فتسبب في حمى وانخفاض حاد في ضغط الدم، وطبعًا على ما وصل هنا كان أمر اللـه نفد.

- طب وبقية الحالات يا دكتور؟

كانت هذه الأخيرة متعجلة متسرعة من توفيق، فرمقه اللواء شكري بنظرة صارمة حادة، بينما الطبيب يتابع وهو يرمق توفيق بطرف عينه:

- الأربع حالات التانيين حالتهم مستقرة نوعًا، كام ساعة ويفوقوا ويبقوا قادرين يتكلموا، مفيش يمكن إلا حالة الراجل القصير أبو شنب كثيف ده، عنده حالة بنسميها تسمم بولينا أولي.

- بمعنى؟

- التسمم ده غالبًا بينتج عن زيادة نسبة اليوريا نتيجة ضعف التبول، أو عن طريق شرب البول بشكل مباشر.

انقلبت ملامح اللواء شكري، وعلا التقزز وجهه، بينما ثارت أحماض المعدة في مرئ توفيق.

- إن شاء الله بعد ساعة هعرفكم إذا كانوا جاهزين للاستجواب ولا لا، بعد إذنكم، بالمناسبة في واحد منهم فاقد النطق تمامًا، معتقدش إنكم هتعرفوا تاخدوا منه كلام.

- لو إيديه سليمة يا فندم هنخليه يكتب متشغلش بال حضرتك.

كانت هذه من توفيق، متسرعة متحمسة من بين شفتيه كرصاصة خاطئة، فرمقه اللواء شكري بطرف عينه.

- شكرًا يا دكتور، ممتنين ليك جدًا.

صافحهم الطبيب في هدوء، وانطلق يمشي بهدوءه القاتل ناحية استراحة الأطباء.

- طب أنا هنتظر هنا يافندم لحد ما نعرف نستجوبهم، وحضرتك ارتاح.

- توفيق، أنا مش عايز هبل، متخليش الأدرينالين يجننك، الاستجواب يكون بهدوء و بعد ما الدكتور يدينا تصريح بكدة، مش عايز قلبة دماغ.

وضع توفيق كف يده فوق صدره وحنا رأسه نصف انحناءة مؤمنًا وواعدًا بتنفيذ التعليمات.

- توفيق..

- رقبتي يا فندم والله.

نظر له اللواء شكري في شك، ثم حزم أمره وغادر الطابق والمستشفى بالكامل.

بينما القى توفيق بجسده فوق أحد المقاعد في صالة الانتظار، ومدد ساقيه ليريحهما من حصة الركض وصعود السلالم والوقوف منتصب القامة أمام اللواء شكري.

وما إن جلس ومدد ساقيه، وأطلق العنان لركبتيه كي ينبسطا بعد انقباض، حتى أخرج الهاتف المحمول من جيبه، وراح يتصفح كل تطبيقات السوشيال ميديا - التي ساعده طارق سابقًا على معرفتها -

لا شيء، لا خبر ولا معلومة واحدة قد تسربت.

يبدو أن الأمن الوطني قد بذل جهدًا كبيرًا لإخفاء كل هذه الجلبة.

راح يقلب في الصور والفيديوهات على هاتفه لتضييع الوقت، حتى توقف إصبعه فوق تلك الصورة.

يتذكر هذا اليوم جيدًا.

كان أحد أيام الجمع في خريف العام ٢٠١٤، كان وقتها حديث العهد بالهواتف ذات الكاميرات الاحترافية، كان هاتفه السابق ذا كاميرا ضعيفة، صورها كالحة، بحيث لا يمكنك تمييز صورته هو من صورة ماجد الكدواني، رغم اختلاف ملامحهما الشديد.

راح ينظر للصورة، وعلى وجهه ارتسمت أمارات الحنين، ولمحة رومانسية خاطفة لمعت معها عيناه الضيقتان.

يتوسط الصورة، وذراعه تلتف حول كتف زوجته داليا، بينما زينة ومحمود يتخذان أوضاع تصوير تمثيلية وكأنهما في فقرة تصوير لمجلة شهيرة.

يذكر كيف أعطى الهاتف يومها لبائع الفريسكا الهزيل على كورنيش الإسكندرية، ليلتقط لهما الصورة، وبرغم تحذيرات وتخوفات داليا من أن ينطلق البائع راكضًا بحمله الثمين البالغ قيمته خمسة آلاف جنيه على الأقل.

يذكر كيف رد على تخوفاتها وهو يهمس من بين أسنانه راسمًا ضحكة واسعة على وجهه:

- يسرق ضابط مباحث.. إنتي هبلة يا داليا.

ثم ضمها إليه ووضع ذراعه فوق كتفها، بينما بائع الفريسكا المسكين يضع صندوقه على الأرض أمامه، ثم يتخذ وضع تصوير احترافي مثالي، ويعد من الواحد إلى ثلاثة، ويلتقط الصورة.

الصورة الأفضل له مع عائلته طوال سنوات زواجه الأحد عشر.

يذكر كيف كافأ البائع المسكين بأن اشترى منه حمله كله، وجلس على سور الكورنيش يلتهم الفريسكا هو وزوجته والطفلين، ويتحمل نقزهم وسخريتهم من بابا الذي قرر أن يشتري صندوق فريسكا كامل لأن الصورة أعجبته.

يومها لم يكن المقدم توفيق إسماعيل، بل كان توفيق، الأب والزوج، تيفا كما تلقبه داليا، أو توفي كما تلقبه ابنته البكر زينة.

يومها كان هادئًا، رائق الوجه والمزاج، يطير الهواء قميصه القطني

الكاروه وهو يدخن سيجارته أمام البحر، يراقب السماء النصف غائمة، ويلقي بالنكات على أذن زوجته فتنفجر ضاحكة.

يومها كان هو، توفيق.

حول الشاشة إلى شاشة الاتصال، وطلب رقم زوجته دون البحث عن اسمها، الرقم الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب.

بينما داليا على الجانب الآخر، نائمة بفم نصف مفتوح، تحتضن صغيرها محمود الذي تعالى صوت شخيره، والهاتف يهتز على الكومود بجوارها.

صحت متململة تنوي تجاهل المتصل أيا كان، لكنها وجدت اسم «تيفا» ينير الشاشة أمامها فأجابت.

- نايمة يا ماما؟

- آه يا حبيبي، محمود أصله سخن وزوره مقفول، فصمم أنام جنبه النهاردة.

بدأ القلق يرتسم على وجهه، توفيق إسماعيل قلبه يرق لارتفاع درجة حرارة بسيط

- طب ودتيه للدكتور؟

- مش مستاهلة يا بابا، شوية برد صغيرين وإن شاء الله هيروحوا بالخافض.

- طب بالله عليكي لو مصحيش الصبح كويس توديه للدكتور، إن شالله في تبارك حتى.

ابتسمت داليا في إرهاق من حالة اللانوم واللاصحو، ورق صوتها وهي تتابع:

- حاضر يا سيدي، متقلقش انت بس.

- معنديش غيركم أقلق عليه.

تحولت ابتسامتها إلى تعابير القلق، ماذا دها الظهر والسند، الرجل الصلب الذي يقول كلمات القلق والحب كل مناسبة أو كلما كان مزاجه رائقًا.

- توفيق إنت كويس؟ صوتك مش مريحني.

- لا يا حبيبتي أنا كويس، وصوتي زي الفل آهو.

رفعت الهاتف ونظرت إلى الساعة، الساعة تركض بسرعة نحو الربع الثاني بعد الثانية عشرة صباحًا.

- طبعًا إنت مش هترجع دلوقتي.

- للأسف لا، بس إن شاء الله الجمعة الجاية هبدأ إجازة طويلة شوية.

- إجازة، دي زي اللي فاتت كدة.

ابتسم ساخرًا من نفسه ومن تذكره لمنظره وهو يجلس على الكرسي البوص أمام الطاولة التي تقشر طلاؤها.

- أنا عايز آخد إجازة، والولاد محتاجين إجازة، وانتي لازم تاخدي إجازة.

- وشغلك يا حضرة الضابط، مش عايز ترجع شغلك؟

- مصر فيها خمستلاف مقدم شرطة، ياخدوا واحد منهم مكاني.

ما إن أتم جملته، حتى لاحظ خيالًا أبيض يقف أمامه، فرفع بصره ليجد أمامه طبيبًا شابًا يتنحنح في أدب، فقال دون أن يحول بصره عنه:

- طيب يا حبيبتي هكلمك تاني، خلي بالك من نفسك.

وما إن أغلق الخط، حتى وضعت داليا الهاتف بجوار الكومود، وألقت نظرة مطولة على وجه ابنها المريض، واستخرجت من قسمات وجهه معالم الشبه الكامل بينه وبين أبيه، ثم قبلته على جبينه واحتضنته.

- ربنا يسترها معاك يا توفيق.

توفيق، الذي يدخل في هدوء، مرتديًا واقي القدمين إلى غرفة الرعاية، ليجد بهاء سنجر نائمًا فوق الفراش، والفراش نفسه مرتفع قليلًا ليمنحه نصف جلسة، بينما تتدلى الخراطيم والأنابيب من جسده.

- حمد الله عالسلامة يا دكتور.

قالها توفيق، بشماتة مخفية لا يعرف مبررها، ربما بعد ما عرفه وبعد ما قرأه عن الضحايا الست.

يتذكر عندما قضى ليلة أول أمس، يقرأ ملفات الضحايا الست، ويشاهد الفيديوهات التي منحها له اللواء شكري، وكيف أنه كاد يفرغ معدته - حرفيًا - بعد أن قرأ ملف بهاء سنجر.

عمليات إجهاض، تحت ستار عيادته الفاخرة ومستشفاه الخاص الذي لا يرتاده إلا صفوة المجتمع، عمليات إصلاح ما افسده الهوى، والطامة الكبرى، علاقاته المنحرفة.

تنحنح الطبيب الشاب، وقال في روتينية:

ـ أستأذنك يا باشا، بدون ضغط مبالغ فيه وبدون عصبية، الحالة لسه مش مستقرة.

ـ مفهوم مفهوم.

رددها توفيق بروتينية، بهدوء مبالغ فيه لم يتوقعه الطبيب، الذي غادر الغرفة تاركًا بهاء في قبضة توفيق.

ـ إزيك يا دكتور؟

ـ سؤال غريب أوي يا حضرة المقدم، زي مانت شايف، من كام ساعة كنت بلحس حجر عشان أروي عطشي،دلوقتي نايم في سرير ومتوصلي محاليل تغذي فيل.

ـ حال الدنيا يا دكتور، ربنا كبير وقرر يديك فرصة تانية، أو تقدر تقول قرر يديني أنا فرصة تانية عشان أفهم.

ابتسم بهاء، وأدار وجهه إلى الستار الأزرق الذي يفصل بينه وبين إحدى الضحايا الآخرين.

سحب توفيق مقعدًا معدنيًا ذا قاعدة جلدية، يلمع في الأضواء الخفيفة التي تزين سقف حجرة الرعاية، وجلس في هدوء رافعًا ساقه اليسرى فوق ركبته اليمنى.

ـ إيه اللي حصل يا دكتور؟

ـ عايز تعرف اللي حصل إمتى وفين بالضبط؟

ـ سؤال وجيه، وانا أحب الأسئلة الوجيهة، خلينا نبدأ من بعد

ما دخلت الحمام، ونبدأ من الأول، إيه اللي خلاك تجري عالحمام كدة؟

ـ فيديو.

ابتسم توفيق وأشار إليه كي يكمل، على الرغم من أن بهاء لم يكن ينظر له.

ـ فيديو اتبعتلي من الأخ اللي اسمه ڤيرچ، الأخ اللي معاه رقم لبناني.

ـ وفيه إيه الفيديو ده.

ـ فيه حاجات خاصة، حاجات مش المفروض إن حد يشوفها.

ـ وطبعًا دخلت الحمام عشان تتصل بيه وتعرف هو عايز منك إيه.

اومأ بهاء برأسه في بؤس، في هدوء مشبع باليأس.

ثم أكمل بصوته المرهق اليائس:

ـ ولما دخلت الحمام اتصلت بيه، لقيت تليفونه مقفول، حاولت تاني، وفجأة الباب اتفتح عليًا.

اعتدل توفيق، وأنزل ساقه وحواسه تستنفر بينما أكمل بهاء:

ـ حد فتح الباب، ومسافة ما التفت ناحيته كان ضاربني بحاجة على دماغي، ضربة محترفة معرفتش معاها أفتح عيني، صرخت عشان ألفت الانتباه، ضربني ضربة تانية ومعاها الدنيا ضلمت.

ـ ومعرفتش تشوفه أو تعرف هو مين؟

هز بهاء رأسه يمينًا ويسارًا في هدوء، ثم أغمض عينيه وزفر، بينما انعقد حاجبا توفيق وضاقت عيناه، شيء ما ليس منطقيًا في كل هذا.

- وبعدين يا دكتور؟

- صحيت من الغيبوبة دي لقيت نفسي في مكان ضيق مقفول، زي ما يكون زنزانة، الريحة صعبة جدًا، وواضح إن معايا ناس غيري، بس مش شايف حد ولا عارف أكلم حد، كنت متكمم ومتكتف، ونفسي مقطوع، وكل شوية حد يخش، يسحب واحد من الموجودين.

- عرفت منين إنه واحد بس اللي بيتسحب؟

- من صوت الهمهمة اللي كنت بسمعها، واحد أو واحدة بيحاول يتكلم، مفيش كلام مفهوم لكن هو صوت واحد بس.

هز توفيق رأسه محاولًا مضغ كلمات بهاء.

- وبعدين يا دكتور؟

- فضلنا على الحال ده كام يوم، أو كام ساعة، مش عارف، وفي لحظة كدة لقيت نفسي بتشال هيلا بيلا زي مَكون شوال بطاطس، وبعدين حد حقني بحاجة في دراعي، حاجة حسيت بعديها إن جسمي منتعش لحبة صغيرين كده زي ما تكون دبت فيه الروح، وبعدين اتشلت تاني وارتميت في مكان وسمعت صوت حاجة بتتقفل عليًا، زي ما تكون شنطة عربية.

سعل سعلتين اهتز لهما جسده النحيل وهو يتابع:

- كنت دايخ ومش عارف حتى أصرخ، قعدت أحاول أخبط أو أرزع يمكن حد يحس بيا، بس مكنتش قادر.

- وبعدين؟

ازدرد بهاء لعابه بصوت مسموع رنان، حلقه ظل جافًا لساعات وربما أيام صار مليئًا باللعاب الآن.

- العربية وقفت، واتمدت إيد شالت الغمامة من على عيني، وفجأة سطع النور جامد في وشي، كشاف كبير أوي شوش عليًا الرؤية، زي ما تكون سكينة واترشقت في عيني، وخيالات بني آدمين مش عارف أميزها، اتشلت زي الشوال تاني واترميت على الأرض، وبعدين اتفك الحبل من على إيدي والكمامة، حاولت أصرخ بس صوتي مطلعش، زي ما تكون فترة الكتمة خنقته والعربية جريت بسرعة، وعلى ما عيني اتعودت على الجو حواليا، اكتشفت إني في الصحرا، في مكان مفيهوش حد غيري.

كان جسده يهتز ويرتعش كأنه يعيش التجربة المؤلمة من جديد، والعرق يتصبب باردًا على جبينه برغم التكييف الذي يعمل بكامل طاقته، بينما ضربات قلبه تتصاعد على شاشة الجهاز.

- وبعد ما مشيت مدة طويلة قدرتها بساعتين أو تلاتة تقريبا، لقيت الممثلة ليلى، واقعة على الأرض مش قادرة تمشي، هدومها اتقطعت زي ما تقول كدة بفعل فاعل، والدم سايل منها وناشف على رجليها، وجنبها فوزي جميل، قاعد حاطط إيده على خده وراكن على حجر، وزي ما يكون الونس خفف عني وجع رجلي الحافية وجروح دماغي، قعدنا نفكر هنعمل إيه، وبعدين قررنا نتحرك في أي اتجاه يمكن نلاقي حد ينجدنا.

- وطبعًا ملقتوش حد أو حاجة.

حرك بهاء رأسه من جديد يمنة ويسرة، ثم التفت فجأة ناحية توفيق،

الذي لمح دموعه المحتشدة في عينيه مختلطة بالعرق السائل على وجهه.

- مشينا يوم كامل بليلة على رجلينا، لا لقينا طريق ولا حد ممكن ينجدنا، وبقينا نلحس الحجر ونحاول نستخبى في ضل أي تبة أو حجر نلاقيه، يوم كامل مش قادرين حتى نتكلم مع بعض من العطش، في تاني يوم فوزي فقد النطق تمامًا، وحالة ليلى اتدهورت جدًا، الونس اللي كان معايا راح، وفي تالت يوم قابلنا راجل بدوي ماشي على جمل.

- كويس، آهي النجدة وصلت.

ابتسامة ساخرة مريرة ارتسمت على وجه بهاء وهو يتابع:

- إذا كانت النجدة ممكن تطلب منك تقلع الهدوم اللي فاضلة عليك مقابل شربة مية، مكنش معايا غير الساعة الجلد هدية عيد ميلادي الأخيرة، ملفوفة حوالين إيدي، قلعتها واديتهاله، ناولني زمزية مية صغيرة فيها على قد شربة مية لكل واحد فينا، ولما طلبت منه حتى ياخد ليلى معاه، رفض، وسابنا ومشي واحنا بنترجاه، وفضلنا نجري وراه وهو حتى مبيلتفتش ناحيتنا، لحد ما تعبنا ووقعنا من الجري، واختفى عن نظرنا.

كانت كلماته تنطبع على وجهه مع كل حرف ينطقه، حتى أن توفيق تخيل ما حدث وكأنه فيلم سينما يبث من شاشة عرض شاشة بيضاء شاحبة هي وجه بهاء.

- وعلى رابع يوم ليلى ماتت، واضح إن الكسر أثر على الرئة والمشي الكتير خلاها فقدت القدرة على التنفس.

ثم جحظت عيناه فجأة، واختلج صوته وهو يتابع:

ـ في اليوم الخامس، وبعد ما سبنا جثتها في الصحرا، لقينا حاجة زي ما تكون صندوق، وبعد ما فتحناه لقينا فيه قزازة مية واحدة، حاولنا نشرب منها بس ما قدرناش نروي عطشنا، عارف شعور إنك فقدت الإحساس بالعطش من كتر مانت عطشان، لدرجة إن فوزي ما قدرش حتى يشرب ملو غطا القزازة.

ثم صمت للحظة، واحتشدت الدموع الغزيرة في عينيه.

ـ كل لحظة عدت علينا، كنت بشوف وش ليلى اللي اتسحبت منه الروح في كل لحظة، وفوزي ساكت وعينه غايبة منها الحياة، وصلنا لحاجة ممكن تقول عليها طريق، وصلنا وفوزي تقريبا مش موجود، وآخر حاجة شوفتها قبل ما اغيب عن الوعي كان وش ليلى زي ما يكون بيبصلي، حواليا في كل حتة، في الرمل والسما وحتى في أسفلت الطريق، وش هيفضل في كوابيسي لحد ما اموت.

ثم انخرط في موجة بكاء حادة، موجة بكاء راح جسده يرتعش فيها، بينما ارتسمت على وجه توفيق ملامح باردة جامدة، تخفي خلفها شعورًا مختلطًا بالشفقة والتشفي.

ـ يعني كان في حد بيراقبكم طول الوقت، حد عايزكم تفضلوا عايشين بس مش عايشين.

قالها توفيق وكأنه يهمس بها لنفسه، ثم نهض وسط بكاء بهاء الشديد، التفت بجسده ناحية الباب، بينما ارتفع صوت البكاء حتى كاد يصم آذنه إلا انه توقف فجأة، والتفت ناحية بهاء، وقال بصوت حاول جعله مرتفعًا قدر الإمكان، وكأنه أراد أن يسمع الحوائط والسرائر والأجهزة.

- أيًا كان اللي حصلك يا دكتور، فهو أهون من اللي هيحصلك بعد ما تخرج من هنا، إنت اتفضحت يا دكتور، عمليات الإجهاض وعمليات الرتق وعلاقتك المشبوهة، البلد كلها بتتكلم فيها بقالها أسبوع.

صمت بهاء فجأة، وكأنه ضغط زر إيقاف البكاء في لوحة التحكم في مشاعره، وأنصت لتوفيق بعين تجمدت فيها دموعه.

- اللي عمل فيك كدة قبل ما يدمرك بدنيا، دمرك من كل النواحي، ياريتك مت في الصحرا كان أكرملك، استعد بقى لمواجهة المجتمع اللي انت كنت فرد فيه يا دكتور، المجتمع اللي عمل منك رمز وقامة، استعد كويس، عشان إنت كوابيسك هتكتر، ومش هتبقى مجرد وش واحدة ميتة.

ثم غادر الغرفة، وأغلق الباب خلفه في عنف، حتى أن الباب راح يتأرجح فتحًا وقفلًا بعد مغادرته.

وعلى باب الغرفة، قابل الطبيب الشاب، الذي كان ينظر له بسخط شديد، نظرة ملأها الضيق، الضيق من كل ما سمعه وهو يتصنت على باب الغرفة، لأنه يعرف أن ضباط الشرطة لا يلتزمون بتحذيرهم التقريري، وأنهم على استعداد لفعل أي شيء لاستخراج معلومة بسيطة من ضحية مسكينة مثل بهاء. لكن توفيق تجاهل كل ذلك وهو يقول للطبيب بلهجة تقريرية:

- عايز أشوف التلت حالات التانيين.

- في واحد منهم فاقد النطق وفي شبه غيبوبة، والتانية عندها انهيار عصبي، صحيت من النوم قعدت تصرخ وتلطش في المرضات، اضطرينا نديها حاجة عشان تهدى.

- مش مهم، أشوف الحالة اللي فاضلة، أي حاجة أمشي بيها نفسي يا دكتور.

لم يلتقط الطبيب الشاب طرف الدعابة، وظل على عبوس وجهه، وقاده توفيق لحجرة أخرى، وما إن دخل لها حتى رأى جسد بدير النحيل القصير، فوق فراش المستشفى يحاول أن يشرب قليلا من الماء من قنينة صغيرة ذات أنبوب ماص، وجسده متصل بعامود فضي يحمل كيسًا من محلول ما.

وما إن رآه بدير، حتى كاد ينهض من السرير قافزًا، إلا أن توفيق أشار له كي يلزم مكانه، ووقف بجوار الفراش ينظر له في هدوء بارد.

- حمدالله عالسلامة يا متر، ولا أقول يا ريس بدير.

نظر بدير نحوه وعيناه غائمتان مصفر بياضهما، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة منهكة.

- والله كويس إن فيك قدرة تهزر يا توفيق باشا.

- المهم يكون فيك قدرة تحكي.

ثم ذهب توفيق إلى طرف الغرفة الآخر، وغاص جسده في مقعد جلدي وثير، بينما بدير يزدرد لعابه وهو يحاول مص الماء من تلك القنينة التي يحملها في يده.

- بعد ما الدنيا غامت بيا، مكنتش دريان بالدنيا، الأول كان بيتهيألي إني في عربية إسعاف، بس إسعاف إيه ده اللي لا فيه حقن ولا علاج ولا أي حاجة، حاسس إني واعي للي بيحصل حواليا بس مش عارف أتكلم ولا اتحرك، وزي ما تكون عينيا متغمية وبقي متكمم، فضلت

أتخبط واترزع في طريق مدقات، وبعدين غيمت تاني، وصحيت في مكان وزي ما أكون قاعد في حتة زي التخشيبة، أنا صحيح عمري ما بيت في التخشيبة، بس أسمع ان بلاطها بارد وحيطانها سقعة.

- ربنا ينولهالك إن شاء اللـه.

قالها توفيق بهدوء، فصمت بدير وكأنه لم يميز كلمات توفيق.

- بتقول حاجة يا باشا؟

- لا سلامتك، كمل يا متر.

سحب بدير من الماصة قليلًا من الماء وهو يتابع:

- كل شوية يدخل علي حد، أو اتنين، مش خابر صح، إيدين بتشلني من باطي وحقنة بتخش في دراعي، قولت ولاد الكلب دول عايزني أدمن السرنجات ولا إيه.

ابتسم توفيق، وتذكر ما رآه في الفيديو الذي منحه له اللواء شكري على رقاقة الذاكرة الصغيرة، تذكر بدير وهو يجلس على مكتبه، والسيجارة السوبر تتدلى من طرف فمه، وشاربه الكث يتلاعب أمام حقيبة من النقود مفتوحة على مكتبه، بينما الجالس أمامه، المولي ظهره للكاميرا، يتفحص أكياسًا بلاستيكية صغيرة، ثم يغلق الحقيبة.

- وبعد مدة مخبرهاش، فُقت من نومة، لقيت نفسي مرمي على رملة الصحرا، مفكوك والكمامة متشالة، شلت القماشة من على عيني لقتني في الصحرا فعلًا، بس الدنيا ضلمة قوي، والمكان مفيهوش صريخ ابن يومين.

- وبعدين يا أستاذ، لقيت مين في الصحرا؟

ـ ملقتش حد، فضلت أمشي على رجلي وأحاول أكشف السما فيها إيه، بس أني مبعرفش أقرا النجوم والسما، كان ولد عمي عسران بيعرف، لكن أنا حمار معرفش أقرا غير الورق.

ثم ارتسمت على وجهه علامات الخوف، وكأنه تذكر ما رآه، وكأنه يراه بأم عينه من جديد.

ـ وفجأة ظهرلي ديب.

ـ ديب؟!

ـ أيوة، ديب كبير، رمادي وعينه حمرا وبتطق شرر، وبقه مفتوح والجوع نازل من على جنابه، اتسمرت مكاني معرفتش أعمل ايه، لو جريت وأنا كده هينهشني ويخلص علي وابات ليلتي في كرشه، ولو وقفت برضك هيتسعر علي وينهشني وأبقى مت فطيس، فضلت كدة وهو يقرب مني وأنا شامم نفسه، لحد ما جت الرصاصة.

اعتدل توفيق من جديد، وظهرت على وجهه علامات الاهتمام.

ـ رصاصة جت من ورايا، في نص راس الديب بالضبط، راح شاخر وواقع زي الشوال، والدم بينز من راسه، بالتفت ورايا أشوف مين ملاك الرحمة ده، لقيت عصايا على راسي وغبت عن الدنيا تاني.

ـ دول كانوا متوصيين بيك قوي بقى.

قالها توفيق والسخرية تنز من كل حروف جملته، بينما ارتسمت ملامح التقزز على وجه بدير، وهو ينظر إلى الزجاجة البلاستيكية ذات الماصة.

ـ فوقت لاقيت نفسي في الصحرا تاني، العطش بيهبش في حلقي،

والشمس فوق راسي هتموتني، ولقيت في يدي قزازة فاضية، فاضية مفيهاش ولا نقطة مية، مكانش قدامي إلا حل واحد عشان أعيش.

- خلاص خلاص ما تكملش، الله يقرفك.

- وبعد ما الليل ليِّل تاني، التقيت زي ما يكون نور عربية، حاجة داخلة عليا بسرعة، وأنا غيمان ومش داري بالي حاصل، رحت أشاورلهم واصرخ، أصرخ لحد ما وقعت من طولي، والظاهر إنهم وقفوا، وسمعت صوت حواليا زي ما يكون صوت ميري كده، صوت ريحني وخلاني أنام، أنام لحد ما جاتلي الفوقة هنا.

ثم نهض توفيق منتصبًا، وعدل من وضع بنطاله وهو يتابع:

- إحنا متشكرين والله يا متر عالكلمتين دول، إن شاء الله النيابة الصبح هتيجي تاخد أقوالك.

- هو إنتم معرفتوش مين ولاد الكلب اللي عملوا فيَّا كدة؟

- لا والله لسة، بس حبايبنا في المكافحة عرفوا عنك شوية حاجات حلوة، وإن شاء الله قريب هيقابلوك همَّا كمان.

ارتسمت ملامح ذعر حيواني على وجه بدير للحظة، لكنه أخفاها مسرعًا ورسم بدل منها ملامح الدهشة التي كاد توفيق يظنها حقيقية.

- لا خليها مفاجأة بقى، تصبح على خير يا متر.

ثم رفع يده محييًا، وخرج من الغرفة مغلقًا الباب خلفه، ليجد الطبيب الشاب واقفًا أمامه.

- أنا كده اكتفيت، الصبح هيجي عسكري يقعد على كل أوضة،

والنيابة هتيجي معاهم عشان تكمل التحقيق.

- طب وبالنسبة للحالة اللي فاضلة، الست اللي جت معاهم.

- لا دي حالتها واضحة أوي، مش محتاجة تفسيرات كتير، كفاية بس لما الفيديو بتاعها يتسرب عالنت والناس كلها تشوفه، دي هتبقى مشهورة أكتر من....

ثم صمت مدركًا أن فمه الثرثار قد أطلق كلمات لا تصح أن تخرج منه، فنظر إلى الطبيب الشاب شذرًا، ثم تركه ومشى مسرعًا في طريقه عبر الممر.

- كدة قربنا خلاص، فاضل كام خطوة أخيرة صغيرة.

ثم نزل السلم وعلى وجهه ابتسامة منتصرة.

مغادرًا الطابق والمستشفى بالكامل.

بلا كلمة أخرى.

ولا حتى بينه وبين نفسه

* * *

خبر في جريدة المصري اليوم، صباح يوم العشرين من مايو ٢٠١٥

العثور على المفقودين الستة الشرطة تنجح في العثور على المفقودين الستة المختفين منذ ليلة الرابع والعشرين من أبريل

وفاة الفنانة ليلى حسني الممثلة المتوفية كانت زوجة للوزير الهارب زكي مختار وكانت تسهل خروج أمواله مستخدمة علاقتها المتشعبة

* * *

خبر في موقع الحدث للأخبار، صباح يوم العشرين من مايو ٢٠١٥

مقتل المصرفي البارز عاصم خورشيد

وفاته تنقذه من فضيحة كبيرة، والرقابة الإدارية تحقق في عمليات اختلاس وغسيل أموال حدثت أثناء إدارته لبنك (....) بعد تلقيها بلاغات من مجهول مدعمة بالمستندات

* * *

خبر في موقع الفجر، مساء يوم العشرين من مايو ٢٠١٥

النيابة تبدأ التحقيق مع المهندس فوزي جميل

المتهم يواجه تهمة التدبير لخطف زوجته المصممة الشهيرة ميريت جميل والشروع في قتلها

٢٣

القاهرة

الرابع والعشرون من مايو ٢٠١٥.. التاسعة وأربعون دقيقة مساءً

غرفة طعام عتيقة كما يبدو من الوهلة الأولى

طاولة خشبية تقارب المترين طولًا، تتكدس حولها عشرة مقاعد من طراز يعود إلى بدايات القرن العشرين، تبدو كحجرة طعام تاريخية من قصور باشاوات ما قبل يوليو.

وهناك في ضوء مصابيح الشارع الخافت المتسلل من بين شرائح الشيش الخشبي القديم، وضوء مصباح الكيروسين الذي شح وخفت مع حلول المساء، تميز رافي وتوفيق، يجلسان متقابلين على طرفي المائدة.

صمت خيم على أرجاء الغرفة، بعد أن حكى رافي قصته، حكاها حتى وصل إلى صبيحة يوم الرابع والعشرين من أبريل، بينما توفيق يجلس مستمعًا، لم يقاطعه طوال أربع ساعات، راح فيها رافي يحكي

حكايته منذ أن بدأت عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر، قبل مائة عام بالتمام والكمال.

بينما توفيق لا يتحرك من مقعده كأنه التصق به، يشعل سيجارة من حين لآخر أو يشرب القهوة في الأكواب الورقية من الترمس المعدني، بينما عقله يدوّن الكلمات كأنما ينقشها على حجر من البازلت، ينقشها حتى لا يضيع منها تفصيلة واحدة.

صمت رافي، وراحت أنفاسه القصيرة تتلاحق كأنما كان يعدو لمائة عام، وفي وسط الصمت المخيم، ارتفع صوت ضحكة توفيق الخافتة يقطع الصمت، ضحكة تتصاعد حتى تتحول إلى ضحكة ساخرة تهز سكون الغرفة القديمة.

- يعني اللفة الطويلة العريضة دي، عشان تفضحهم وتخلص عليهم، بصراحة يا رافي متزعلش مني، الموضوع أفور منك أوي.

ثم تواصلت ضحكاته التي اهتز لها جسده البدين، وأمسك بكوب القهوة الورقي، ليجرع منه جرعة علها تخمد ما يشعر به من سخرية مقيتة تجاه كلمات رافي.

تعبير رافي الهادئ المستفز لا يفارق وجهه، بينما توفيق يضرب يديه ببعضهما البعض متعجبًا، وهو يحاول التقاط أنفاسه بعد الضحك المتواصل.

لوهلة شعر رافي أن توفيق يخرج حالة التوتر والغموض وعدم الفهم التي لازمته طوال شهر كامل، يخرجها الآن عكسيًا في وجه رافي.

- أنا مش عارف إنت بتتكلم عن إيه الصراحة يا توفيق باشا، بس

عمومًا أنا مش بنكر أي استنتاج عقلك ممكن يكون توصله، أنا بس حابب أعرف إنت فهمت إيه.

- جرى إيه يا رافي بيه، إحنا متفقين من الأول نحترم ذكاء بعض، لكن جملة أنا مش عارف انت بتتكلم عن إيه دي، جملة بلدي أوي، ده احنا لو في مسلسل عربي بايخ مش هتطلع من بق حد.

ثم نهض توفيق من مكانه واقترب من رافي، وسحب مقعدًا بجوار مقعده مغيرًا ترتيب الجلسة الذي استمر لأربع ساعات كاملة.

- خلينا كدة نبسط الأمور على بعض، من غير ما نعقدها ونكلكعها، أنا راجل مبحبش التعقيد واعشق البساطة.

ثم أخرج توفيق سيجارة من علبته وألقاها على الطاولة أمام رافي، وأشعل سيجارته تحت نظرات رافي الباردة المستفزة، النظرات التي لو رآها توفيق من أحد من يحقق معهم لكان حطم أنفه بقبضته، لكن التعليمات لا ترحم، واللواء شكري لن يتهاون في ذلك.

- هتفضل تبصلي كدة كتير.

- بحاول أستشف اللي انت فهمته يا باشا.

- طب أنا هحكيلك حكاية بسيطة كدة، يمكن توصلَّك اللي انا فهمته.

وضع رافي يده تحت ذقنه في تعبير مبتذل عن الاهتمام، اهتمام يتنافى مع نظراته الباردة وابتسامته نصف الساخرة نصف المنتصرة، الابتسامة التي لم يفهم توفيق مغزاها.

ومع ذلك أكمل:

- زمان لما كنت ضابط مباحث صغير، كنت في قسم في منطقة شعبية، لما كانت تحصل حاجة، كنا نعرف مين اللي عملها من غير ما حد يقولنا، كنا بنبقى حافظين بصمة كل عيل مسجل في المنطقة، وهم كانوا أغبيا الصراحة، بيسهلوا علينا المواضيع، حرامي الشنط بيفضل يسرق شنط، وحرامي الجزم بيفضل قاعد قدام الجامع يسرق جزم، مفيش ابتكار ولا تجديد، لحد ما في يوم، جالنا بلاغ إن شقة اتنط عليها واتسرقت لحد ما بقت على البلاط، حتى العفش اتسرق.

ثم نفث توفيق دخان سيجارته إلى الأعلى وهو يتابع:

- رحنا نعاين، وطبعا الهجّامين في المنطقة معروفين، واحد من اتنين هيبقوا همَّا اللي عملوها، رحنا نجيب الأولاني لقيناه مسافر الصعيد بقاله شهر، يبقى أكيد التاني اللي عملها، رحنا جبنا العيل التاني من فوق مراته، كان مخضوض ومش فاهم في إيه، لكن احنا ملناش في الكلام ده، دلوقتي يطلع عالقسم ويعترف إنه سرق مجوهرات محمد علي نفسها، وبعد ما خد الترويقة السليمة في القسم، وقعدنا معاه ساعتين باللِّين والعنف، جه في بالنا خاطر واحد بس، إنه ببساطة ميكونش هو اللي عملها، بس إزاي وكل حاجة بتقول إن هو، طريقة كسر الشقة وطريقة السرقة وحتى المسروقات اللي كانت بدأت تتوزع في السوق، بس الواد اتعدم العافية وبرضه مصمم إنه معملهاش، أمال مين طيب؟

تعابير الملل ظهرت على وجه رافي، تعابير تجاهلها توفيق مستمتعًا بحكي قصته التي لا يعرف لِمَ حكاها، ربما شعر أن لديه شيئًا ما في قصته يريد مشاركته مع رافي، ربما كصديق قديم يجتر ذكرياته مع صديقه، أو ربما لإعجابه برافي الذي لم يخفه - على الرغم من سخريته المتكررة

ـ وإعجابه بهدوء وصبر رافي.

ـ جت في دماغي فكرة، عزمت الواد على كباب، وقعدت أشربه ساقع وشاي وسجاير لحد ما بطنه اتملت وقرب ينسى العلقة اللي كلها، وقعدت أدردش معاه واخليه يحكي عن اللي حصله الكام شهر اللي فاتوا بعد ما خرج من السجن، لحد ما لقطت طرف الخيط.

دفن سيجارته في قلب المنفضة الخزفية، وراح يداعب بطرف إصبعه الشقوق الخشبية الغائرة في الطاولة.

ـ واحد من اللي كانوا معاه في السجن، سمع حواديته ورغيه عن شغله وطريقته في كسر الكوالين وإنه بيقشط الشقة لحد البلاط، وإزاي بيخرج الأحجام دي من البيوت اللي بينط عليها، وإن الواد ده زاره من كام يوم، وقعد معاه عالقهوة لحد العشا ومسى عليه، وبعدها بكام يوم هوب، ضرب ضربته بنفس الطريقة، بنفس الطريقة اللي الواد ده كان بيعملها زمان.

ثم عاد بظهره مستندًا على المقعد، وأشعل سيجارة جديدة راح ينفث دخانها عموديًا في سقف الغرفة.

ـ بس اللي حصل ما اتنفذش بطريقة حد تاني يا حضرة المقدم، قصتك مش مناسبة للموضوع.

ـ ومين قال إنها مناسبة.

ـ اعذرني.. أمال بتحكيها ليه؟

ضحكة عالية انطلقت من توفيق وهو يرد:

- طب مانت عمّال تحكي وترغي بقالك أربع ساعات، حد قالك بتحكي في إيه ولا بتحكي التفاصيل الصغيرة دي ليه، اعتبرنا يا أخي بنتسلى، بنضيع وقت.

- وهو انت جاي عندي تتسلى يا توفيق باشا؟

نظر توفيق له بنظراته الحادة المتفحصة، وتغيرت تعبيرات وجهه الساخرة وانغلق فمه عن الابتسامة الواسعة التي كان يرسمها.

- اللي أنا مش فاهمه، ليه اللفة دي كلها، إيه المبرر؟

- وانت فاكر إني لو كنت عايز أفضحهم واقتلهم وهم نايمين على سرايرهم مكنتش هعرف أعمل كدة؟

- لا طبعًا كنت هتعرف، وده اللي مخليني مستغربك جدًا.

اتسعت ابتسامة رافي، وقرب وجهه من وجه توفيق، وراح يهمس من بين أسنانه اللامعة وعيناه تشعان بريقًا حالمًا أضاء الغرفة:

- بس فين اللذة في كدة، فين الاستفادة إني افضحهم واريحهم، طب عارف، أنا اضايقت جدًا لما وصلني خبر وفاة ليلى وعاصم، حسيت إن فرحتي بقت منقوصة.

- طب مانت اللي سيبتها تموت يا رافي، إنت هتنسى ولا إيه؟

استعاد توفيق تعبيراته الساخرة وهو يتابع:

- لو كنت قولت للبدوي ياخدها معاه عالجمل، كان زمانها عايشة وانت بتملي نظرك بيها وهي لابسة الأبيض ورا القضبان، دي كانت هتلبسلها بتاع خمستاشر سنة، تهريب أموال على إدارة شبكات مشبوهة على دوشة طويلة.

ابتسم رافي وهو ينفث دخان سيجارته عموديًا من جديد، وكأنه يستمتع بشكل الدخان المتصاعد المنعقد في سقف الغرفة، وفي عينيه نظرات إعجاب، إعجاب بفهم توفيق لبعض ما حدث.

ـ شكلك كده قابلت بهاء سنجر.

ـ طبعًا، هو انا برضه هجيلك من غير ما اقابل بهاء، طب ده بهاء بالذات اللي كان نفسي أقابله.

ثم تنحنح توفيق بصوت مرتفع، وكأنه يحاول نزع الحشرجة من حنجرته ليفتح حوارًا جديدًا، كأنها وسيلة لإسكات الحضور وإعلان عن بداية فصل جديد في مسرحية رخيصة:

ـ بمناسبة ليلى، أنا حابب أشير معاك شوية معلومات، مش بتقولوا كدة، أشير.

ثم أخرج توفيق هاتفه المحمول من جيبه، وفتح ملفًا مشفرًا بكلمة سر، كما علّمه طارق سابقًا، وراح يقرأ منه بصوت مرتفع:

ـ ليلى حسني محمد عبد الحميد محمد سليمان عسكري، مولودة لأب من عائلة عسكري ذات الأصول التركية العريقة، وأم مصرية فقيرة من قلعة الكبش، اتبرت منها عائلة أبيها وأنكرتها طوال عمرها، بل ويشتبه في أن عمها رجل الأعمال السابق المتوفي في مارس ١٩٩٨ هو من دبر حادثة مقتل أبيها في نهاية السبعينيات وذلك لرفضه إنكار نسب ابنته ليلى، وتعرف ليلى بكراهيتها الشديدة لتركيا وإنكارها لنسبها التركي في أغلب المحافل الفنية، معلش تقيلة أوي كلمة المحافل دي، أصل اللي كتب التقرير بيحب البلاغة أوي، المهم، وصلتك رسالتي.

- كل حاجة وليها آثار جانبية يا حضرة المقدم.

التفت توفيق إلى رافي بحدة، وصوب نظراته الباردة الحادة اليه، ضاغطًا على حروف كلماته:

- اللي بيتقم يا رافي بيبقى عارف كويس أوي هو هيوجه انتقامه لفين، ولمين، مفيش في الانتقام آثار جانبية ولا أضرار فرعية، الانتقام فعل مباشر وصريح، ولازم يروح لمكانه الصح من غير أي ثغرات عشان يحقق هدفه كويس، إنت مش بتضرب بلد بقنبلة عشان تموت منها عشرين ولا تلاتين واحد، وبعدين هي عيلة عسكري مجابتش إلا ليلى، ما في خمسميت واحد من العيلة دي في مصر والشام ولبنان والعراق، إشمعنى ليلى.

- كلامك جميل لو احنا الاتنين شخصيتين في مسلسل أمريكاني، بنبص لبعض بعمق والكاميرا بتلف على وشوشنا وبنحاول نوصل رسالة اتكتبت في سيناريو، مسلسل السفر فيه بطيارة والتدوير على شخص أو اتنين أسهل من شرب سيجارة مع فنجان قهوة، إحنا على أرض الواقع يا توفيق بك، وطالما الهدف هيتحقق يبقى الغاية تبرر الوسيلة.

ضرب توفيق الطاولة الخشبية بقبضة يده في عنف، ونهض من على المقعد وهو يصرخ في وجه رافي:

- الوسيلة دي خلصت على بني آدم مسكين تهمته الوحيدة إنه من عيلة أنكرته ورمته في الشارع لحد ما بقى كدة، سعرته عالفلوس لحد ما بقى كلب فلوس هو كمان.

- حضرة المقدم، إهدى بس واقعد كدة، إحنا مش بنتكلم عن ملاك بجناحين، إنت عارف وأنا عارف مين هي ليلى حسني وكانت بتعمل

إيه، ده انت بجلالة قدرك نزلت نقيب بحاله عشان يحقق في حادثة سير عادية عشان اسمها جه فيها، عمومًا أنا حابب برضه أوريك جزء من المعلومات اللي عندنا احنا، أقعد بس.

جلس توفيق مترددًا محاولًا السيطرة على عصبيته، بينما أخرج رافي هاتفه المحمول من جيبه، ثم حرر شاشة هاتفه من قفل السرية، وفتح ملفًا كتب عليه الرقم ٢، وشغل أحد الفيديوهات وأدار الهاتف ناحية توفيق.

الشاشة تظهر ليلى حسني، في ثياب عصرية بسيطة، وحذاء ذي كعب مرتفع رفيع، تضع ساقا فوق ساق، وتجلس على أريكة جلدية في حضرة واحد من أشهر مقدمي البرامج في بدايات الألفية.

ـ بس انتي يا فنانة من أصل تركي صح؟

ـ بابا الله يرحمه، هو اللي أصوله تركية، لكن أنا مصرية قلبًا وقالبًا.

ابتسم توفيق رغمًا عنه، حرف القاف الذي انقلب إلى كاف ببساطة شديدة من بين شفتي الفنانة.

ـ وإيه رأيك بقى في الكلام اللي داير اليومين دول على المسألة الأرمنية، وإن حكومة تركيا مش عايزة تعترف بيها.

ـ أقولك على حاجة ببساطة يا عمرو، برغم إني مبحبش السياسة، لكني شايفة إن الموضوع فيه مبالغات كتير أوي.

ـ مبالغات إزاي يا فنانة، انتي مثلًا مسمعتيش الأستاذ نيشان إمبارح وهو بيقول إنه حتى الترانزيت في مطارات تركيا مبيوافقش عليه ولو كان خمس دقايق.

ـ ما هي دي المبالغات اللي بتكلم عليها، خليني أقولك حاجة.

يعتدل المذيع الشهير، ويضع إبهامه تحت ذقنه وكأنه سيتلقى حكمة اليوم.

- بصراحة شايفة إن الموضوع كان متبادل، وإني مقدرش أحمل فيه طرف المسؤولية كلها، وشايفة إننا لازم نتجاوز خلافات الماضي، ونعيش في سلام بقى، إحنا تعبنا من الحروب والخلافات، وربنا يحفظلنا بلدنا بسلام وخير.

انتهى الفيديو، ولم ينتهِ معه ملامح الضيق على وجه توفيق، كيف لم يأته ذلك الوغد علاء بهذا المقطع، هو ليس مهمًا ولن يغير في الأمر شيء، لكن شعوره بالتفوق هنا سوف يقل درجة، فتوفيق لا يؤمن بالتفوق إلا إذا كان كاسحًا، ولن يكون كاسحًا إلا إذا امتلك هو كل المعلومات المتاحة.

- زي ما حضرتك شوفت كدة بالضبط، اللي حصل لليلى آثار جانبية بسيطة، مقارنة بكل حرف قالته في حوارها ده، حولت قتل وتعذيب وتشريد مليون ونص بني آدم لمجرد خلاف متبادل ولازم ننساه ونعيش في سلام.

كان يتحدث الآن ويداه تتحركان في الهواء في عصبية، مقلدًا طريقة ليلى المائعة في الرد على سؤال المذيع، لكن توفيق ارتفع صوته هادرًا غاضبًا من جديد:

- وعشان هي قالت كدة عن جهل أو عدم فهم، تقوم مشوهلها أعضاءها التناسلية، وراميها في الصحراء بكسر ضلعين وشرخ في الرئة، عشان مليون ونص بني آدم اتعذبوا، أنا عارف يا رافي إن اللي حصل ده جرح غاير وهيفضل مكمل طول العمر، ومتعاطف جدًا مع كل

حرف قريته وكل مشهد شوفته.

- تعاطفك لوحده مش كفاية.

قالها رافي ساخرًا، مقلدًا طريقة الإعلان الشهير، لكن توفيق تابع بلا حتى أن يعلق أو يغير من نظراته.

- بس دي جاهلة يا رافي، أجهل من دبانة، هي مش فاهمة نص اللي بتقوله أساسًا.

- بابا زمان قاللي، اللي بيلاعب لسانه برة بقه، يستحمل ذنب قطعه، واللي فرحان بجدره يستحمل قلعه.

- أبوك كان راجل حكيم برضه ومعاه حق.

قالها توفيق ساخرًا، ساخرًا بلا مواربة وبلا إخفاء، بينما تابع رافي:

- معنى كدة إنك معندكش مشاكل في اللي حصل للبقية.

- مكدبش عليك، من كام يوم وأنا قاعد قدام بدير شاكر، حسيت إني كنت أتمنى لو قعدت أتفرج عليه في الصحرا وهو مدلدل لسانه، أو أشوفه وهو بيعملها على روحه قدام الديب، ويبقى مشهد النهاية العظيم وهو بيملا القزازة البلاستيك من بوله وبيشرب منها، أصلك متعرفش بدير ده معزته عندي شكلها إيه.

ابتسم رافي رغمًا عنه، بينما تابع توفيق بنفس الحماس:

- أما بقى فوزي جميل اللي دفع لواحد عشان يخلصه من مراته، ولا مراته اللي كانت نايمة في حضن راجل تاني قبلها بكام ساعة، دي حاولت تنتحر تلت مرات لغاية دلوقتي.

أومأ رافي برأسه في هدوء.

- على الأقل في حد عنده دم هنا.

- أما بقى بهاء سنجر ده، فانا مش فاهمله حاجة، أنا كنت متخيله راجل مثالي وسياسي محترم ودكتور مشهور، بس الظاهر هو كمان عامل زي السجادة الفخمة، تشوفها تعجب بيها أوي، لكن مسافة ما ترفعها تلاقي تحتها تراب وعفن وبلاوي زرقا، الصراحة ده بالذات يستاهل كل خير.

حماس توفيق في الحكي بدا وكأن رافي انتقم له شخصيًا.

- بالمناسبة أحيِّك لأنك اخترت الذكرى المئوية بالذات، حاجة رنانة كدة وليها وقع حلو على النفس، إنت كان ناقص تضرب ألعاب نارية في آخر السهرة.

ابتسم رافي من جديد، وأمال رأسه للأمام كأنه ممثل يحيي جماهيرًا خفية.

- الحقيقة اللي اختار التاريخ ده هو اللي يستاهل التحية الخاصة.

- ويا ترى ده يبقى مين، خالك شانت ولا حفيد أخوك الأخ ڤيكن المتحمس ولا صديقك اللبناني، مش لبناني برضه.

رسم توفيق على وجهه نظرة خبيثة واتسعت ابتسامته، بينما أدار رافي وجهه ناحية المنفضة وهو يمسح رأس السيجارة المليء بالرماد بطرفها.

- عندنا في الوزارة قسم كامل للتتبع، برضه البلد مستهدفة من كل حتة ولازم نبقى مستعدين، إرهاب على تجار مخدرات على تجار سلاح، المهم إن الشباب في القسم ده عملوا تتبع للمكالمة اللي جت لي يومها من رقم لبناني، ووصلوا إن الرقم اللبناني ده شغال على التجوال هنا على

شبكة مصرية، وبعد ما قعدنا نقلب ونبحث وندور، وصلنا لصاحب الموبايل اللي اتحط فيه الخط ده، تليفون صيني اشتراه من السوق الحرة في مطار القاهرة، والفاتورة باسم واحد حبيبك أوي.

- زاكار كشيشيان.

قالها رافي دون أن يرفع عينيه من على المنفضة، بينما اختنقت أنفاس توفيق المكتومة بفعل حرق نصف علبة من السجائر الثقيلة طوال أربع ساعات.

رفع رافي عينيه ناحية توفيق، اللحظة التي كان توفيق ينتظرها، لحظة أن يقر رافي بأنه فعل كل شيء ممكن كي يخبئ خطته المتكاملة، وبأنه ارتكب انتقامه الكامل بلا أية آثار، لكن مثابرة توفيق وبحثه وكفاءة رجاله استطاعت أن تكشف كل شيء... إلخ إلخ.

لكن كل هذا انهار عندما رأى توفيق تلك النظرة في عيني رافي.

نظرة ذكرته بخاله وهو ينظر إلى السمكة التي حررها لتوه من خطاف الصيد.

- تفتكر يا توفيق باشا إن كل ده حصل صدفة، وإني فعلًا كنت عايز أخبي كل اللي حصل ده؟

- يعني إيه؟

اسقط في يد توفيق، كلمات رافي ونظراته التي تشع سخرية وثقة وفرحة تربك توفيق، وتهيل التراب على نجاحه الذي كان يتفاخر به منذ لحظات.

- هحكيلك، يمكن تفهمني.

ثم أطفأ السيجارة، والتفت بجسده وبصره كاملين ناحية توفيق.

ـ لما قررنا أنا وزاكار وشانت سنة ٢٠٠٥، إننا هنغير اسم الوصية، وننفذها بشكل جديد تمامًا، فكرنا إيه الي ممكن نعمله عشان نضرب ضربتنا صح، وفي الوقت المناسب، ونستخدم الثورة اللي حصلت في عالم الميديا وقتها عشان نوصل اللي احنا عملناه ده للعالم كله، مش بس للأرمن اللي في الشتات واللي عاشوا بعيد عن أرضهم سنين، لا نوصلها للكل، ونعرف الكل إن انتقامنا كان شامل ومدمر ومفيش منه أي طريقة للنجاة.

ثم رشف من كوب القهوة، وسرحت عيناه إلى الشيش القديم خلف رأس توفيق، سرحت كأنها سافرت في الزمان والمكان إلى طاولة خشبية صغيرة في حجرة بلا نوافذ، يجلس عليها رجل عجوز ملأ الشيب رأسه، وارتسمت ملامح الإرهاق على وجهه.

ـ من ساعة ما سيمون بابويان جه لجدي هاروت، وحكاله على اللي حصل في برلين بالتفصيل، وإزاي إنه بيخطط يكمل ده، وإنه يلف العالم عشان يوصل مش بس للباشوات التلاتة، لا عشان يوصل كمان للي بعديهم، الصوابع اللي استخدموها عشان تقتل وتنهب وتشرد، وجدو قعد يفكر في طريقة ممكن تخلِّي ده يحصل من غير دم، من غير قتل، عذاب شامل متكامل بس من غير نقطة دم.

ثم أشعل سيجارة جديدة، غير عابئ بنظرات الاستنكار على وجه توفيق، الذي بدا مهتمًا بعلبة سجائره أكثر من قصة رافي!

ـ لحد ما عمي صوغومون لقى يعقوب جميل، اللي بقى باشا، لقاه ساكن في قصر كبير وبيتاجر في القطن، وعايش حياته زي البشوات، وباباه اللي اتعذب وباع كل ما يملك عشان يسوق حمارة من سوريا

لمصر، عنده محل بقالة وقاعد بيبيع زتون وجبنة، وقرر ساعتها إنه ينفذ عمليته، أول وسيلة انتقام، بس هو كان متحمس شوية، عشان كدة لما ضربه بالنار وهو خارج من الكنيسة كان بينتحر، مش بينتقم.

ـ آهي دي حاجة استغربتها برضه، باشا من بتوع العثمانلية ومسيحي أرثوذوكسي، ركبت إزاي دي!!

ابتسم رافي لملاحظة توفيق، وقال وهو يمسح طرف السيجارة في المنفضة.

ـ إنت محتاج تقرا شوية كمان عن تركيا العثمانية يا حضرة المقدم، هتعرف لوحدك ركبت إزاي دي، ده كان في يهود كمان ولا دينين خالص.

هز توفيق رأسه غير مقتنع بينما راح رافي يكمل:

ـ قعدنا نخطط إزاي هنوقع كل واحد من الستة، إزاي هنقدر نوصل لجوة بيوتهم وجوة عقولهم ونفوسهم نفسها، مش هقولك إن القدر خدمنا، بس احنا اكتشفنا بعد البحث والتدوير والتنقيب إن في ست أحفاد موجودين هنا، في مصر، وعايشين حوالينا، بيجري جوة عروقهم دم الستة المختارين، وتخيل، إن اغلبهم مؤمنين تمامًا إن اللي حصل ده كان ضروري ولازم لتأمين جبهة الإمبراطورية في حرب مهمة، وإن الأرمن هم اللي بدأو لأنهم تحالفوا مع الروس وكانوا سبب رئيسي في خسارة جبهات قتالية مهمة، بذمتك ده كلام ممكن يبرر جريمة زي دي، وكله بقى اتغلف بصبغة المعركة الدينية العظيمة، الأرمن المسيحين الكفرة أعلنوا الحرب على الإسلام، يبقى كان لازم يبادوا كلهم، وكأنهم اختزلوا اللي حصل بس في إنه معركة دينية، ده طبعًا لأن الإيمان كان واخد حقه معاهم أوي.

ابتسم ساخرًا، فأومأ توفيق برأسه ساخرًا.

- إنت هتقولي، ده أنا بعد اللي شفته في الفيديوهات بتاعت المذبحة دي عرفت الإيمان إزاي كان واخد حقه أوي، كمِّل.

ابتسم رافي من جديد، وأكمل وكأن توفيق لم يمارس هوايته المفضلة في مقاطعته:

- تخيل إن الحظ يخدمك كدة، وتبص تلاقي نفسك قريب جدًا من سليمان عسكري ويعقوب جميل وسمعان جميل وبهاء الدين شاكر، ومحمد خورشيد، ومراد سنجر، أحفادهم قدامك، على بعد رمية حجر، حاجة كدة فوق الخيال.

ثم عقد كفيه على الطاولة وهو يركز ببصره على نقطة في الحائط، فوق نفس المقعد الذي كان توفيق يجلس عليه منذ دقائق قبل أن يغير مكانه:

- قربنا، قربنا جدا، وبدأت يبقى لينا بيهم صداقات وعلاقات ومعرفة وثيقة، بقينا تقريبًا جوة بيوتهم وجوة حياتهم، اتجوزوا مننا، وتاجروا معانا، وخانوا معانا أقرب الناس ليهم، وحفرنا الحفرة لكل واحد فيه، وعشمناه بصندوق الدهب اللي في آخر الحفرة، وسبناه ينزل فيها بمزاجه، وكل ما ينزل نحفرله فيها أكتر عشان ينزل كمان، لدرجة إنه بقى بيحفر معانا، لحد ما حد مننا طلع بفكرة المطعم.

- البيت.

- بالضبط، الفكرة كانت بسيطة أوي، إحنا هنفتح مطعم أرمني لطيف، يشتغل بمواعيد غريبة ومش اعتيادية، فده يسمع جدًا مع الناس، وطبعًا لما ظهر الوحش اللي اسمه سوشيال ميديا، استغلناه،

وتوغلنا بيه في كل دماغ وكل نفس، إنت مش متخيل إيه اللي ممكن تعمله بعشر تلاف دولار على تويتر ولا فيسبوك.

- إنت مش متخيل اللي ممكن تعمله بعشر تلاف دولار معايا أنا شخصيًا.

تابع رافي من جديد، لكن ابتسامة شاحبة نبتت على وجهه من تعليق توفيق هذه المرة.

- و في ظرف سنة المطعم بقى أشهر من أشهر مطعم في مصر، وكل يوم كنا بنقرب فيه من الليلة الموعودة، كنا بنحفر أكتر جوة حفرة كل واحد فيهم، لحد ما كلهم جم في الليلة دي وهم جاهزين، جاهزين تمامًا عشان نرمي التراب عليهم، وندفنهم وندفن سيرتهم، بكل بساطة وبكل هدوء، وبعدين نطلع على الملأ، ونحكي حكايتنا، انتقامنا من نسل اللي قتلونا وشردونا ونهبونا، وغربونا عن أرضنا الأم، بس الحقيقة ظهرت عقبة وحيدة.

ابتلع توفيق لعابه، وقال بصوت خفيض لم يسمعه هو شخصيًا:

- اللي هي؟

- الشرطة، الداخلية، لما عملنا تحرياتنا وأبحاثنا في اخر سنتين، اكتشفنا إن القسم دلوقتي قاعد على كرسي المباحث فيه ضابط رخم، ضابط ما بيستسلمش بسهولة، صحيح كسلي ومبيتحركش من مكانه بسهولة زي الخرتيت، لكن زي الخرتيت، لو اتحرك ممكن يهد البيت كله على دماغنا، ويبوظلنا كل حاجة.

- الله يكرم أصلك.

قالها توفيق لائمًا، على وجهه ابتسامة باهتة وعيناه اللتان كانتا تشعان ثقة وسعادة، انطفأ بريقهما وحل مكانه ظلام الحسرة وعدم الفهم.

- عشان كدة كنَّا لازم نعمل شوية تعديلات، لازم نبقى أكتر ذكاء وأكتر حيطة، لازم نلهيك عن خطتنا الأصلية، ونجرك في معارك فرعية كتير، ممكن تلهيك عن الهدف الرئيسي، زي ما قال محمد علي كلاي، حُم كالفراشة والدغ كالنحلة.

قاطعه توفيق متابعًا في هدوء:

- فيده لن تستطيع أن تضرب ما لا تراه عيناه.

الجملة التي يحفظها توفيق عن ظهر قلب، مقولة محمد علي التي لا تقل أسطورية عنه.

بينما رافي يكمل متحمسًا، وكأنه يبدأ الأمر كله من جديد.

- وبعد ما ننفذ كل حاجة، وناخد وقتنا كويس عشان الخطة كلها تكمل، نديلك طرف الخيط اللي ممكن تمسكه وتوصلنا، نقودك لحد هنا، لحد الأوضة دي، وتقعد على نفس الكرسي اللي كنت قاعد عليه في المطعم، وتحس إنك انتصرت، ونشوة الانتصار تخليك تعلن الكلام ده كله على الملأ، وتعلن للعالم كله إنك وصلت للحقيقة، وإنك عرفت مين المتسبب في اللي حصل، ده احنا كمان حطينا شوية بهارات على الحكاية، عشان لَمَّا توصلك من بهاء أو بدير أو أي واحد من اللي لسه عايشين، تحاول تعمل منها أطراف خيوط، وتمشي وراها عشان توصل لاستنتاجك العظيم.

صمت رافي قليلا، ثم رفع زجاجة النبيذ التي وضعها إلى جواره

مع دخول توفيق الغرفة منذ أربع ساعات، وجرع منها جرعة كبيرة بلا كؤوس أو أكواب.

- ولو مكنتش وصلتلك، لو دماغي خدتني لحتة تانية وشكيت في إن اللي حصل في الفيديوهات دي هو السبب.

- كل فيديو كنا بنبعته لصاحب الحظ السعيد، كان المقصود منه إنكم تشكوا في اللي إحنا قاصدينكم تشكوا فيه وبس، ما عدا طبعًا فيديو بدير، أصله يعني معندوش حاجة في حياته يقلق منها، عامل زي صفيحة زبالة ماشية على قدمين، وبتفتخر إن ريحتها قذرة ومقززة، ولولا إننا فتشنا وراه جامد، مكناش وصلنا لحكاية المخدرات دي.

ثم جرع جرعة أخرى، ووضع الزجاجة على الطاولة فأحدثت دويًا مكتومًا، بينما توفيق يشعل سيجارة جديدة وهو يحاول إخفاء تعابير وجهه المحبطة.

- طب ولو مكانتش الشرطة اتحركت أساسًا، لو كان اللوا اللي كلمني متهزش لموضوع ليلى حسني، لو حتى بعتنا ضابط ياخد الأقوال ويمشي وخلاص.

- مش ممكن يا توفيق باشا، إنت مش واخد بالك السوشيال ميديا بتعمل إيه اليومين دول، أمال احنا كنا بنحط كل حاجة أونلاين بعد ما تحصل بثواني ليه، عشان نضمن إن التحرك يكون سريع وبأعلى قدر من الكفاءة، ومين أكتر كفاءة من رئيس مباحث القسم نفسه، وابن رئيس مباحث العاصمة الروحي.

- طب ولو كل ده حصل زي مانتم مخططين له، وأنا دماغي مراحتش

ناحيتك يا رافي، لو مثلًا فكرت إنه ممكن يكون طرف من برة القعدة دي، أو حد مثلا يربطه بيهم كلهم صلة ما، أي حاجة.

- توفيق باشا دي كدة قلبت رواية بوليسي رخيصة، وساعتها كنت هتبقى انت المفتش توفيق، ومعاك مساعدك الكلب الأمين المحقق طارق، وتقعد بعدسة مكبرة بقى تبص على الفواصل في الخشب.

ثم ضحك رافي في وسط جملته، حتى اختفت حروف كلماته وسط الضحكة، وسعل سعلتين وسط الضحك قبل أن يتابع:

- وبعدين احنا برضه ميرضيناش إن دماغك تروح في حتة تانية، عشان كدة كنا بنوصلك الحاجة لحد عندك، لحد باب بيتك لو لزم الأمر.

* * *

في ضيف مستنيك على الباب برة، نقيب في المباحث اسمه طارق الشريف

* * *

أمال إيه طارق الشريف دي، إنت يا ابني مش اسمك طارق أحمد مصطفى عبد العظيم

* * *

نفض توفيق رأسه، وأغمض عينيه وفتحهما دفعة واحدة وكأنه يطرد من رأسه فكرة تحاول التسلل من أسفل باب عقله.

- ولما سهلنالك الأمور، كنا قاصدين التوقيت ده بالذات، بعد ما

تكون خلصنا كل حاجة، ونفذنا الوصية المعدلة بالكامل، هامغ ڤيرا.

ـ أنا سمعت الاسم ده فين قبل كدة.

ـ ممكن أكتبلك الكلمتين بالأرمني وتدور على معناهم، جوجل ضافت قاموس أرمني.

راحت كلمات رافي تجوب رأس توفيق ككرة لعبة المتاهة، تضرب حوائط رأسه ثم تعود وتضرب الجانب الآخر، ترن مئات الأجراس في رأسه، وتفتح أمامه أبوابًا صغيرًا في مقابر مهجورة داخل دماغه.

ـ الضيف اللي ما حضرش.

ـ بالعكس، الضيف اللي كان حاضر طول الوقت، هامغ ڤيرا، الانتقام اللذيذ، ده الاسم اللي قررنا أنا وزاكار وشانت إنه مناسب أوي للي ناويين نعمله، وفي نفس الليلة، وقبل ما يطلع الفجر، المرحلة الأولى تكون انتهت.

انعقد حاجبا توفيق، وقال ضاغطًا على كل مخارج ألفاظه وكأنه يعض الحروف ويدميها.

ـ بس اللي حصل ده محتاج حد يكون عنده تسهيلات، حد يكون في مكان يقدر يوصل بيه لمعلومات متقبلش الغلط، الفلوس آه بتفتح الأبواب المقفلة، لكن في أبواب مبتفتحهاش الفلوس.

انعقد حاجبا توفيق، وضاقت عيناه كعادته عندما يتعمق في التفكير، ثم اتسعت عيناه فجأة، ليجد عيني رافي اللامعتين تحدقان في وجهه.

ـ وإذا عرفت تلهيني أنا وتدخلني في متاهات، لحد ما تخلص مهمتك والفجر يطلع، هتلهي البقية إزاي؟

ثم صمت توفيق، وأدار وجهه من جديد ناحية رافي، وعيناه تجوبان ابتسامة رافي الساخرة المتسعة، وعينيه اللامعتين، ويديه المنعقدتين فوق الطاولة كجنرال حربي.

* * *

أمال إيه طارق الشريف دي، إنت يا ابني مش اسمك طارق أحمد مصطفى عبد العظيم

* * *

ده الاسم الي سماهولي المرحوم أحمد الشريف، جوزي، بعد ما غيرت ديني، بعد جوازنا بسنة

* * *

- ودلوقتي يا حضرة المقدم..

قالها رافي وهو يرفع كفيه وراحتيهما إلى الأعلى، ويضمهما لبعضهما البعض.

- هتقبض عليًا دلوقتي؟

- أقبض عليك ليه؟

انتبه توفيق من شروده، وعلى وجهه ذلك التعبير الجامد، تعبيرات توفيق التي تعود طوال عمره أن يرسمها على وجهه الممتلئ، يبدو أن السمكة قد انتبهت للخطاف الذي يغوص في حلقها وقررت الفرار.

- عشان ده واجبك، دورك اللي المفروض تكمله.

- والمسرحية تخلص، وتسمع تصفيق الجمهور الحاد والستارة بتقفل، مضبوط كدة؟

أراح توفيق ساقيه وهو يلف جسده على المقعد، وقال وهو يرمي رافي بنظرة جانبية.

- للأسف يا رافي، أنا مش جاي أقبض عليك.

- أمال جاي تشرب معايا القهوة؟

تغيرت تعبيرات وجه رافي بينما توفيق يقبض على السيجارة بأسنانه، ويقول من بين شفتيه نصف المنفرجتين:

- الحقيقة آه، أنا كنت جاي أشرب معاك القهوة، وافهم الي حصل، ببساطة كان هيحصلي حاجة لو مفهمتش.

التفت رافي ناحية توفيق، الذي لا زال ينظر إلى دولاب المشروبات الخشبي العتيق، وينفث دخان السيجارة التي لا تفارق فمه.

- بس أنا تقريبًا إديتك اعتراف كامل بِللي حصل.

- وده شيء أنا مقدره جدًا، خطتك كانت ذكية ومحبوكة حلو أوي، عجبتني أوي الصراحة واحييك عليها، خططت ونفذت كويس أوي، بس أنا الحقيقة كنت عايز أشكرك، مش عشان انت فهمتني واديتني اعتراف كامل ونورتلي طريقي، لا أنا عايز أشكرك عاللي انت عملته مع الستة دول.

اختفت الابتسامة الواثقة من وجه رافي، وحل محلها ابتسامة عشبية متوترة، للمرة الأولى في تلك الليلة لا تجري الأمور كما خطط لها.

- إنت قدمت خدمة جليلة جدًا للمجتمع، وكشفت مجموعة من الفاسدين الأفاقين، ولاد الكلب اللي عايزين يهدوا المجتمع ويسرقوه وينهبوه، دكتور فاسد وشاذ، مهندس كمبيوتر بيتجسس على بلده ومراته بتخونه مع صاحبه، ممثلة متشعلقة بحبال السلطة القديمة وبتهرب فلوس البلد، مدير بنك قذر ومدورها غسيل أموال، وبدير شاكر، أوسخ وأحقر محامي خلقه ربنا، تاجر مخدرات عايز يدمر البلد وعار على مهنة المحاماة في تاريخها.

ثم توقف توفيق قليلًا، ربما ليلتقط أنفاسه ويمنح فرصة لنظرة الانتصار كي تعود إلى وجهه وعينيه من جديد.

- إنت قدمت خدمة جليلة للبلد، ياريت الناس كلها زيك.

ثم نهض من مقعده فجأة، وراح يفرد جسده ويهز ساقيه المتصلبتين من أثر الجلوس الطويل، وحمل هاتفه المحمول ومفاتيح سيارته، ورفع كف يده ناحية رافي مودعًا.

- ده انت بتتكلم بجد!

- طبعا بتكلم بجد، يا مستر رافي الشرطة دورها هو تطهير المجتمع من النماذج الفاسدة دي، وانت قدمتلنا خدمة جليلة، أنا بشكرك باسم الداخلية كلها.

ثم التفت ناحية الباب وقال دون أن ينظر لرافي.

- أظن كده قمة العدل، إنت نفذت انتقامك، واحنا اتخلصنا من الفسدة، لعبة عادلة مية في المية، وأنا عارفك بتحب الفير بلاي.

- بس انت مش هتقدر تمنعني يا باشا، إنت عارف كويس أوي إن

قبضك عليًا أو عدم قبضك علي مش هيأثر في حاجة، وإن كل حاجة هتمشي زي ما متخطط لها بالضبط.

توقف، لا زال موليًا ظهره تجاه رافي، بينما عاد الأخير بظهره مستندًا بالكامل على المقعد، عاقدًا كفيه من جديد فوق الطاولة، وعادت الابتسامة الهادئة الواثقة تعانق شفتيه من جديد.

- كل الكلام اللي انت قلته دلوقتي عن الخدمة الجليلة والمهمة الناجحة ده كلام أنا عارفه وحافظه كويس، تخيل إني في الأول افتكرتك بتتكلم بجد.

توفيق لا زال صامتًا موليًا ظهره لرافي، يرفع عينيه ببطء ناحية الحائط يراقب ظله الذي ارتمى طويلًا الى يساره، بينما فوق رأسه على الحائط وضعت لوحة مختلطة الألوان في اطار خشبي أنيق، ينافي فخامة وعتاقة الغرفة.

- بس بعد شوية لقيت ميكانيزمات الدفاع والإنكار بتنط من حروف كلامك، إنت عايز تخرج من هنا منتصر حتى ولو كان ده على حساب المنطق والعقل، يا حضرة الضابط، كل حاجة حصلت لحد ما شرفتني هنا كان متخطط لها كويس أوي، من أول المطعم، للفيديوهات، للصحرا للفيلم الوثائقي، كلها كانت خطوات في سلم ضلمة طويل بتجري فيه ورا ديل قطة، ولازم تطلعه عشان توصل للقطة نفسها، فمش بعد ما طلعت السلم ده ولقيت القطة قلبت أسد، هتقول مانا كنت عارف من الأول إنها اسد، ده مش فير بلاي يا باشا.

عينا توفيق لا زالتا معلقتين باللوحة، بينما شعر للمرة الأولى أن ظله السميك الطويل يتحرك بمفرده وكأنه يريد الالتفات إلى رافي، والتصفيق

له بحدة، إنه محق في كل حرف، توفيق ظل منقادًا يصعد السلم المظلم وراء ذيل قطة، وعندما وجدها أسدا ينتظره كي يسحبه ويخرج به إلى النور، ادعى أنه كان يعرف، واستدار ينوي الرحيل تاركًا الأسد.

وكأن الأسد لن يزأر معلنًا عن نفسه.

لكن توفيق يعرف جيدًا أن شيئًا لن يخرج من هذه الجدران بمفرده، قواعد اللعبة لن تسمح لرافي بأن يزأر موصلًا صوته.

- عارف يا رافي، على الرغم من إنك اتولدت واتربيت وعشت في البلد دي، إلا إنك نسيت حاجة مهمة أوي.

صمت رافي، بينما توفيق يتابع ورأسه تدور نصف دورة، حتى أن رافي تخيل - من ألاعيب الإضاءة الخافتة- أن رأس توفيق دارت نحوه بمفردها دون الجسد.

- البلد دي، وفي المنطقة دي بالذات، ماشية بنظام مضبوط زي الساعة من ٧ تلاف سنة، اللي احنا عايزينه يظهر بيظهر، واللي احنا عايزينه يستخبى بيستخبى، مفيش حد هيغير النظام ده ولا بعد مليون سنة، ومهما كبرات إمكانياتك وزادت فلوسك، مش هتقدر تتحدى نظام اتحط من سبع تلاف سنة، ولا هتقدر تغيره ولا بعد مليون سنة.

- هحاول يا باشا.

- يبقى ربنا يوفقك.

ثم رفع يده من جديد مودعًا، وغادر الغرفة.

وقبل أن يصل إلى الباب توقف من جديد، والتفت إلى رافي وعلى وجهه علامات التساؤل، فهز رافي رأسه على سبيل الاستفسار هو الآخر.

- إيه يا باشا، غيرت رأيك ولا إيه؟

- لا مش للدرجة دي، هو بس عندي سؤال صغير عشان أبقى فهمت كل حاجة.

- كلي آذان صاغية.

قالها رافي بهدوء، بلهجة باطنها السخرية، وبرغم محاولاته المضنية أن يخبئ سخريته إلا أنها فضحته في كل حرف خرج من بين شفتيه.

- خرجتوا بهاء من المطعم إزاي؟ أنا كنت على أول الممر بتاع الحمامات، وطارق كان قدام الباب و......

ثم صمت قليلًا، وراحت خلايا عقله تلتهم بعضها البعض كثعبان يلتهم ذيله.

* * *

مش عارف يا فندم، إنت شفتني بعينك وانا بكسر الباب، الباب كان مقفول من جوة ومفيش أوكرة ولا مفتاح من برة.

* * *

- سكت ليه يا باشا؟

- اكتشفت سؤالي كان قد إيه غبي.

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة هادئة، وراحت عيناه تجوب الغرفة نصف المظلمة.

- ابقى سلملي عليه كتير.

ثم استدار مغادرًا الغرفة، مغادرًا إياها بلا عودة أو استدارة أو التفاتة هذه المرة.

وبينما يغادر الفيلا، رفع توفيق هاتفه المحمول ناحية أذنه، وراح يتحدث بصوت مكتوم.

- تمام سعادتك، أظن كدة كل حاجة وضحت، كل حاجة اتسجلت بالصوت، وقانوني معاليك.

ثم مد توفيق يده في جيب بنطاله، وأخرج قداحة تشبه قداحته التي استخدمها طوال الساعات الأربع، وراح ينظر لها وهو يبتسم ساخرًا.

بينما اللواء شكري يتابع عبر موجات الميكروويف المحمولة إلى سماعة هاتف توفيق.

- هايل يا توفيق، تصرفك كان هايل، ده انت زي ما تكون كنت عارف كل حاجة.

- أنا معملتش حاجة معالي الباشا، أنا بس وصلتله الرسالة اللي كان لازم يفهمها من الأول.

- و تفتكر فهمها يا توفيق؟

ضيق توفيق عينيه وهو يراقب الطريق الهادئ، وتابع في صوت خافت:

- أتمنى ذلك يا فندم.

- عمومًا النائب العام هيطلع القرار بعد ساعات قليلة، وبعدها نبقى نشوف موضوع رافي كشيشيان ده بعدين.

ـ تعليمات سعادتك.

ثم تغيرت لهجته إلى صوته الجهوري المعتاد.

ـ إن شاء الله التقرير هيكون على مكتب سعادتك الصبح، وبالنسبة للتحريات، تعليمات سعادتك.

ـ زي ما اتفقنا يا توفيق، الفساد لازم يتكشف، واحنا في دولة لا تسمح بالفساد، خاللي الجهات الرقابية تشوف شغلها.

ـ كلامك مضبوط يا فندم.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه الممتلئ، ثم أغلق الخط، ولف برأسه ليلقي نظرة أخيرة على نافذة الغرفة، على الشيش القديم نصف المغلق، الشيش الذي يقف خلفه رافي، يراقب بعينين تشعان بريقًا حالمًا، يراقب توفيق، وعينيه اللتين تخترقان الشيش نحوه، بينما اقترب منه خيال شاب طويل القامة،في نهاية عشريناته، يرتدي ثيابًا عصرية أنيقة، وقال بعربية مصرية هادئة راقية:

ـ مقولتلوش الحقيقة كلها إيه؟

ـ ينفع واحد أعمى أول ما يفتح عينه، تقوله بص للشمس.

ثم خفت صوته وقال كأنه يحادث نفسه:

ـ المعرفة متعبة، مؤلمة، وعشان تقتدر تستوعبها لازم تبقى مستعد لكدة.

ثم التفت ناظرًا إلى توفيق الذي يمشي بهدوء ناحية سيارته، بينما عيناه تسرحان إلى ذلك اليوم، يوم أن كان جالسًا على النيل مع سيمون بابويان.

- كلامي معاه عن المبررات ما أقنعوش، وشوية شوية هيبدأ عقله يشتغل، ويعرف إحنا ليه بالذات اخترنا الستة دول، ليه هم بالذات دونًا عن كل أحفاد الست باشاوات، وساعتها هيدور وراهم، ويكتشف إنها مش أول ليلة ولا أول مرة يجتمعوا، وإنهم افتكروا نفسهم بيصادونا، بس إحنا اللي اصطدناهم، وإننا ببساطة، قدمنا خدمة جليلة للعالم كله إننا عملنا فيهم كدة

- معتقدش إنه هيوصل لده بسهولة، إنت عارف إن اتصالاتهم كانت سرية جدًا ومعقدة جدًا، وهم فعليًا ميعرفوش بعض بالاسم، ولا حد فيهم عارف البقية، إنت ناسي إحنا وصلنا لاجتماعاتهم إزاي.

ابتسامة هادئة، أبوية تحمل لمحة من السخرية، نبتت على وجه رافي السارح في ضوء الشارع الخافت من بين فرجات الشيش.

- من الظلم إننا نعتقد عكس كدة، إنت اشتغلت معاه فترة كبيرة وعارفه أكتر مننا، وعارف إن كلامي رمى بذرة الشك جواه، وكلها كام يوم وتبدأ تنبت جوة عقله، وعقله هيوصله، أنا متأكد.

ابتسم الشاب، وأومأ برأسه موافقًا على كلام رافي، ثم صمتا لا يقطع صمتهما سوى صرير عجلات سيارة توفيق، التي غادرت المكان أمام الفيلا.

بينما قطع الشاب الصمت متسائلًا:

- بس تفتكر الحكومة هتمنعنا إزاي؟

- مش هيغلبوا، هيلاقوا حل، بس المهم إننا مستعدين لكل الاحتمالات.

هز الشاب رأسه موافقًا، بينما التفت له رافي وعلى وجه ابتسامة حنون، وربت بكف يده على وجهه الحليق.

- إنت مش ناوي تتعلم أرمني بقى؟

- بعد ما شاب ودوه الكتاب يا خالو.

- لازم تتعلم، دي لغة بسيطة أوي، تحب أعلمك أنا ولا أخلِّي أمينة تعلمك.

- لا أرجوك، بلاش أمينة، ساعات بحس إن أحمد الشريف لما مات روحه طلعت ولبستها هي، لدرجة إنها بقت أمي وأبويا في نفس الوقت.

ارتفعت ضحكة رافي عالية، وهو يضرب كتف الشاب بقبضته في مرح، بينما جاء صوت نسائي قوي من طرف الغرفة، يصدح بأرمنية قاسية:

- وبعد الضحك والمزاح، ماذا سنفعل، هل سنقف مكتوفي الأيدي و نخبئ انتصارنا، هل سنقتل سنينا من البحث والتنقيب والتخطيط لأنك وابني العاق معجبين بضابط شرطة؟

التفتا كليهما ناحية مصدر الصوت، الخيال المنتصب معقوص الشعر، ثم خرجت الكلمات هادئة واثقة:

- سنترك كل شيء يختمر يا عزيزتي، سنترك الأخبار تنتشر، والكلمات تنزرع في عقول الناس، وبمجرد أن يرفع حظر النشر المتوقع، سنكون نحن أول من ينشر انتصارنا الكبير، وبأكبر ضوضاء ممكنة، والآن هلا أخذتي ابنك للطاولة الأخرى، سيفوتنا موعد العشاء.

ثم التفت إلى الشاب، وقال بعربية مصرية مازحة:

- يلا خد ماما واطلعوا على أوضة السفرة، وانا هحصلكم.

أومأ الشاب برأسه، ثم اتجه ناحية مصدر الصوت.

بينما رافي، يسرح بعينيه نحو تلك اللوحة، المعلقة في صدر الحائط المقابل له.

لوحة تمثل خيالًا أبيض رقيقًا، يجلس وسط خيالات ملونة تراقبه في صمت.

لوحة ألهمته فكرته كلها.

تذكر كلمات ابن أخيه زاكار في تلك الليلة:

«سنضعهم على طاولة العشاء حولك، لكنهم هذه المرة لن يكونوا هم المدبرون كما كانوا دائمًا، لن يبيعك أحدهم بثلاث قطع من الفضة، ولن ينكرك أحدهم ثلاث مرات، أنت من ستوقع بهم، وتبيعهم للناس بلا ثمن، وتصنع من ذلك العشاء مجدًا جديدًا، هم يظنون أنهم أحكموا الخناق حولك، كالثعلب الذي يتسلل إلى حظيرة الدواجن، لكنك ستكون من فتح لهم الباب، ستتركهم يدخلون، ثم ستغلق خلفهم، لكتشفوا أن في الحظيرة كلب مفترس، سينهش لحمهم ويقطع نسلهم وينهي حياتهم البائسة بضربة واحدة، أجدادهم قتلونا، وشردونا، وهم لا ينكرون ذلك، إذن فلتضربهم اللعنات، ولتسحقهم قبضة القدر، ستكون أنت المخلص، لكنك ستخلص البشرية منهم، وستمنحنا مجدًا جديدًا نتحاكى به في ليالينا الطويلة».

«ستكون تلك ليلتهم الأخيرة، ويكون هذا العشاء»

قطع رافي سيل ذكرياته، وهو يغمغم في هدوء:

ـ العشاء الأخير.

* * *

خبر في جريدة المصري اليوم، مساء يوم الرابع والعشرين من مايو ٢٠١٥

النائب العام يقرر حظر النشر في قضايا المتهمين الستة

الحظر جاء لتمكين جهات التحقيق من إتمام تحقيقاته بسرية حفاظًا على سمعة المواطنين

* * *

خبر في جريدة الدستور، مساء يوم الخامس والعشرين من مايو ٢٠١٥

انتحار ميريت جميل

المهندسة الشهيرة تنتحر بالقفز من شرفة منزلها بعد انتشار فيديو لها في أوضاع مخلة

* * *

خبر في جريدة النبأ، مساء يوم الخامس والعشرين من مايو ٢٠١٥

عزاء ليلى حسني.. بلا معزيين

والدة الفنانة المتوفية: ابنتي كانت وفية للجميع لكن الجميع تخلوا عنها

برلين

الخامس عشر من مارس ١٩٢١ .. التاسعة وأربعون دقيقة مساءً

أسبوعان كاملان.

أسبوعان مرا على صوغومون، أسبوعان مرا عليه في تلك الشقة الضيقة الباردة في ضاحية تشارولتنبرج بوسط برلين.

أسبوعان منذ أن أمره شاهان بالسفر إلى برلين، والسكن في تلك الشقة الباردة، وأن يجعل من كل يوم خطوة تقربه من هدفه الأول.

رأس الرقم واحد.

يتذكر كلمات شاهان نتال جيدًا، ترن في أذنه مع إشراقة كل صباح ومع كل إسنادة رأس على الوسادة القطنية الصلبة.

«ستقترب من الرقم واحد يا صوغومون.. وستنظر في عينيه.. ثم تفجر جمجمته على العلن.. ولن تتحرك بعدها خطوة واحدة.. ستقف مكانك صامدًا شامخًا كالجبل».

كل يوم مر عليه في برلين، كل لحظة عبرت عليه وهو يمشي في

طقس مارس البارد القاسي، في ألمانيا لا وجود للربيع، إنه شتاء قارص وصيف قائظ، لا ربيع هنا ولا خريف.

كل صباح يستيقظ من غفوة متقطعة كسير الأعرج، لا تدوم لحظات الراحة فيها أكثر من ساعة واحدة، غفوة يرى فيها كوابيس من سنينه الست الأخيرة، أمه وشقيقه وعائلته الكبيرة التي خسرها في أبريل، وعيون أمه الحزينة الدامعة التي تقض مضجعه.

كل صباح يستيقظ، فيلتهم كسرتين من خبز جاف و كأس بيرة باردًا، وينظف في حرص مسدسه اللوجر، السلاح البارد كبرد أيامه وبرد قلبه الموجوع.

حتى حان اليوم، حتى جاءته الإشارة، فقرر أنه سوف ينفذ غدًا وفي الصباح الباكر.

بالأمس جلس فوق سطح المنزل، مربعًا ساقيه، يلتحف معطفه الشبيه بفراء الدب ليقيه من صقيع الليل، ويراقب ببصره الحاد المدرب هدفه البدين وهو يقطع اللحم بسكينه الحاد، ثم يلوكه بين أسنانه النخرة.

ليكون العشاء الأخير لك أيها السفاح.

هذا ما انتواه وهذا ما عقد العزم عليه. استيقظ صوغومون، وارتدى حلته السوداء وتزين كأنه يوم عرسه، شعره المصفف بعناية وذقنه الحليقة الناعمة، وعيناه المليئتان بتحدٍ وغضب.

ينزل إلى الرصيف، يقف متحسسًا سلاحه البارد القابع في جيب سترته، بينما يظهر أمامه الرقم واحد.

يخرج بقامته القصيرة الممتلئة، وشواربه المفتولة المصبوغة بالحناء السوداء، يخرج من باب البناية رقم ٤ بشارع هاردينبينجستراس في تشارولتنبرج، ينظر إلى السماء نصف الغائمة، ويستنشق نسيم الصباح، ثم يمضي في طريقه.

نفس الخطوات، نفس التوقيت، طلعت باشا الوزير الأول ورجل الدولة الأعظم في نهايات تركيا العثمانية، الذي هرب إلى ألمانيا واختار حياة المنفى بدل حياة السجن، الرجل الذي أعطى إشارة البدء لتنفيذ كل شيء.

يعبر صوغومون الطريق المعبد بخطوات واسعة رشيقة من أثر التدريب العسكري الصارم، ويقترب من الهدف الماشي ببطء فوق الرصيف الحجري.

يقف الهدف قليلا فيبطئ صوغومون، يشتري طلعت باشا الجريدة من طفل صغير ينعق على بضاعته، وينقده بضع من فكة المارك، ثم يرفعها إلى وجهه ليلقي نظرة على العناوين.

صوغومون يقترب من الرقم واحد، يده تمتد إلى جيب سترته، طوال أيامه الماضية راودته مخاوفه الخاصة، ماذا لو اقترب منه ونادى عليه ثم مد يده في جيبه فلم يجد سلاحه، ماذا لو لم يلتفت له، وكأن سنين المنفى قد تسلبه سمعه وانتباهه.

السلاح البارد هناك، ينتظر يد صوغومون المعروقة كي تقبض عليه، وتسحبه إلى خارج سترته.

عيناه الصلبتان الباردتان كألف ألف مسدس، وعزيمته التي لن تهزمها جيوش الإمبراطورية البائدة.

ـ طلعت باشا.

صرخ بها فتوقف الزمن، وتوقفت السحب عن الحركة، وتجمد الهواء من حولها، واستقرت الطيور فوق أسطح البنايات.

الكون كله وقف ليشهد هذه اللحظة.

طلعت باشا يسمع النداء، فيلتف ناحية مصدر الصوت، لم ينادهِ أحد بلقب باشا منذ فراره من تركيا قبل أن يضعوه في السجن، لم يسمع هذا النداء من قبل بهذه الصرامة وهذا العنفوان.

استدار ليجد فوهة مسدس أسود بارد أصم، من طراز لوجر، خلفه عينان صارمتان واسعتان، وفم ذي شفتين رفيعتين.

ـ أنا صوغومون تهيليريان وقد جئتك ممثلًا لشعب أرمينيا الحر.

ثم انطلق الأمر من عقل صوغومون، إلى إصبعه.

غير مبالٍ بنظرة الفزع التي كست وجه طلعت.

غير مبالٍ بصراخ المارة.

غير مبالٍ بالجريدة التي سقطت فوق الرصيف.

لقد انتهى الأمر، وصدر الحكم.

وانطلقت الرصاصة الصغيرة.

الرصاصة التي بدأت كل شيء.

* * *

لم يعد مكان في هذا العالم

ولا حتى مقدار شبر

لم يعد تحت الشمس مكان

يمكنه أن يسميه (البيت)

ليس لديه من شيء

سوى الخوف

أندرانيج تساروكيان

إلى الفلسطينيين

إلى البوسنيين

إلى الأرمن

إلى السوريين

إلى الروهينجا

إلى الإيجور

إلى الكشميريين

إلى الأكراد

إلى الأمريكيين الأصليين

إلى كل من سلبت منهم أرضهم، وطهروا عرقيًا، وشردوا وسرق حقهم واعتدي على سلامهم

إليكم جميعًا

شكر خاص وتقدير

ـ مرال بابويان.

مرجعي الأرمني الحي.

ـ أحمد عبد المجيد.

الصديق والمستشار الذي تحملني كثيرًا حتى انتهيت من هذا العمل.

ـ محمود توفيق.

الأخ العزيز والصاحب في السفر وأحد الملهمين لهذا العمل.

ـ صفاء أحمد.

الحبيبة والصديقة ورفيقة الأيام المرة والأيام الحلوة.

ـ محمد فؤاد وأحمد القاضي.

أبنائي الذين لم أنجبهم.

ـ طاهر سيد.

أخي الذي لم تنجبه أمي

وكل من ساعدني بكلمة أو بفكرة أو بنصيحة

أشكركم جميعًا، أشكركم من صميم قلبي

المصادر

- العملية نميسيس ـ للكاتب الأمريكي الأرمني إريك بوجوسيان ـ كتاب تاريخي.
- الجبل العميق ـ للكاتبة التركية إجي تملكوران ـ ترجمة ميسرة صلاح الدين.
- التقويم ـ فيلم روائي طويل ـ إخراج أتوم أيجويان ـ إنتاج عام ١٩٩٣.
- أرارات ـ فيلم روائي طويل ـ إخراج أتوم أيجويان ـ إنتاج عام ٢٠٠٢.
- الحركات الثورية الأرمنية ـ لويزا نالبنديان ـ رسالة دكتوراه.
- الأرمن في مصر ـ د. محمد رفعت الإمام ـ دراسة.
- القضية الأرمنية في الدولة العثمانية ـ د. محمد رفعت الإمام ـ دراسة.
- مقالات من ديوان الأهرام ـ مجلة ثقافية ـ العدد ٣٨ ـ أبريل ٢٠١٩.

العشاء الأخير

نحن أمام قصة مختلفة.

قصة مطعم لا يستقبل روّاده وزبائنه قبل التاسعة مساءً.

قصة عائلة هربت من مصير مظلم لتواجه قدرًا محكومًا.

قصة رجل وجد نفسه وسط حرب لا ناقة له فيها ولا جمل.

وقصة ما حدث في ليلة الرابع والعشرين من إبريل عام 2015.

قصة ذلك العشاء الذي جمع بين أناس لا رابط بينهم.

العشاء الأخير.

ميسره الدندراوي

روائي مصري من مواليد القاهرة عام 1980، يعمل مهندسًا في مجال صيانة وإدارة المنشآت. نُشرت له روايات "آثار جانبية" عام 2015، و"صمت مزعج" عام 2017، و"العنصر التاسع" عام 2018، وتُعتبر "العشاء الأخير" هي روايته الرابعة.



تصميم الغلاف كريم آدم